الباب الثالث

جبــل نفوســة بيــن ثلاث قــوى

الفـاطـميــون - الـزيريــون - الـهلاليــون

296-442هـ (909-1053م)

الفصل الأول

جبل نفوسة والخلافة الفاطمية.

1 - النظام السياسي في الجبل بعد سقوط إمامة الظهور.

أ - الرئاسة العامة.

ب - مقدمي النواحي.

2 - الحروب الأهلية.

3 - الهجرة النفوسية إلى إفريقية والمغرب الأوسط.

4 - قيام الدولة الفاطمية في بلاد المغرب وموقف الإباضية منها.

5 - الانتفاضات الإباضية:

أ - ثورة طرابلس (300هـ/912م).

ب - ثورة نفوسة (310هـ/922م).

جـ - ثورة النكارية (322هـ/933م).

د - ثورة الوهبية (358هـ/968م).

1 -النظام السياسي في الجبل بعد سقوط إمامة الظهور:

رأينا في الفصول السابقة أن قوة نفوسة كانت كبيرة، وأن المذهب قام بسيوفها ولكن هذه القوة لم تعمر طويلا لأنها تعرضت لأكبر هزيمة على يد الأغالبة في موقعة مانو الشهيرة سنة 283هـ (896م) وعجزت على إنقاذ الإمامة التي كانت تحتضر، خاصة مع تفاقم الصراع الأسري حول السلطة، ونجاح الدعوة الشيعية في بلاد المغرب. فعندما استطاع أبو عبد الله الشيعي دخول تاهرت سنة 296هـ (909م) دون قتال خرج يعقوب بن أفلح مع أهله وجمع غفير من التيهرتين متجهين إلى وارجلان خوفا من بطش الشيعي، ويبدو أن رفقاء يعقوب كانوا كثيرين حتى إنه ولد لهم في الطريق في ليلة واحدة سبعون ذكرا عدا البنات[503].

ويبدو كذلك أن عددا غير قليل منهم فضل البقاء في المدينة على الرغم من أن المصادر الجغرافية تتحدث عن ازدحام بعض المناطق بالإباضية خاصة منطقة الزاب وجبل أوراس. فابن سعيد يشير إلى أن معظم سكان أوراس كانوا من لواتة الإباضية[504]. كما تضاعف عدد الفارين إلى الزاب، وقسطيلية، وقفصة، وبشرة، وسوماطة في منطقة نفزاوة. والتجأ بعضهم الآخر إلى جبل نفوسة، وجزيرة جربة[505]. كما زادت أعدادهم في مدينة باغاية. فالبكري يذكر أن سكانها من مزاتة، وضريسة كلهم إباضية، كانوا يضغنون في الشتاء إلى الصحراء حيث لا توجد الأمطار خوفا على نتاج إبلهم[506].

ولاشك أن حركة الهجرة من تاهرت كانت كبيرة، حتى وإن لم تكن دفعة واحدة نظرا للظروف الصعبة التي مرت بها المدينة بعد وقوعها في يد الشيعة. وقد عبر عن تلك الظروف ابن حوقل بقوله: «تغيرت تاهرت عما كانت عليه، وأهلها وجميع من قاربها من البربر في وقتنا هذا - (توفي في القرن 4 الهجري) - فقراء بتواتر الفتن عليهم، ودوام

---

503 - الشماخي: السير، ص365 وما بعدها؛ حمو محمد عيسى النوري: دور الميزابيين في تاريخ الجزائر قديما وحديثا، دار الكروان، باريس، 1984، ج1، ص107.

504 - ينظر: كتاب الجغرافية، ص144.

505 - ابن حوقل: صورة الأرض، ص93؛ موسى لقبال: دور كتامة في قيام الخلافة الفاطمية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 1979، ص348؛ موسى لقبال: من قضايا التاريخ الرستمي، مجلة الأصالة، منشورات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، 1977، عدد41، ص57.

506 - ينظر: المغرب، ص144-145.

القحط، وكثرة القتل والموت»[507]. وكانت بالأمس القريب مدينة جليلة المقدار، عظيمة الخيرات، حتى سميت «عراق المغرب»[508].

ومما لاشك فيه كذلك أن جزءً مهما من الجالية النفوسية فيها قد غادرتها هي الأخرى مثل كل إباضية المدينة. فمنهم من رحل إلى وارجلان مع آخر الأئمة، ومنهم من التجأ إلى جبل نفوسة، خاصة وأنه يتوفر على كل أشكال الحماية من مناعة وصعوبة في المسالك بعيدا عن ضغوط الشيعة المذهبية.

ومهما يكن من أمر، فإن يعقوب بن أفلح قد رفض رفضا قاطعا إحياء الإمامة المندثرة بطلب من سكان وارجلان قائلا لهم: «لا يستتر الجمل بالغنم»* معبرا عن الضعف الذي حل بأهل الدعوة. وبذلك انتقل الإباضية من إمامة الظهور[509] إلى إمامة الكتمان[510]. وأصبحت الجماعات الإباضية تعيش لأول مرة دون كيان سياسي يحميهم، ويلم شملهم، إذ حل الحكام المحليون محل الإمامة ودخل الإباضية مرة أخرى في مرحلة الستر والكتمان، خاصة في مدن المغرب الأوسط.

وعلى الرغم من سقوط دولتهم إلا أن ذلك لم يقض على النفوذ الإباضي في بلاد المغرب، بل ظل جبل نفوسة معقلا رئيسيا للإباضية، حيث تمكن أهل الدعوة فيه من الحفاظ على استقلاليتهم مدة طويلة من الزمن. وأصبحت الرابطة المذهبية والثقافية هي الرابط الوحيد بين التجمعات الإباضية في كل مكان. وسنحاول في هذا المضمار أن نتناول النظام السياسي في الجبل من خلال المعلومات المتوفرة في المصادر، هذه المصادر التي تشير إلى أن النفوسيين أمروا عليهم في كل تجمع رجلا سموه (حاكم) أو (سيد) أو (مقدم). وكان هؤلاء بمثابة حكام يعوضون الأئمة، لهم كافة صلاحيات الإمام السياسية، والإدارية، والاقتصادية.[511] هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد كانوا في الوقت

507 - ينظر: صورة الأرض، ص93.

508 - اليعقوبي: صفة المغرب، ص14.

* - وفي رواية أخرى «لا يستتر الجمل خلف الغنم».

509 - هي الإمامة الكبرى المعلنة، ويشترط في إقامة هذه الإمامة أن يكون للإباضية عدة وقوة في المال والعلم بدين الله مثل الدولة الرستمية، ينظر: أبو عمار عبد الكافي: الموجز في تحصيل السؤال وتلخيص المقال في الرد على أهل الخلاف، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978، ج2، ص236.

510 - أي الحفاظ على الدين دون إعلانه حتى لا يمنع تطبيقه مثلما كان حال شيوخ الإباضية الأوائل أمثال جابر بن زيد وأبي عبيدة مسلم ابن أبي كريمة، ينظر: الجناوني: عقيدة التوحيد نشرت ضمن:
Extrait du Bulletin d>études orientales, 1980, T3233-, p49.

511 - كان الإمام الرستمي يتمسك بالسلطة التامة، فهو أمير المؤمنين والقائد الأعلى للجيش والقاضي الأكبر والعالم بالعقيدة والتوحيد والمحتسب، ورغم سعة السلطة التي تمتع بها فإنه لا يمكن له أن يطبق سياسة إلا على أساس امتثاله لما جاء في القرآن والسنة، وإذا خرج عنها فإن الفقهاء والعلماء المعترف بكفاءتهم بين أهل

نفسه قضاة يحكمون بين المتخاصمين وفق المذهب الإباضي، كما حملوا على عاتقهم مسؤولية تنظيم الحلقات العلمية وتدريس التلاميذ فمعظم الحكام الذين أفادتنا المصادر بسيرهم كانوا من أهل العلم، وبتعبيرها «أصحاب القلنسوات».

والإشكالية التي نواجهها في دراسة النظام السياسي في الجبل هي أن مصادرنا الرئيسية لا تعطينا قائمة متسلسلة تاريخيا للحكام، بل تكتفي بالحديث عن سيرهم وحلقاتهم العلمية. أما طبيعة النظام السياسي في الجبل فيكمن في أن النفوسيين يعينون رجلا يشرف على تسيير شؤون الجبل ويتخذ في الغالب مدينة جادو مركزا له، وتكون رئاسته شاملة. أما المدن والقرى الأخرى، فكان يشرف عليها مقدم أو سيد يعين في أغلب الأحيان من قبل الرئاسة في جادو، ويكون بمثابة مقدم محلي يساعد الرئاسة العامة في تسيير شؤون مدينته، وتدخل في هذا التعيين اعتبارات قبلية وعلمية.

أ - الرئاسة العامة:

إن أول من تولى رئاسة أهل الدعوة في الجبل هو أبو محمد عبد الله بن الخير، نصب مباشرة بعد هزيمة نفوسة أمام الأغالبة في مانو. وكان من العلماء القلائل الناجين من هذه المعركة، إذ لم يبق من علمائها سوى أبي القاسم البغطوري، وعبد الله بن الخير اللذين توليا الفتيا في نوازل أهل الجبل، ولولاهما لعطلت إلى يوم القيامة على حد قول أبي زكريا[512]. والحقيقة أن أبا القاسم كان هو المفتي بينما كان عبد الله يشرف على ولاية الجبل، وعلى الرغم من تقدم الأول في السن إلا أنه كان يسير كل ليلة من «ويغو» إلى «بغطورة»[513] لكثرة النوازل. وقد قيل إنه جلس للإفتاء بعد مانو ثلاثة أيام بلياليها، وقيل يوما وليلة[514]. وهذا دليل على ندرة العلماء في الجبل في هذه الفترة، ويبدو أن المفتي كان مساعدا رئيسيا للرئاسة، ولذلك كان يختار من العلماء الأكفاء المعترف بأهليتهم في هذا الميدان بين أهل الدعوة.

تصنف المصادر عبد الله بن الخير ضمن علماء الطبقة الخامسة (200-250 هـ)، تولى الرئاسة باتفاق أهل الحل والعقد. نشأ في قرية «تين زيرف»[515]، وفيها تعلم مبادئ الدين ثم

الدعوة هم الذين يقررون عدم أهليته للقيام بالحكم فيعزل. ينظر: محمد ولد دادة: مفهوم الملك في المغرب، دار الكتاب اللبناني، ط1، بيروت، 1977، ص27.

512 - ينظر: كتاب السيرة، ص154.

513 - ذكرتها المصادر بأسماء عديدة: بغطورة يقطورة بغطورة، وهي قرية تقع قرب الجزيرة المشهورة التي تطل على وادي شروس. وهي لا تبعد كثيرا عن دركل ودجي وزعرارة وويغو. ينظر: معمر: الإباضية في ليبيا، ص184.

514 - الشماخي: السير، ص235.

515 - تقع هذه البلدة على قمة جبل يطل على واد يفصل بينها وبين (تميجار) اولاد بوجديد اليوم في منطقة

انتقل إلى حلقة العلامة أبي ذر أبان بن وسيم. وفيها تخرج وأصبح عالما فاضلا. مما جعل سكان الجبل يقدمونه للصلاة. والمعروف أن أبا ذر كان واليا بالجبل ممثلا للإمامة الرستمية في عهد أبي اليقظان بن أفلح (261-281هـ) (874-894م). تولى عبد الله ولاية الجبل مباشرة بعد وفاة أفلح بن عباس. وقد عمر طويلا إذ توفي عن عمر يناهز مائة وعشرين سنة[516]. فقد كان على قيد الحياة سنة 310هـ (922م) عندما حاصر الفاطميون قرية «الجزيرة» الواقعة في الناحية الغربية للجبل. وظل أبو عبد الله يحتفظ بمقامه العالي والمرموق بين أهل الدعوة رغم أن مقاليد الولاية انتقلت إلى أبي يحي زكريا الأرجاني. ويرى ليفيسكي أن أبا محمد لم يتول الولاية مباشرة بعد «مانو» - أي بعد سنة 283هـ (896م) - لأن الوالي وقتها كان أفلح بن العباس. فهو الذي قاد قوات نفوسة. ولكن بعد عودة مَنْ تبقى من فلول الجيش عزل لأن أصحابه حملوه مسؤولية الهزيمة.وعينوا مكانه ابن عمه. ولا تذكر المصادر اسم هذا الأخير. وتكتفي فقط بالقول بأنه عُزِلَ هو الآخر بعد ثلاثة أشهر. لأنه لم يحسن السيرة. فرجع الناس مرة أخرى إلى أفلح وولوه أمورهم. ويرجح ليفيسكي أن تعيينه كان بعد وقت قصير من الموقعة - أي بين سنتي 285هـ (898م) و290هـ (902م) - واستمر في السلطة إلى ما بعد سنة 310هـ (922م)[517].

وسار أبو محمد سيرة حسنة في أهل الدعوة. وعمر كثيرا حتى غلب عليه الكبر. وأصبح يجهر بصوته في القراءة السرية في الصلاة. واضطر إلى القدوم إلى منزل أبي القاسم ليعاونه في تسيير شؤون الناس[518].

ونظرا لتقدمه في السن أُوْكَلَ قيادة جيش نفوسة إلى أبي يحي زكريا الأرجاني عندما حاصر الفاطميون الجبل سنة 310هـ (922م). ولا يعرف على وجه التحديد متى توفي عبد الله. ومتى تولى أبو يحي زكريا السلطة. ومن المحتمل جدا أنه تولى الرئاسة بعد سنة 310هـ (292م) لأن المصادر تشير إلى أن اختياره لهذا المنصب كان بعد إمامة أبي حاتم يوسف (281-294هـ) (894-906م)[519].

ومهما يكن من أمر فإن أبا يحي تولى ولاية الجبل باتفاق أهل الشورى. بايعوه إمام دفاع وليس مجرد مسير لشؤونهم. ذلك أن الخطر الشيعي ظل يهدد وجودهم. واستقلالهم.

الرحيبات الحالية عند وادي الرومية. ينظر: معمر: المرجع نفسه، ص147.

516- الشماخي: المصدر السابق، ص237؛ معمر: المرجع نفسه، ص147-149.

517 -T. Lewicki : Les Hakims Et Les Mukaddams Du Gabal Nafusa Au Moyen Age, Rocznik Orientalistyczny Warazawa, 1962, T 26 (2eme Episode), p99100-.

518- الشماخي: المصدر السابق، ص237-238؛ معمر: المرجع السابق، ص149-150.

519 - T. Lewicki : Les Hakims, p100.

ولذلك فإننا نلاحظ بأنه هذه المرة هي المرة الأولى التي يحمل فيها زعيم إباضي اسم «إمام» بعد سقوط الدولة الرستمية. فالشماخي يسميه: «القاضي العادل العالم الكامل الإمام الفاضل». ومما يجب الإشارة إليه هو أن لقب الإمام تطلقه المصادر على من تولى السلطة فقط. لأن الشماخي يقول: «قدمه (قدمته) نفوسة حاكما أو إماما مدافعا»[520]. ومعنى ذلك أن إمامته هي إمامة دفاع. وهي لا تختلف عن إمامة أبي حاتم الملزوزي.

كان أبو يحي ينتقل يوميا من «أرجان»[521] إلى جادو حاضرة الجبل لممارسة مهامه ويعود إليها في آخر النهار. ولم يفكر في الاستقرار في جادو رغم أن هذا التنقل اليومي قد أنهكه حتى إنه يضطر للاستراحة في الطريق العديد من المرات من كثرة التعب والضعف رغم أن المسافة غير بعيدة[522].

ودام حكمه قرابة الخمسة عشر سنة. اعترضته خلالها عدة متاعب داخلية وخارجية. ففي فترة حكمه وقعت حرب أهلية بين بني زمور. وسكان بلدة «طرميسة».[523] راح ضحيتها العديد من رجال هذه الأخيرة. وإذا كنا نجهل أسباب ودوافع هذه الحرب إلا أنه يمكن إرجاعها - على الأرجح - إلى تفشي الصراع القبلي والخلافات المذهبية. خاصة وأن الجبل شهد مختلف الطوائف من نكارية. وخلفية. ونفاثية. وربما السكاكية[524]. أما المتاعب الخارجية فتتمثل في الحملة التي شنها الفاطميون - كما سنرى - على الجبل[525].

وتشيد المصادر الإباضية بعدالته وورعه. فقد أهداه يهود «جادو» أربعين دينار بمناسبة

520 - ينظر: المصدر السابق، ص243.

521 - هي قرية تقع في الجهة الشرقية من الجبل على ضفاف وادي الزرقاء. اشتهرت هذه البلدة بكثرة العلماء مثل زورغ الأرجانية، أبو الخير الأرجاني، وغيرهم. ينظر: معمر: الإباضية في ليبيا، ص199؛ R. Basset: Les sanctuaires, p395.

522 - البغطوري: سير نفوسة، و65؛ الشماخي: المصدر السابق، ص244.

523 - هي بلدة تقع على بعد أربعة أميال من «إجناون» بنيت فوق قمة جبل، وحفرت حولها خنادق، فلا يمكن العبور إليها إلا على معابر توضع في النهار وتزاح بالليل. ينظر: معمر: المرجع السابق، ص20.

524- تنسب الفرقة إلى رجل من قنطرارة اسمه عبد الله ويكنى بأبد الله واشتهر بلقب «السكاك» تعلم فنبغ في العلم وكانت له آراؤه الخاصة التي خالف فيها أهل المذهب وهي: -1أنكر السنة والإجماع والقياس.
2 - اعتبر صلاة الجماعة والآذان بدعة. 3 - لا تجوز الصلاة إلا بما عرف تفسيره من القرآن.
4 - لا تجوز الصلاة بثوب فيه القمل. 5 - إذا بالت الدواب في الأندر لا يطهر إلا بالغسل.
للمزيد من التفاصيل عن هذه الفرقة: ينظر: الدرجيني: طبقات المشائخ، ج1، ص118-119؛ المارغني: فرق الإباضية الست، ص59؛ معمر: أضواء على الإباضية، المطابع العالمية روى، سلطنة عمان (د.ت)، ص31؛ يحي هويدي: تاريخ فلسفة الإسلام، ج1، ص48؛ سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج2، ص402-403.

525 - الشماخي: السير، ص243. T. Lewicki : Les Hakims, p100.

ميلاد صبي له، ولكنه رفضها لأنه لا يقبل الهدايا وخاصة وأنه في هذا المنصب قائلا لهم: «لو قدرت أن أصونكم لأخذت منكم أكثر من هذا، يقصد الجزية». فتعجبوا من ورعه حتى قال قائلهم: «ما رأينا مثل هذه البلاد بلدة لا يأخذ سلطانها، ولا يطمع في أموال الناس»[526].

ورغم إشادة يهود جادو بعدله، إلا أن هناك من إخوانه من كان غير راض على سيرته، حيث تمكن أحد الجند من بلدة تسمى «تين بكر» من قتله، متهما إياه بالظلم عندما خرج لقتال الفاطميين في «تيرقت»[527].

وبعد مقتل أبي يحي اجتمع رأي المشائخ على تولية أبي عبد الله بن أبي عمرو بن أبي منصور إلياس التندميرتي، وذلك سنة 325هـ (936م)، ولم يدم حكمه طويلا حتى عزل من غير حدث[528]، ربما لم يحسن السيرة وربما لأسباب أخرى نجهلها، وعوض بأبي زكريا بن أبي يحي الأرجاني لكفاءته وقدرته على مواجهة الأحداث، ولم يدم حكمه هو الآخر إذ اغتيل مثل أبيه اغتاله رجل من «طرميسة» عندما كان عائدا من قتال الشيعة، وهنا تختلف الروايات حول خليفته من بعده، فإذا كان البغطوري يذكر بأنه بعد عودة نفوسة رجع مشائخها إلى أبي عبد الله بن أبي عمرو وطلبوا منه الرجوع في الأمور وقبل ذلك بدليل أنه قال لهم: «لولا أني خفت أن أكون كمن قتل نفوسة مرة أخرى لم أرجع في أموركم أبدا»[529]، فإن الشماخي يذكر أن أبا زكريا قبيل وفاته اقترح عليهم «زيد بن أفصيت» المعروف بأبي محمد الدرفي[530] في حين يرى ليفيسكي أن أبا عبد الله بن أبي عمرو عين مرة أخرى ودامت ولايته طويلا إلى غاية منتصف القرن الرابع الهجري (10م)[531]، وهو الشيء الذي أكده أبو زكريا حين تحدث عن مقتل أبي القاسم يزيد بن مخلد، ذلك أنه لما أرسل أباضية إفريقية أبا نوح سعيد بن زنغيل لاستنفار نفوسة، وكان شيخهم ومن ترفع إليه من الأمور أبا عبد الله بن أبي عمرو[532] ويحتمل أن قدومه إلى الجبل كان سنة 355هـ (965م)[533].

526- البغطوري: سير نفوسة، و64؛ معمر: الإباضية في ليبيا، ص152-153.

527 - معمر: المرجع نفسه، ص154.

T. Lewicki : op. Cit, p101.

528- البغطوري: المصدر السابق، و22؛ الشماخي: السير، ص244.

529 - البغطوري: المصدر نفسه والورقة ذاتها.

530 - ينظر: المصدر السابق، ص244

531 - ينظر: Les Hakims, p102.

532 - ينظر: كتاب السيرة، ص201.

533- T. Lewicki :op. cit, p102.

والمؤكد أن أبا محمد الدرفي تولى السلطة في الجبل وتولى بعده ابنه أبو يحي، ولكن ولايتهما كانت على أهل جادو فقط، ولم تشمل الجبل كله كما أوصاهم أبو زكريا[534]. اتخذ أبو عبد الله مدينة جادو مركزا للولاية حتى إن منزله - الذي كان يدير منه دفة الحكم - أصبح مشهورا في الجبل، فالإباضية يسمونه «دار بني عبد الله» وتكمن شهرته في أنه كان مجلسا وملتقى للمشائخ. وقد عايش أبو عبد الله أحداثا ساخنة كثورة النكار بزعامة أبي يزيد، رغم أن الوهبية كانوا غير معنيين بها حسب ما روته المصادر، كما شهد التحضير لثورة الوهبية فهو الذي وعد أبا نوح بإمداده بفرق من الجند رغم ضعف نفوسة وانكسارها بعد مانو، ولا نعرف بالضبط متى توفي لأنه مباشرة بعد انهزام الوهبية توجه أبو خزر إلى الجبل، وكان الوالي وقتها أبو زكريا عبد الله بن أبي عمرو بن أبي منصور إلياس، فقد كان هذا الأخير «القائم على شأن أبي خزر والحافظ له»[535] ويمكن تحديد تاريخ وفاته بين سنتي 355هـ (965م) و358هـ (968م).

تولى أبو زكريا السلطة باتفاق المشائخ، ودام حكمه ستين سنة وقيل سبعين، فإذا كان تعيينه قد تم بأشهر قليلة قبيل هزيمة الوهبية، فمعنى هذا أن حكمه دام إلى غاية سنة 418 هـ (1027م) أو (1036م)[536]. عرف أبو زكريا - كغيره من الولاة - بغزارة علمه ورغم ذلك كان يستعين بأبي محمد الكباوي، وأبي يحي الفرسطائي حتى إنه كان يحكم بما اتفقا عليه. وكان لا يتوانى في ملاحقة الجناة في مختلف حواضر الجبل، فقد قيل له إن أحدهم في «إجناون» فتوجه إليه صبيحة العيد، وطلب من عزابتها تسليمه لحبسه في جادو، وسمع بآخر في بلدة «ويفات» [537] فألقى عليه القبض ونفذ فيه حكم الشرع[538]، ولا نستغرب إذا أشاد البغطوري بتقواه وحزمه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بقوله: «لا ينام كل ليلة حتى يميز نفوسة كلها قويهم وضعيفهم، ومن فيه الحق ومن لم يكن فيه الحق، وذلك من كثرة خوفه من التقصير»[539].

حاول في العديد من المرات التخلص من هذا العبء، لكن المشائخ رفضوا فهو الذي جنبهم سيوف الفاطميين وبني زيري - كما سنرى فيما بعد - بحنكته السياسية، وظل على هذه السيرة إلى أن اشتد عليه المرض، فلما سأله المشائخ رأيه فيمن يولونه أمورهم اقترح عليهم أحد الثلاثة: أبو زكريا اللالوتي، أبو يعقوب البغطوري، أو أبو داود

---

534 - الشماخي: السير، ص285.

535 - أبو زكريا: كتاب السيرة، ص231.

536 - T. Lewicki : Les Hakims, p103.

537 - هي قرية تبعد عن جادو بعشرة أميال.

538 - الشماخي: السير، ص319؛ معمر: الإباضية في ليبيا، ص182.

539- ينظر: سير نفوسة، و22.

سليمان الدرفي، ولكن نفوسة رفضت الأول لبعد منزله، ورفضت الثاني لأنها تأبى أن تتقدم قبيلته، فعين لهم ابنه أبا موسى عيسى بشرط أن ينال تزكية أبي داود سليمان الدرفي، مقدم بني زمور، أهم قبيلة إباضية وهبية في الجزء الشرقي من الجبل. وعندما علم أبو داود بالوصية عمل كل ما في وسعه لتنفيذها[540].

ولما كان أبو زكريا يحتضر أراد المشائخ نقله على محمل إلى «تندميرة» [541] مسقط رأسه ليُدفن هناك، ولكنه توفي في الطريق في موقع يسمى «تمزدة» فدفن فيه[542] وتولى الولاية بعده ابنه موسى عيسى باتفاق أولي الأمر. ولا نعرف الكثير عن فترة ولايته، ويبدو أنها كانت قصيرة إذ آلت إلى أبي سليمان التندميرتي، ومنه إلى أبي عمرو ميمون بن محمد الشروسي، الذي تصنفه المصادر ضمن الطبقة الثامنة (350-400هـ) (961-1009م)، فقد كان هذا الأخير معاصرا للأمير المعز بن باديس (406-453هـ) (1015-1061م)، اتخذ مدينة شروس - مسقط رأسه - مقرا للولاية. عرف بشدته في الأمر والنهي، وبمحاربة الآفات الاجتماعية، فقد انتقل إلى «الفحص وهو موضع يبعد عن شروس بستة أميال ليقيم الحد على جماعة بلغه أنهم يشربون الخمر. فلما أمسك بهم كسر آنيتهم وأراق شرابهم، وأحضر أحدهم موثقا فحبسه في منزله حتى يبت المشائخ في أمره. وقد حاول الجاني اغتياله لكن المحاولة باءت بالفشل[543]. وتجدر الإشارة إلى أنه يفهم من حديث الشماخي بأن الوالي وقتئذ كان غيره، لأنه عندما حمل المشائخ الجاني إلى الوالي قال هذا الأخير لأبي عمر: «كدت أن تعمي الإسلام»[544].

وتولى ولاية الجبل بعد أبي عمرو ميمون أبو الفضل سهل، أحد علماء الطبقة الثامنة حسب تصنيف الدرجيني (350-400هـ) ولا نعرف تاريخ توليته، بل كل ما نعرف انه تولى الرياسة في ظروف صعبة تتمثل في كثرة الغارات. هذه الغارات التي هددت أمن الجبل واستقراره مما أجبره على تعيين حاميات في كل نواحي الجبل لتحسس الأخبار. كما تذكر المصادر أنه جهز حملة عسكرية توجهت إلى «غدامس» لوقوع فساد فيها. ورغم بعدها

540 - الشماخي: المصدر السابق، ص321؛ معمر: المرجع السابق، ص185؛ T. Lewicki : Les Hakims, p102.

541 - هي إحدى المدن المشهورة في الجبل، ينتسب إليها العديد من العلماء والزعماء مثل أبي منصور إلياس وأبي زكريا وغيرهم، عرفت كذلك باسم «تندميرت» و«تندميرت» و«تندميرة» تقع في الجزء الغربي من الجبل في بلاد الحرابة، ينظر: معمر: المرجع نفسه، ص187؛

T. Lewicki : Tasmiya Suyuks Nafusa, p103..

542 - الشماخي: المصدر السابق، ص321؛ معمر: المرجع نفسه، ص185.

543 - الشماخي: المصدر نفسه، ص273؛ معمر: المرجع نفسه، ص165.

T. Lewicki, Les hakims, p105. R. Basset :Les sanctuaires, p386.

544 - ينظر: المصدر، ص274.

عن مركز ولايته بسبع أو بثماني مراحل إلا أنه صمم على قتال أهلها رغم معارضة المشائخ له. وتمكن من إلحاق الهزيمة بالغدامسيين وإصلاح الفساد[545].

ولا نعلم هل غدامس كانت تابعة للجبل تبعية سياسية أم روحية ؟ أم إن تأديب أهلها يدخل في إطار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟ ويحتمل أن هذا الأخير هو الأرجح لأن المشائخ اتفق رأيهم - كما مر بنا - على رده وعدم تركه يواصل تلك المغامرة. فقد أودت فعلا بحياته رغم الانتصار الذي حققه. ويرى ليفيسكي أن سكان غدامس هم الذين طلبوا المساعدة من نفوسة باعتبار أن سكانها من المذهب نفسه[546]. ويحتمل كذلك أن هذا الفساد الذي تحدثت عنه المصادر هو من صنع قبائل بني هلال، لأن أبا الفضل عايش هجرتهم إلى بلاد المغرب وما صاحبها من تخريب وغارات على أملاك الناس.

وبعد مقتله اتفق أهل الحل والعقد على تولية أبي زكريا يحي بن إبراهيم الباروني النفوسي وذلك في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري (11م)، وتواصل تعيين الشيوخ على ولاية الجبل بعد الفترة التي نؤرخ لها، مثل أبي هارون موسى بن هارون الذي نقل مركز السلطة من «جادو» إلى «إبناين»، وأبي الربيع سليمان بن أبي هارون، وأبي يحي بن ماطوس وغيرهم.

ومما يمكن ملاحظته من خلال ما مر أن رياسة الجبل لم تقتصر على شيوخ من جهة ما، بل تولاها كل من رأى فيه النفوسيون الكفاءة. فقد تولاها شيوخ من أدرف، إرجان، شروس، بغطورة، تندميرة، لالوت. كما أن مركز الرياسة كان تارة في جادو، وتارة في شروس، وأخرى في «إبناين». وكان بالإمكان أن يرتقى مقدم بلدة ما إلى رياسة الجبل كله مثلما حدث مع مقدم بني زمور. ومما يجب الإشارة إليه هو أن سكان الجبل حافظوا على مبدأ الوراثة في تداول السلطة في أغلب الأحيان. وفي الأخير نقول بأن النفوسيين اكتفوا في هذه المرحلة بحكم خاص بهم حيث يجتمع أهل الحل والعقد فيختارون أكفأهم. وتكون صلاحيات رئيس أهل الدعوة سارية على جميع إباضية الجبل والمناطق التابعة له. وقد مر بنا أن الوالي سير الجيوش، وحارب الآفات الاجتماعية وحبس الجناة، وفض النزاعات، واتخذ مساعدين له من العلماء والأعيان. ولا نعلم إن كان هناك بيت للمال ؟ فالمصادر لا تعطينا معلومات عن مؤسسات الولاية. وإذا كنا قد ذكرنا سابقا بأن المصادر أوردت لنا مجموعة من المصطلحات مثل (حاكم)، (إمام)، (مقدم)، و(أمير) فإن الوسياني يردد كثيرا عبارة «رئيس أهل الدعوة»،[547] وإذا كان أهل الدعوة كذلك قد سهروا طيلة حياتهم على

545- المصدر نفسه، ص275؛ معمر: المرجع السابق، ص169-170.

546 - ينظر: Les hakims, p105106-.

547 - ينظر: السير، ج2، و31.

ضرورة الحفاظ على وحدة سكان الجبل تحت رياسة واحدة، وظلوا ينصبون رؤساء عامين عليهم، فإنهم قد نصبوا كذلك مقدمين على القبائل والمدن.

ب - مقدمي النواحي:

يبدو أن الهدف من تنصيب هؤلاء «المقدمين» هو تخفيف العبء على الوالي العام، ولكنهم كانوا تابعين للسلطة المركزية في جادو أو شروس. وكان لهؤلاء تأثير قوي ونفوذ كبير. وقد مر بنا أن أبا زكريا بن أبي عبد الله رشح ابنه عيسى لتولي السلطة بعده بشرط موافقة أبي داود سليمان الدرفي حاكم بني زمور[548] وهذا يدل على مدى تأثير زعماء القبائل في القرار الصادر في مركز الرياسة. كما تجدر الإشارة إلى أن «رئيس أهل الدعوة» قد يعين هو شخصيا مقدما لقبيلة من القبائل. فقد روي أن رجلا من بني زمور طلب من أبي الربيع بن هارون تعيين مقدم منهم[549].

وتذكر المصادر أن أول مقدم على بني زمور هو أبو عبد الله محمد بن أبي يعقوب الدرفي، وهو ابن لأبي يحي يوسف بن أبي محمد زيد بن أفصيت الدرفي مقدم جادو، تولى رئاسة القبيلة مع نهاية القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وبداية القرن الخامس (الحادي عشر الميلادي). وكانت فترة حكمه قصيرة حيث عزل وآلت الرياسة لأخيه أبي داود وتصف المصادر فترة رياسته بأنها من الفترات الزاهية، وهي الفترة التي تعاصر تولية أبي زكريا بن أبي عبد الله التندميرتي[550].

وجاء في المصادر أن نفوسة قد ترفض تولي شخص ما السلطة، فقد حدث ذلك عندما أبى أبو زكريا التندميرتي تعيين أو حتى ترشيح أبي يعقوب البغطوري، بحجة أن نفوسة تأبى أن تتقدم قبيلته[551] ويفهم من ذلك أن الاعتبارات القبلية كانت ضمن المقاييس الهامة في اختيار المقدمين، وكانت نفوسة تميز بين القبائل ذات النفوذ، والقوة، والسعة، والسلطان، منذ قيام الدولة الرستمية وما زيارة الإمام عبد الوهاب لمدينتهم «ميري» واستقراره فيها عدة أيام لدليل على ذلك، وخشية المشاكل كانت نفوسة تتجنب الدخول فى صدام مع القبائل الكبرى مثل قبيلة مزاتة، التي ينسب إليها أبو

548- بنو زمور هم أحد فروع قبيلة نفوسة، كانوا يستوطنون جزء من منطقة الرجبان الحالية والتي تقع شرق فساطو.

.T. Lewicki, Les hakims, p122

549 - البغطوري: سير نفوسة، و14.

550- الشماخي: السير، ص287-288.   113-T Lewicki, op. cit, p112-

551- قال له ابن ومار (أي لأبي زكريا) من ترى لنا ولنفوسة بعدك، قال: ما تجرأ أن يسألني عن هذا أحد غيرك قال: قد فعلت فأخبرني، قال: أبو زكريا اللالوتي يبلغ مثل ما أبلغ أو أكثر ولكن منزله في الطرف، وأبو يعقوب البغطوري مثل ذلك لكن نفوسة يأبون أن تتقدم قبيلته، ينظر: الشماخي: المصدر نفسه، ص321.

يحي زكريا الأرجان.ي وأبو مرداس مهاصر، أو قبيلة هوارة، ولواتة، وزناتة، وسدراتة، وزواغة. أما القبائل المستضعفة فنذكر منها تناوتة، وزنداجة، ويزمرتن، وبعض العرب من معافير اليمن.

وقد يتولى شخص ما السلطة في جادو فقط، وفي بعض الأحيان جادو ونواحيها، حتى وإن كان الوالي العام قد اتخذ المدينة نفسها مقرا له. فقد تولى - مثلا - أبو محمد زيد بن أفصيت الدرفي، ومن بعده ابنه يحي ولاية مدينة جادو، وقد كان أبو محمد معاصرا لأبي زكريا بن أبي عبد الله التندميرتي، وهو غير أبو محمد ملي الإيدرفي الذي تحدث عنه الدرجني[552] لأن هذا الأخير ينتمي إلى الطبقة السادسة (250-300هـ) وكان معاصرا لعمروس بن فتح قاضي أبي منصور إلياس، عامل الإمام أبي القيظان محمد بن أفلح على الجبل[553]. ولذلك يرى الشماخي بأنه يحتمل أن يكون «ملي» لقبا له، وإما اسما لشيخ آخر[554]. وكان أبو محمد الدرفي يملك دارا في سوق جادو تسمى «دار بني عبد الله»، وقد اشتهرت هذه الدار حتى إنه دفن أمامها بطلب منه، لأن الشيوخ حملوه وهو مريض يبتغون منزله حتى بلغوا «ماطس» فلما أفاق من غيبوبته طلب منهم إعادته إلى موضع الرباط والجهاد[555].

وكان لويغو مقدمون محليون منهم أبو عبد الله الويغوي الكبير، وأبو عبد الله الويغوي الصغير، تزعما البلدة في نهاية القرن الرابع الهجري (10م) أو في بداية القرن الخامس الهجري (11م)[556]. وفي شروس عين أبو الشعثاء بن البغطوري مقدما عليها في زمن رياسة أبي زكريا بن أبي عبد الله التندميرتي على الجبل[557]. وكان لفساطو هي الأخرى مقدم يسمى نصر بن أكبت، ولي في أواخر القرن 4هـ (10م) أو بداية القرن 5هـ (11م) كان معاصرا لأبي محمد الدرفي مقدم جادو[558]، وفي لالوت (نالوت) تولت مجموعة من الشيوخ أمور أهل الدعوة منهم: أبو عبد الله محمد بن جلداسن اللالوتي النفوسي (الطبقة السابعة 300-350هـ). وإذا كان على يحي معمر قد ذكر بأنه كان واليا عاما على الجبل[559] فإن ليفيسكي، وباسيه Basset يريان بأنه كان مقدما على (لالوت) دون

552 - ينظر: طبقات المشائخ، ج2، ص332.

553 - أبو زكريا: كتاب السيرة، ص145.

554 - ينظر: السير، ص284.

555 - المصدر نفسه، ص286.   .T. Lewicki, les hakims, p110

556- المرجع السابق: ص326.   T. Lewicki, les hakims, p110

557 - نفسه، ص326.   .Ibid, p110

558 - نفسه، ص2285.   .Ibid, p11

559 - ينظر: الإباضية في ليبيا، ص177.

غيرها، في إمامة أفلح بن عبد الوهاب (211-258هـ) (823-871م)، وبذلك يصنفانه ضمن طبقة علماء القرن 3هـ (9م)[560]. وهذا ما يؤكده الشماخي ولكنه لا يذكر أنه كان مقدما على لالوت[561]. وخلف أبي عبد الله تلميذه أبو زكريا يحي بن سفيان اللالوتي. وإذ كنا نجهل التاريخ الذي ولي فيه، إلا أننا نعرف أنه عاش في القرن 4هـ (10م) وهذا يسمح لنا كذلك بتحديد فترة حكم سابقه، وهي إما نهاية القرن الثالث الهجري (9م)، أو بداية القرن الرابع الهجري (10م).

وفي «تغرويت»[562] تداول على تسيير شؤون أهل الدعوة شيوخ منهم: أبو ويسجمن (أبو ويسجيمان) الذي ولي في منتصف القرن 4هـ (10م)[563]. أما عاصمة الجبل الغربية «شروس» فقد تولى السلطة فيها بعد موقعة مانو أبو يحي سليمان بن ماطوس الذي يصنف ضمن علماء الطبقة السابعة (300-350هـ). وقد كان هذا الأخير معاصرا لأبي عبد الله محمد بن جلداسن اللالوتي. أما في تغرمين[564] فلا نعرف أكثر من مقدمين هما أبو محمد عبيدة بن زارود التغرميني، وأبو يعقوب التغرميني. اشتهر الأول بالعلم والورع، أما الثاني فهو الذي كلفته نفوسة بحمل ما يدارون به عن الجبل من ضرائب إلى عامل بني زيري. وكان ذلك في فترة رياسة أبي زكريا بن أبي عبد الله التندميرتي، ويبدو أن أبا يعقوب كان في البداية مقدما على تغرمين وبني زمور أيضا، لأن هؤلاء طلبوا منه أن يعين عليهم مقدما منهم فتم لهم ذلك[565].

ومهما يكن من أمر فإن إباضية جبل نفوسة حافظوا على وحدتهم بتعيين شيوخ على ولاية الجبل لرعاية مصالح أهل الدعوة، وظلت الرياسة في العديد من المرات تنتقل من الأب إلى الابن، ومحصورة في طبقة معينة من الناس[566] مع مراعاة مجموعة من

560 - T. Lewicki, op. cit, p109. R. Basset :Les sanctuaires, p373.

561 - ينظر: السير، ص289.

562 - تقع هذه البلدة غرب «لالوت» كانت آهلة بالسكان عرفت بثقلها العلمي حيث كانت من أهم المراكزالعلمية بالجبل، فقد عاش فيها سبعون عالما من أصحاب القلنسوات. وكان جل سكانها من قبيلة زناتة، وقد غادروها إلى وارجلان. ينظر: الشماخي: المصدر نفسه، ص296.

563 - المصدر نفس،ص296. T. Lewicki, les hakims, p109.

564 - تعرف كذلك بـ «تاغرمين» تقع على الضفة الشرقية لوادي الآخرة وهي التي أصبحت تعرف اليوم بـ «الزنتان» ينسب إليهاأبي يعقوب التغرميني. ينظر: معمر: الإباضية في ليبيا، ص212.

565 - الشماخي: المصدر السابق، ص248-251. T. Lewicki, op.cit, p112-114.

566 - نلاحظ سيطرة بعض الأسر على الرياسة في الجبل، فقد انتقلت السلطة من أبي الخطاب عبد الأعلى إلى ابنه السمح. كما انتقلت من أبي منصور إلياس إلى ابنه أبي زكريا ثم إلى حفيده أبي موسى عيسى. وانتقلت السلطة في جادومن أبي محمد الدرفي إلى ابنه يحي ثم إلى حفيده محمد بن أبي يعقوب. وفي ويغو ظلت السلطة بيد أسرة أبي عبد الله الويغوي.

المقاييس كالكفاءة، والعلم، والعدل، والشدة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بالإضافة إلى ضرورة إجماع القبائل. ومما يجب الإشارة إليه في الأخير هو أن الولاة اتخذوا كتابا يساعدونهم في أعمالهم، فالمصادر تذكر أن أبا عبد الله محمد بن جنون كان كاتبا لأبي زكريا بن أبي عبد الله التندميرتي[567].

2 - الحروب الأهلية:

كان المذهب الإباضي القاسم المشترك بين القبائل، ورغم ذلك نشبت خلافات عديدة بينها، وقد أدت في بعض الأحيان إلى وقوع حروب أهلية عانى الشيوخ الكثير من أجل إخمادها. ورغم أن مصادرنا لا توضح الدوافع الحقيقية التي تقف وراءها، إلا أننا نعتقد بأن الخلافات المذهبية والصراع القبلي كانا السبب المباشر في حدوثها. فالشماخي تحدث عن حرب وقعت بين أهل ويغو وأهل شروس، في زمن أبي عبد الله الويغوي، وأبي الشعثاء بن البغطوري في نهاية القرن 4هـ (10م) أو في بداية القرن الخامس الهجري (10م). كما حدثت حرب أخرى في زمن وارسفلاس بن مهدي[568] دامت سبع سنوات، وأشار الشماخي إلى اقتتال حدث بين «شروس» و«تندميرت»، في زمن ماطوس بن هارون، وماطوس بن ماطوس أي في نهاية القرن الثالث الهجري (9م)، لأن ماطوس بن هارون قتل في موقعة مانو سنة 283هـ، وباشتعال الفتنة خرجا من شروس خشية ما يلحقهما من إثم[569].

كما نشب قتال في زمن أبي خزر (الطبقة السابعة 300-350هـ) بين بني واسين وبني يفرن، انتهى بانهزام بني واسين، وتمكن أبو خزر من إقامة الصلح بينهما[570]. ومما يؤكد هذا الصراع القبلي أن أبا يحي زكريا الأرجاني خص كلا من بني زمور وطرميسة بسوق واحدة في الأسبوع في جادو، لا يجوز للفريق الآخر حضورها حتى لا يقع الشغب الذي طال مداه. فكان لبني زمور يوم الخميس، ولطرميسة يوم الأحد[571].

وإلى جانب هذا التطاحن الداخلي تعرض الجبل لغارات قبيلة زناتة، الظاعنة بمنطقة طرابلس. ففي زمن أبي يحي بن أبي محمد زيد بن أفصيت الدرفي - حاكم جادو - (النصف

567- الشماخي: المصدر السابق، ص323.

568 - يدعى كذلك «وارسفلاسان بن مهدي» وهو عالم مشهور مثل أبيه، اهتم بمطالعة الكتب ودراستها، فقد مكث في خزانة نفوسة إثني عشر سنة يستفيد من كتبها. ولما وقعت الحرب اعتزل الفتنة، وظل في داره المدة كلها لا يخرج من بيته إلا للحاجة. ينظر: الشماخي: المصدر نفسه، ص327. T. Lewicki, Tasmiya Suyuks Nafusa, p103.

569 - الشماخي: المصدر نفسه، ص266.

570 - المصدر نفسه، ص355-356؛ أبو زكريا: كتاب السيرة، ص218.

571 - البغطوري: سير نفوسة، و64؛ معمر: الإباضية في ليبيا، ص153.

الثاني من القرن 4هـ) (10م) هجمت زناتة بجيش على قصر «أدرف»[572] فخربوه، تزعم زناتة رجل يدعى «مجدول بن يوسف الطرميسي»[573].

وخلاصة القول نقول إنه إذا كانت المصادر الإباضية الوهبية تحاشت الحديث بإسهاب عن هذه الحروب الأهلية، وشحت في ذكر دوافعها، إلا أنه يمكننا إرجاعها إلى مجموعة من الأسباب منها الصراع القبلي الذي أشرنا إليه سابقا خاصة وأن الوازع الديني والرابطة المذهبية تقلص مفعولهما، وأصبحت القبائل الكبيرة هي المهيمنة على الجبل من حيث الجاه والنفوذ والسلطة، وقد سبق الذكر أن صراعا حادا نشب بين بني زمور، وطرميسة. إن الخلافات المذهبية كانت سببا في انقسام المجتمع النفوسي إلى شيع متناحرة حتى اضطر المشائخ إلى إشراك مختلف الطوائف في أمور المسلمين، فقد روى الشماخي أن أبا الربيع سليمان بن زرقون النفوسي (الطبقة السابعة 300-350هـ) عندما مر في طريقه على بلدة «ريصو» بجزيرة جربة جعل القضاء والأحكام لأبي الخطاب، وسيل بن سنتين الزواغي، والفتيا للنكار، وإمامة رمضان للخلفية، والآذان للنفاثية[574].

وقد استفحل هذا الصراع واشتد بين أتباع هذه الطوائف، خاصة وأن بعض القبائل القوية أخذت بمذاهبها، فقد انضم مثلا بنو يفرن إلى حركة النكارية، وكان لهم دور كبير في محاربة الإمام عبد الوهاب، وفي مؤازرة أبي يزيد مخلد بن كيداد، ولذلك فغير مستبعد أن يستمر هذا العداء التاريخي بين الوهبية وبين النكارية سواء من بني يفرن أو من لواتة، ومما زاد في تدهور العلاقات بين الوهبية والنكارية والخلفية والنفاثية والسكاكية مسألة البراءة، ذلك أن الوهبية تبرأوا من كل مخالف لمذهبهم، مما أدى إلى تفشي الأحقاد بين الأخوة الأعداء، وأصبحوا كالتيوس إذا اجتمعوا تناطحوا وإذا افترقوا تصايحوا. مثلما قال أبو عبد الله محمد بن بكر، ولا يستبعد أن يكون تحول بعض القبائل من المذهب الإباضي إلى المذاهب الأخرى سببا في الحروب التي وقعت في الجبل. وكمثال على ذلك أن سكان مدينة ميري المشهورة في التاريخ تحولوا لاحقا إلى المذهب المالكي[575].

وعلى العموم فإن المجتمع الإباضي في بلاد المغرب - ومع مرور الزمن - لم يحافظ على روح الجماعة والتكتل بل حتى على روح المذهب، فسرعان ما انتشر الفساد كشرب الخمر والزنا. وقد عبر عن ذلك أبو نوح عندما زار وارجلان بقوله: «إني رأيت فيكم ثلاث خصال

572 - يقع هذا القصر جنوب مدينة ميري بنحو ميلين تقريبا وهي إحدى مدن بني زمور، ينظر: معمر: المرجع نفسه، ص212.

573- الشماخي: السير، ص287-288؛ معمر: المرجع نفسه، ص171-172.

574 - ينظر: السير، ص281-282.

575 - الباروني: الأزهار، ص192.

غير مرضية ولا ناهيا عنها، إحداهما أن نكاح السر فيكم فاش، فإذا مر أحدكم برجل وامرأة مجتمعين في موضع التهمة اشمأز قلبه، فإن زجرهما عن الاجتماع في موضع الريبة قالا إنا متناكحان فكادت أن تظهر فيكم الفاحشة بل ظهرت، والثانية أن أحدكم يطلق عبيده فلا يعولوهم، ولا يمونهم، ولا يكفيهم طلب معاشهم، فينطلقون في أموال الناس على غير رضى أصحاب الأموال، وعلى غير إذنهم فيكاد أحدكم يكون سارقا وهو في محرابه جالس، والثالثة أنكم أظهرتم فيما بينكم التحزب، والتفرق، فطائفة منم يقولون مسجدنا ومسجدكم، وطائفة يقولون حضيرنا وحضيركم، ويهودينا ويهوديكم»[576].

3 - الهجرة النفوسية إلى إفريقية والمغرب الأوسط:

عرف جبل نفوسة حركة هجرة تعددت وجهاتها، فمن النفوسيين من انتقل إلى تاهرت واستقر في العدوة المعروفة باسمهم، ومنهم من اتجه إلى بعض مدن إفريقية وصحراء المغرب الأوسط، أما عن دوافع هذه الهجرة فهي متعددة، فمنها القحط، وحدوث مجاعات في الجبل، ومنها فترات عدم الاستقرار التي مر بها. أضف إلى ذلك أن ضرورة استمرار حركة الدعوة تتطلب من الشيوخ وتلاميذهم الاستقرار في بعض مدن إفريقية والمغرب الأوسط.

من المجاعات التي حلت بالجبل واضطر خلالها السكان إلى أكل الميتة تلك التي حدثت في عصر أبي ميمون الجيطالي (ط 5) (200-250هـ)[577] وفي زمن أبي الخطاب وسيل بن سنتين (ط) (7 300-350هـ) وفدت إلى أبي أيوب بن كلابة الزواغي المقيم بـ «ريضة» قرب جربة جماعة من سكان الجبل بسبب القحط فاستضافهم لمدة شهر[578]. وعرفت مدينة طرابلس وضواحيها سنة 430هـ (1038م) جفافا أجبر السكان على التفرق والاتجاه إلى المناطق الخصبة التي يتوفر فيها الغذاء، وقد عرفت هذه السنة في المصادر باسم (فرورار) أو(فرور)[579]. وهناك العديد من الشواهد وردت في سير الشماخي تؤكد بأن هجرة كثيفة حدثت بسبب القحط والجدب[580].

وكانت أكبر مجموعة قد اتجهت إلى إفريقية واستقرت في الساحل منذ إمامة

576 - الدرجيني: طبقات المشائخ، ج1، ص154-155.

577 - الوسياني: السير، ج2 و8؛ الدرجيني: المصدر نفسه، ج2، ص295-296.

578 - الشماخي: السير، ص282-284؛ أبو زكريا: كتاب السيرة، ص189.

579 - الشماخي: المصدر نفسه، ص400؛ أبو زكريا: المصدر نفسه، ص305.

580 - ينظر: ص232-256-300.

عبد الوهاب (171-211هـ) (787-826م)، ذلك أن هذا الأخير أقطع نفوسة أرضا في هذه المنطقة ووضع لها حدودا. وقد أورد الوسياني (ت ق 6هـ/12م) نص الرسالة التي بعثها الإمام إلى نفوسة،[581] والتي بين فيها حدود هذا الإقطاع حيث تبدأ من «ورد قلورية» إلى «تنوجدت» إلى «قبر الصياد» إلى «فج المصابيح» إلى «زيتونة العصافير». وقد ذكر الوسياني نقلا عن أبي يحي بن ويجمن (ط 9) (400-450هـ) أن الساحل كله يدخل ضمن هذه الحدود[582].

وقد قام ليفيسكي بتحليل محتوى هذه الرسالة ودراستها، واستنتج بأن الساحل - حسب الرسالة - هو كل المنطقة الممتدة من «هرقلة» في الشمال إلى غاية «راس قبودية[583] في الجنوب الشرقي لإفريقية. وكانت هذه المنطقة في السابق تشمل كل البلاد الممتدة بين صفاقس وقابس[584]. ويرى اليعقوبي أن بلدة «قبيشة» التي تبعد عن صفاقس بمرحلتين فقط هي آخر بلد الساحل[585]. ونرجح أن الموضع الوارد في الرسالة باسم «زيتونة الصعافير» (العصافير) هو نفسه المكان المسمى بـ «عين الزيتونة» الذي أشار إليه كل من اليعقوبي والبكري والذي يقع على الطريق الرابط بين قابس وصفاقس. أضف إلى ذلك أن الموضع المعروف بـ «تاورقي» الذي لا يبعد كثيرا عن عين الزيتونة هو في طرف ساحل الزيتون[586]. والملاحظ أن هذه المناطق كانت مواطن لقبائل لواتة، ولماية، ونفوسة، ومزاتة، وزواغة، وغيرها[587]. ونحن نعلم أن هذه القبائل كانت إباضية المذهب وتابعة للدولة الرستمية في عهد عبد الوهاب. ولما توجه هذا الأخير إلى طرابلس في طريقه إلى الحج، أرسل قطفان بن سلمة وحاصرها ثم استولى عليها، وانتقل بعدها إلى ما يليها من القرى والجبال، مثل مواطن مطماطة، وزنزفة، ثم جزيرة جربة، فاستولى

581- قال الوسياني: «ذكر عن الإمام عبد الوهاب رضي الله عنه «كتب إلى نفوسة الراحلين من الجبل كتابا وهم الخارجون عنه وكانوا في ألف رجل، وخاف مما يعتريهم من التغيير والتنيت فكتب إليهم كتابا مع عامله عليهم، وقطع لهم أرضا كثيرة وهي هذه الحدود التي نذكر «ورد قلورية» إلى «تنوجدت» إلى «قبر الصياد» إلى «فج المصابيح» إلى «زيتونة العصافير» لنا وللمسلمين أغرسوا فيه بأمرنا وأحرثوا فيه بإذننا». ينظر: السير، ج2، و29.

582 - ينظر: المصدر نفسه والجزء والورقة ذاتهما.

583 - ذكر البكري أن مرسى «هرقلة» يقع بالقرب من مدينة متوسة، وأن مرسى «قبودية» لا يبعد كثيرا عن المهدية. ينظر: المغرب، ص84-85.

584 - T. Lewicki, Un document ibadite inédit sur l émigration des Nafusa du Gabal dans le sahil tunisien au VII/IX S Folio Orientalia, T2, 1959, p185186-.

585- ينظر: صفة المغرب، ص11.

586 - اليعقوبي: المصدر نفسه، ص8؛ البكري: المغرب، ص19.

587 - البكري: المصدر نفسه، ص18.

عليها ورتب فيها العمال[588]. ويرى ليفيسكي أن النفوذ الرستمي في هذه المناطق ظل متواجدا بقوة خاصة في عهد الإمام عبد الوهاب، فالأغالبة كانوا منشغلين بالثورات الداخلية ولم يتمكنوا من حماية حدودهم الجنوبية. وقد انتهى هذا النفوذ بعد سنة 224هـ (838م) عندما سحق الأغالبة تحالف القبائل الإباضية من لواتة وزواغة ومكناسة، بين مدينتي قسطيلية وقفصة[589].

ومن المؤكد أن جالية كبيرة من النفوسيين كانت تعيش في الساحل الشرقي لإفريقية بين قابس وصفاقس. وقد حددت الرسالة عددهم بحوالي ألف رجل، مما يعني أن هذا العدد يشكل في الحقيقة أرباب الأسر، وبالتالي فإن عددهم يفوق العدد المذكور. وقد استمر تواجد هؤلاء في المنطقة إلى عصر أبي زكريا يحي بن ويجمن الهواري (ط9) (400-450هـ)[590].

وقد أورد ابن سلام أسماء مجموعة من العلماء كانوا يسكنون في الساحل منهم «سعيد الحداي»، وأبو سعيد عربي، في موضع يقع في قبلة «المرج»، وحارث أبو الغدير مهراني «بالسبخة» قبلة سوسة، وسليمان بن جاس بـ «قلوط» غرب سوسة، ويوسف الفتاح (ت260هـ) كان يسكن في موضع غير معروف استوطنه حوالي خمسمائة رجل من أهل الدعوة، ورجل آخر يدعى أبو حبيب كان يسكن بقفصة الساحل قبلة سوسة.[591] ويرى ليفيسكي أن قفصة الساحل سميت لهذا الاسم تميزا لها عن قفصة بلاد الجريد، وربما هي الموضع نفسه الذي ذكره البكري باسم «رباط قفصة»، الواقع قرب المهدية أو «قصر قفصة» الذي ذكره المالكي. وحسب هذا الأخير فإن «قصر قفصة» يعرف كذلك باسم «الديماس». وقد ذكر الإدريسي أنه يقع على بعد ثمانية أميال شمال المهدية[592]. ويرى ليفيسكي أن تسمية «قفصة الساحل» هي نفسها «قبيشة» الواقعة على الساحل، والتي تبعد مسيرة يومين عن صفاقس[593]. ونحن نرى بأن بلاد الساحل تشمل كل المنطقة الممتدة من قبلة القيروان إلى غاية مدينة قبيشة التي تبعد عن صفاقس بمرحلتين، وليس كما ذهب إليه ليفيسكي، لأن اليعقوبي يقول: «ومما يلي القبلة من القيروان بلد يقال له الساحل وليس بساحل بحر، كثير السواد من الزيتون والشجر والكروم، وهي قرى متصلة ببعضها في بعض، كثيرة ولهذا البلد مدينتان يقال لإحداهما

588 - الباروني: الأزهار، ص199.

589- T. Lewicki, Un document ibadite inédit, P185 -186.

590 - T. Lewicki, ibid, P187.

591 - ينظر: الإسلام وتاريخه من وجهة نظر إباضية، ص157-159.

592 - ينظر: القارة الإفريقية، ص203.

593 - T. Lewicki, Un document ibadite inédit, P189190-.

(!) وللأخرى قبيشة. ومن بلد الساحل إلى مدينة يقال لها أسفاقس على مرحلتين»[594].

كما استوطنت جماعة أخرى ساحل المهدية منها الطاهر بن يوسف، وهو عالم فقيه، كان معاصرا للأمير المعز بن باديس (404-454هـ) (1013-1062م)، ومنها أبو الخير توزين الزواغي، وأبو عبد الله محمد سودرين، وأبو سعيد يخلفتن النفوسي، وأبو زكريا فصيل الزواغي[595].

وبالإضافة إلى الساحل اتجهت مجموعة من المهاجرين إلى القيروان. وقد ذكر ابن سلام أسماء بعض العلماء الذين استقروا فيها أو في أرباضها منهم: أبو عبد الله الذي كان يسكن حارة بن محرز في وسط سوق الأحد غرب مدينة القيروان. وكان هذا الأخير يخرج كل سنة إلى مكان يسمى «منزل أبي الأزهر» ليجتمع بإخوانه من هوارة وزناتة. وضم «باطن المرج» ثاني تجمع إباضي بعد الساحل من حيث الكثافة إذا قدر ابن سلام عدد النفوسيين فيه بحوالي خمسمائة رجل أو أكثر، اشتهر منهم أبو عمر حفصون النفوسي بعلمه وورعه[596].

كما هاجر النفوسيون إلى بلاد الجريد خاصة وأن إخوانهم في المذهب متواجدون بكثرة في قفصة، وتوزر، والحامة، وقسطيلية، ونفطة. وقد مر بنا أن الإمام عبد الوهاب عين وكيل بن درج النفوسي عاملا على قفصة. ويبدو أن هذه الأخيرة كانت كبيرة في القرن الثاني والثالث للهجرة (8-9م) إذ قام المهاجرون بالاستيلاء على مدينة قنطرارة (قنطنار، قنطرارة) التي تقع قرب نفطة شرق درجين[597]. وأصبحت بذلك عاصمة لمقاطعات جديدة تابعة للدولة الرستمية، في إمامة أفلح (211-258هـ) (826-871م). وقد عين أفلح أبا يونس النفوسي حاكما على قنطرار، ومن بعده ابنه سعد الذي عاصر موقعة مانو، وكان من المعارضين لنفوسة عندما قررت عدم السماح لابن الأغلب بالمرور. وظل سكان هذه المدينة مرتبطين ببلادهم الأصلية. فعندما اتهم سعد بأنه كان يخاف على قنطرار أجابهم قائلا: «خشيت أن تذبح البقرة فيتبعها عجلها»[598] يعني بالبقرة نفوسة

594 - ينظر: صفة المغرب، ص11.

595 - T. Lewicki, op.cit, p189190-.

596- ينظر: الإسلام وتاريخه من وجهة نظر إباضية، ص157-159.

597- الباروني: الأزهار، ص253.

598 - كثيرا ما يضرب شيوخ الإباضية الأمثال بالجمال والأغنام والعجول والطبيعة والفلاحة، وقد احتوت المصادر جملة من هذه الأمثال مثل (لا يستتر الجمل خلف الغنم) (إنما مثل أهل هذا الزمان مثل السبخة التي بفنائها إذا ابتلت أزلقت وإن نضبت وتيبست خدشت وجرحت) (إن أهل هذا الزمان مثل الكرانيف في الشبكة إذا رفعت الشبكة اختلفت الرؤوس خارجها) (إن أهل زماننا هذا كالتيوس إذا اجتمعوا تناطحوا وإن افترقوا تصايحوا). ينظر: الدرجيني: طبقات المشائخ، ج2، ص386؛ أبو زكريا: كتاب السيرة، ص179-324.

وبالعجل قنطرار[599]. ويفهم من هذا أن قنطرار كانت تابعة للجبل إقليميا.

وفي العصر الفاطمي اتجهت مجموعة أخرى من المهاجرين إلى إفريقية. وكانت الأغلبية منهم من نفوسة، وهوارة حتى إن الخليفة القائم أمر - حسب البكري - ببناء مدينة «قلمجنة» ليسكنها الوافدون الجدد. وتقع هذه البلدة في جبل زغوان القريب من تونس[600].

كما انتقلت جماعات أخرى إلى بعض مدن المغرب الأوسط فسكان «تاغرويت» الزناتيين تركوا بلدتهم واتجهوا إلى مدينة وارجلان[601]. وفي المقابل كانت هناك هجرات إلى الجبل، ومنطقة طرابلس، خاصة عندما تتعرض إفريقية لبعض النكبات الطبيعية، فقد ذكر الدرجيني أن مزاتة إفريقية اتجهوا إلى إخوانهم بنواحي طرابلس عندما ضربت الزلازل بلادهم[602].

وتجدر الإشارة في الأخير إلى أننا لم نتناول الهجرات التي كان الغرض منها الالتحاق بحلقات العلم، وسنتحدث عنها في حينها.

4 - قيام الدولة الفاطمية في بلاد المغرب وموقف الإباضية منها:

قام الشيعة منذ تأسيس الدولة الأموية بمحاولات متعددة لإقامة خلافة يتزعمها آل البيت، وباءت كل هذه المحاولات بالفشل نتيجة انقسامهم إلى فرق متعددة تختلف فيما بينها في العديد من الفروع، لذلك صوبوا توجهاتهم إلى مناطق نائية عن مركز الخلافة في دمشق واتجهوا إلى بلاد اليمن التي أصبحت بمرور الوقت معقلا من معاقلهم، ومركزا هاما لدعوتهم، خاصة وأن اليمن قريبة من مكة والمدينة قبلة الحجاج.

599 - الدرجيني: المصدر نفسه، ج1، ص77-78؛ أبو زكريا: المصدر نفسه، ص136-137؛ صالح باجية: الإباضية بالجريد، ص12.

T. Lewicki, Tasmiya Suyuks Nafusa, p103104-.

T. Lewicki, Un document ibadite inédit, P176177-.

600 - البكري: المغرب، ص46.

601 - الشماخي: السير، ص296.

602 - ينظر: طبقات المشائخ، ج2، ص369.

*- نلاحظ أن أغلب الفرق تكتفي بداعية أو اثنين لتمهيد الطريق ثم ترسل دفعة ثانية. فالخوارج أرسلوا سلمة بن سعد وعكرمة مولى عباس إلى بلاد المغرب، والمعتزلة أرسلوا عبد الله بن الحارث إلى هذه المنطقة، والشيعة أرسلوا ابن حوشب إلى اليمن والحلواني وأبي سفيان إلى بلاد المغرب، وقدم حملة العلم المغاربة، وأبي عبد الله الشيعي وأولاد بشير الرحال.

وقد تولى الدعوة في هذه الربوع رجل كوفي يدعى أبو القاسم رستم بن الحسين بن فرج بن حوشب. ويرجع إلى هذا الأخر الفضل في إرسال الدعاة إلى مختلف الأمصار الإسلامية، سواء إلى اليمامة، أو البحرين، أو عمان، أو مصر، أو بلاد المغرب، وكانت هذه البلدان - خاصة بلاد المغرب - مهيأة سياسيا واجتماعيا لتقبل أفكارهم، وتشير المصادر إلى أن الإمام جعفر الصادق أرسل إلى هذه الجهة داعيين* هما: الحلواني، وأبو سفيان، وأمرهما أن ينشرا الدعوة قائلا لهما: «اذهبا إلى المغرب فإنكما تأتيان أرضا بورا فاحرثاها، وكرباها، وذللاها إلى أن يأتيها صاحب البذر مذللة فيبذر حبة فيها»[603].

واتجها سنة 145هـ (762م) إلى بلاد المغرب فنزل أحدهما في «مرماجنة»[604] في موضع يقال له «تالا»، ونزل الثاني ببلد «سوجمار» (سوف جمار). وابتنى أبو سفيان مسجدا، اتخذه مركزا لترويج الفكر الشيعي، فكان سكان تلك الناحية يأتون إليه ليسمعهم فضائل أهل البيت، وتمكن من نشره بين أهل مرماجنة، والإربس، ونفطة[605].

أما الحلواني فقد توغل في أرض البربر بعيدا عن مرماجنة، واستقر في سوجمار (سوف جمار) ببلاد الجريد. فالتفت حوله القبائل من كتامة، ونفزة، وسماتة، وتمكن من نشر الدعوة بينهم،[606] وكان رؤوس الدعاة في المشرق ومنهم ابن حوشب يتتبعون أخبارهم، وينتظرون آثارهم في المنطقة. ويبدو أنه علم بنجاحهما وتمهيدهما للطريق، ولذلك فبمجرد أن علم بوفاتهما كلف داعية آخر ليخلفهما وهو أبو عبد الله الشيعي. وقد اختار هذا الأخير موسم الحج ليخرج فيه إلى مكة، وذلك سنة 280هـ (894م) وفيها التقى بمجموعة من زعماء قبيلة كتامة ممن حج تلك السنة منهم: موسى بن حريث الجميلي وموسى بن مكارمة،[607] وأبو القاسم الورفجومي، ومسعود بن عيسى بن ملال الساكتي[608].

603 - القاضي النعمان: كتاب افتتاح الدعوة، تحقيق فرحات الدشراوي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، الشركة التونسية للتوزيع، ط2، تونس، 1986، ص29.

604- تبعد عن القيروان بمرحلتين وعن مجانة بمرحلة وعن تيجس بستة مراحل. ينظر: ابن حوقل: صورة الأرض، ص84.

605 - القاضي النعمان: المصدر السابق، ص27؛ مولى أحمد عبد الفتاح: القوى السنية في المغرب من قيام الدولة الفاطمة إلى قيام الدولة الزيرية (296-361هـ)؛ دار المعرفة الجامعية، ط1، الإسكندرية، 1985، ج1، ص116-117.

606 - القاضي النعمان: المصدر نفسه، ص29؛ مولى أحمد: المرجع نفسه والجزء ذاته، ص118-119؛ موسى لقبال: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص220.

607 - يسميه القاضي النعمان: «موسم بن مكارم» في حين يسميه ابن الأثير «موسى بن مكاد». ينظر: الكامل في التاريخ، ج8، ص32.

608 - ابن عذارى: البيان المغرب، ج1، ص124؛ القرشي: عيون الأخبار، السبع الخامس، ص45؛ القاضي النعمان: المصدر السابق، ص509؛ مولى أحمد: القوى السنية، ج1، ص123.

ويذكر ابن عذارى أنهم كانوا نحو عشرة رجال كلهم ملتفين حول شيخ منهم، فسألهم عن بلادهم، ومذهبهم، فعلم أن شيخهم يميل إلى مذهب النكارية[609]. ثم أخذ يستدرجهم خاصة وأنه كان فصيح اللسان، عالما ومجادلا فطنا وأنهم هم الذين سيقيمون دولتهم في هذه الربوع، واستبشر أبو عبد الله خيرا عندما أجابه قائلا: «أنا أرغب فيما رغبتني فيه، وأبذل فيه مهجتي ومالي أنا ومن اتبعني، وأنا أطوع إليك من يدك»[610].

وانتشر خبر هذا المشرقي ودعوته فانتقلت بذلك الدعوة من السر إلى الجهر والتزمت كتامة بالطاعة له، وظلت تنتظر وصول عبيد الله الإمام المعصوم من آل البيت[611].

وفي فترة وجيزة استقامت له الأمور بكتامة، وعجيسة، وزواغة، وكثر المعجبون بهذه الدعوة الجديدة من البربر، واستفحل خطره خاصة بعد أن ألزم أتباعه بالجندية، وقد شعر بهذا الخطر الأمير الأغلبي إبراهيم بن أحمد فأخذ في ترتيب الأمور والسعي للقضاء على هذا السيل الجارف قبل أن يفسد رعيته بمبادئه، ويقضي على دولته فأرسل رسولا إلى أبي عبد الله يحذره وينذره، وفي الوقت نفسه يستميله ويستلطفه إن كان طالب دنيا. وبقدر ما كان خطابه قاسيا[612] كان الرد أعنف. فقد رد عليه بقوله: «أما ما ذكرت من التهديد فما أنا ممن يروع بالإبعاد. وأما تخويفك أياي برجال دولتك أبناء حطام الدنيا فإني في أنصار الدين حماة المؤمنين الذين لا تروعهم كثرة أنصار الظالمين مع قول الله (كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)[613] وإما ما أطمع به من دنياه فلست من أهل الطمع فيما عنده»[614].

وللحيلولة دون نجاح الدعوة بين رعيته، والقضاء عليها في المهد قام بمجموعة من الإصلاحات لاستمالة قلوب العامة، والفوز برضاهم كرده للمظالم وإعلانه التوبة[615]. ولكن الدعوة الشيعية انتقلت إلى المرحلة الحاسمة وهي مرحلة الصدام المسلح، فقد

609 - يتفق القاضي النعمان والدرجيني في أنهم كانوا شيعة، تشيعوا بفضل الحلواني. ينظر: المصدر نفسه، ص34، وينظر: طبقات المشائخ، ج1، ص92.

610 - ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص127؛ سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج2، ص551.

611 - المصدر نفسه والجزء ذاته، ص128.

612 - ينظر ملحق 3.

613 - البقرة، الآية 249.

614- السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، ص511.

615 - كما أسقط القبالات وأخذ العشر طعاما وترك لأهل الضياع خراج سنة وسماها العدل. وأعتق ماليكه وأعطى فقهاء القيروان ووجوه أهلها أموالا ليوزعوها على الفقراء ولبس الصوف وأظهر النسك. ينظر: ابن عذارى: البيان المغرب، ج1، ص131-132؛ القاضي النعمان: كتاب افتتاح الدعوة، ص77.

شن أبو عبد الله غارة على طبنة في الزاب، وهزم أبا عبد الله الأحول الذي سيره أبوه أبو العباس بن إبراهيم بن أحمد مرتين. وذلك فعندما تولى الإمارة زيادة الله بعد مقتل ابيه استدعى أخاه من طبنة وانتقل إلى رقادة[616].

وفي هذه الأثناء كانت جيوش أبي عبد الله تتوسع في البلاد خاصة بعد موقعة كينونة (كبونة) سنة 292هـ (904م)، التي هزم فيها الجيش الأغلبي الذي جهزه زيادة الله بقيادة إبراهيم بن حبسي، وهي المعركة التي غنم فيها الشيعة غنائم كثيرة، فلبسوا أثواب الحرير وتقلدوا السيوف المحلاة، وركبوا بسروج الفضة، وكثر عندهم السلاح،[617] ولما أحس من نفسه قوة وأنه مهد الطريق لوصول الإمام المعصوم، كتب إلى عبيد الله المهدي بسلمية من أرض حمص يطلب منه القدوم عليه ليشهد مرحلة التأسيس لأول كيان سياسي شيعي. فخرج هذا الأخير من سلمية إلى مصر متنكرا في زي التجار، ومنها إلى القيروان فقسنطينة. وقد اضطر إلى تجنب المناطق المراقبة خشية أن يقع في أيدي الأغالبة، الذين كانوا على علم برحلته[618] فاتجه إلى سجلماسة، مرورا بوارجلان لينزل ضيفا عند أميرها اليسع بن مدرار. وفي الوقت ذاته استمر أبو عبد الله في اجتياحه لمناطق النفوذ الأغلبي. وقد تمكن من الدخول إلى مدينة سطيف فخربها وأمن أهلها، كما استولى على بلزمة، وطبنة (293هـ/905م)، وباغاية، وقرطاجنة، وتيفاش، وتبسة، والقصرين (294هـ-908-م)، وقسنطينة، وقسطيلية، وتيجيس، وقفصة (295هـ907م)، والأربس، ورقادة، والقيروان (296هـ/908م)، وبهذه الانتصارات تمكن من القضاء على دولة الأغالبة[619].

واكتشف أمر عبيد الله في سجلماسة، فبعد أن كان مكرما في قصر اليسع بن مدرار أصبح هو وابنه أبو القاسم حبيسي زنزانته. ولما بلغ الخبر إلى أبي عبد الله عزم على المسير إلى سجلماسة لفك أسر سيده، وإمامه، فاستخلف على إفريقية أخاه أبا العباس، وأبا زاكي تمام بن معارك[620]. وفي طريقه عرج على تاهرت التي كانت تمر بقلاقل

616- القاضي النعمان: المصدر نفسه، ص173-174؛ السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص512.

617- ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص138.

618- أثناء مروره بطرابلس توقف فيها لنشر دعوته فأرسل زيادة الله إلى أخيه أحمد العامل بها يطلب منه القبض عليه لكنه أفلت منه. ويقال إنه رشاه بمال كثير ويقال كذلك بأن الرسول الذي بعثه عبيد الله إلى كتامة يبلغهم بوصوله هو الذي وقع في قبضة زيادة الله. ينظر: القاضي النعمان: المصدر السابق، ص163؛ الزاوي: تاريخ الفتح العربي، ص238؛ روسى أتوري: ليبيا منذ الفتح العربي، ص85؛ ألفرد بل: الفرق الإسلامية، ص158.

619 - لمزيد من التفاصيل: ينظر: ابن الآبار، الحلة السيراء، ج1، ص191؛ النويري: نهاية الإرب، ج24، ص146؛ القاضي النعمان: المصدر نفسه، ص165-173-178-182-198-203-222-227-233؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، ص513.

620 - أبو عبد الله الصنهاجي: أخبار ملوك بني عبيد، ص21؛ ابن الأثير: الكامل، مج8، ص39؛ مولى أحمد: القوى

كثيرة خاصة وأن «دوسر» ابنة الإمام يوسف بن محمد بن أفلح اتصلت به بعد مقتل أبيها تطلب نجدته، ووعدته بالزواج إن هو أخذ بثأرها. فلما وصل إلى المدينة خرج إليه المخالفون من غير الإباضية، من صفرية، ومالكية، وشيعة، ليشكون إليه إمارة الفرس ويعلنون له عن ولائهم وتقديم الأزر له. ولما قابل اليقظان وبنيه قتلهم، ثم دخل المدينة، ونهبها، وانتهك حرمتها، وأحرق خزانة الكتب الموجودة بها، بعد أن أخذ منها كل ما يصلح للملك والحساب[621].

ولما سمع يعقوب بن أفلح بقدوم أبي عبد الله غادر تاهرت متوجها إلى وارجلان، ويبدو أن العبيديين ظلوا يتخوفون من فرار هذا الرستمي فأنفذ إليه أبو عبد الله خيرة رجاله لملاحقته. ولاتقاء شر هذه الحملة اعتصم أصحابه بجبل «كريمة» القريب من وارجلان، ودام الحصار دون الحصول على نصر يذكر فدخلوا المدينة وخربوها[622].

ومهما يكن من أمر فقد استقبل يعقوب بن أفلح من قبل أبي صالح جنون بن يمريان شيخ وارجلان، ومن قبل سكانها بالترحاب وطلبوا منه أن يتولى أمورهم بغية إحياء الإمامة المندثرة لكنه رفض قائلا لهم: «لا يستتر الجمل بالغنم» معبرا عن الضعف الذي حل بهم[623]. وبذلك يكون الإباضية قد طووا إمامة الظهور مؤقتا لينتقلوا إلى إمامة الكتمان، وتولى حكم عاصمة دولتهم تاهرت أبو محمد دواس بن صولات اللهيصي، وإبراهيم بن محمد اليماني - المعروف بالهواري - وكان يلقب بالسيد الصغير [624]. أما عبد الله الشيعي فقد تابع سيره إلى سجلماسة، وفيها استطاع أن يخلص مولاه، وأقاما فيها أربعين يوما، ثم ارتحلا نحو القيروان بعد أن عين أبا عبد الله إبراهيم بن غالب المزاتي، وفي القيروان بويع للمهدي البيعة العامة (297هـ/910م)، وتلقب بالمهدي أمير المؤمنين، وضرب السكة باسمه ورتب الدواوين وبهذا تأسست أول دولة شيعية في بلاد المغرب[625].

السنية، ج1، ص135

621 - أبو زكريا: كتاب السيرة، ص163؛ الدرجيني: طبقات المشائخ، ج1، ص94؛ لقبال: دور كتامة، ص340؛ الباروني: الأزهار، ص358؛ الباروني: مختصر تاريخ الإباضية، مطبعة الإرادة، تونس، 1938، ص49؛ سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج2، ص396-397؛ دبوز: تاريخ المغرب، ج3، ص616.
André Nègre: La fin de l état Rostemide, RHCM, Juillet, 1967, N°67-, p18.

622 - أبو زكريا: المصدر نفسه، ص164-165؛ الدرجيني: المصدر نفسه والجزء ذاته، ص95؛ الباروني: الأزهار، ص359؛ دبوز: المرجع نفسه والجزء ذاته، ص606-607؛ André Nègre: Ibid, p16.

623 - الدرجيني: المصدر نفسه والجزء ذاته، ص105؛ الشماخي: السير، ص365-366؛ قطب الأئمة: الرسالة الموسعة، و108؛ لقبال: من قضايا التاريخ الرستمي: ص57.

624 - ابن عذارى: البيان المغرب، ج1، ص153.

625 - ابن عذارى: المصدر نفسه والجزء ذاته، ص154-155؛ ابن الآبار: الحلة السيراء، ج1، ص191؛ السيد عبد العزيز

وهكذا تمكن الشيعة من تصفية نظام الإمامة الرستمية بعد تاريخ طويل حافل بالأحداث دام 136سنة، ونجحت في القضاء على قوة الإباضية، وأصبح هؤلاء دون كيان سياسي مما جعلهم يتفرقون في وارجلان ونواحيها، وجبل نفوسة، وبلاد الجريد، وجبل أوراس، وغيرها من المناطق، لكن المذهب الإباضي ظل متواجدا بعد أن حافظ عليه المخلصون من أتباعه من العلماء والمشائخ.

ومن الطبيعي أن تتسم العلاقات الإباضية الفاطمية بالعداوة، فمن الوجهة السياسية فالشيعة هم الذين أسقطوا إمامة الظهور، ومن الوجهة الدينية المذهبية هناك خلاف كبير بينهما، فإذا كان هناك تقارب في العقيدة بينهما حيث يميلون إلى الفكر المعتزلي في الصفات، وخلق القرآن، والرؤية، فإنهما يتباينان في الفروع تباينا جوهريا خاصة في مسألة الخلافة، فقد بالغ الشيعة في تقديس الإمام، وحصر الإمامة في آل البيت باعتبارها وراثية، أما الإباضية فإنهم لا يقولون بالوراثة - رغم أنهم حصروها في آل رستم - ويرفضون حصرها في قريش عامة، وإنما يرونها انتخابا حرا، وحقا مشاعا بين المسلمين، لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى، فالكفاءة هي المعيار الوحيد. كما أن الإباضية لا يقبلون بما أدخله الشيعة من تحريف في بعض الأمور الدينية كمنعهم صلاة التراويح[626].

فلا غرابة إذن أن يصطدما ولو مؤقتا، لأن وجود الفاطميين في بلاد المغرب ما هو إلا مرحلي، فمصر كانت دوما حلمهم وهدفهم البعيد، وقد عزموا أن يجعلوها في يوم ما قاعدة لدولتهم للعبور إلى المشرق والسيطرة على الحجاز والقضاء على دولة بني العباس، وسيمكنهم ذلك في الأخير من بسط سيادتهم على حوض البحر الأبيض المتوسط[627]. ورغم ذلك فإن سياسة الفاطميين تجاه المذاهب الدينية الأخرى كانت تجمع بين المسألة والاضطهاد، فبالنسبة للإباضية فقد عانوا الكثير من سياسة القمع التي سلكها معهم عبيد الله، والقائم، والمنصور، في حين كان المعز مسالما لهم حيث قربهم إليه مع أخذ الحيطة والحذر، وظل يداريهم ويستعين بعلمائهم ومجادليهم لمناظرة مخالفيهم من معتزلة وواصلية وغيرهم. ومهما يكن من أمر فإن هذا الاضطهاد كان أقل مما لحق بعلماء السنة عامة والمالكية خاصة[628].

سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، ص541-515.

626- صالح باجية: الإباضية بالجريد، ص106؛ معمر: الإباضية بين الفرق الإسلامية، ص356-357؛ عدون جهلان: الفكر السياسي عند الإباضية من خلال آراء الشيخ محمد بن يوسف أطفيش 1818-1914، نشر جمعية التراث القرارة، (د.ت)، ص87-89.

627 - عارف تامر: القائم والمنصور الفاطميان أمام ثورة الخوارج، دار الآفاق الجديدة، ط1، بيروت، 1982، ص20-21.

628 - المجدوب: الصراع المذهبي، ص215؛ صالح باجية: المرجع السابق، ص107؛ محمد الصالح مرمول: السياسة

ولم تكن هذه المداراة من جانب العبيديين فقط، بل حتى من الإباضية فقد قبلوا بالشيعية في شيء من المهادنة، وإن لم يعتنقوا مذهبهم، والدليل على ذلك أن بعض علماءهم تقربوا من المعز لدين الله الفاطمي والتحقوا بمجالسه العلمية رغم أن المشائخ قالوا: «إذا رأيتم العالم يمشي إلى أبواب السلطان فاتهموه على أمر دينكم»[629].

وعلى الرغم من هذا التقارب فإن الإباضية عانوا الكثير خاصة في عهد أبي عبد الله فقد فرض عليهم الضرائب الباهضة، واستبد الجباة في جمعها استبدادا مبالغا فيه، ولولا صبرهم، وتحملهم للأذى، وحكمة شيوخهم لأبيدوا إبادة جماعية، وكان هؤلاء يجمعون أموال الضرائب ويسلمونها للعمال اتقاء لشرهم، مثلما فعل أبو الخطاب وسيل بن سنتين الزواغي[630].

5 - الانتفاضات الإباضية:

أ - ثورة طرابلس (٣٠٠ هـ/٩١٢م):

من خلال ما مر بنا يتضح أنه من الطبيعي ألا يتعاطف الإباضية مع العبيديين لعنفهم وتعصبهم، بالإضافة إلى أنهم وافدون طارئون. ولذلك فبمجرد أن عين عبيد الله «ماكنون بن ضبارة اللحياني»[631] عاملا على طرابلس حتى استغل بربر هوارة الإباضية فترة عدم الاستقرار وبداية العهد الجديد وثاروا بزعامة أبي هارون الهواري، تؤازرهم قبائل زناتة، نفوسة، ولماية، وغيرها وحاصروا المدينة فأرغم ماكنون على التحصن داخل السور في انتظار وصول الإمدادات لفك الحصار عليه. وأرسل إليه عبيد الله المهدي فرقا من الجند يقودها أبو زاكي تمام بن معارك الأجاني. وتمكن هذا الأخير من تحقيق الانتصار عليهم، إذ قتل كثيرا منهم، وأرسل برؤوس عدد كبير من قتلاهم إلى المهدي برقادة. ورغم ذلك فقد اتهم بالخيانة وأنه كان يتآمر عليه بتحريض الناس ضده، فأوعز إلى ابن أخيه ماكنون ليقتله، فتم له ذلك سنة (298هـ/910م).[632]

ولما تمكن ماكنون من تأمين المنطقة وإعادة الاستقرار إليها تطاول في الحكم وبالغ بنو

الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص140.

629- الشماخي: السير، ص384.

630 - الدرجيني: طبقات المشائخ، ج1، ص114؛ المجدوب: المرجع السابق، ص215-216.

631 - يسميه ابن عذارى (ماقنون بن دبارة الأجاني) ينظر: البيان المغرب، ج1، ص168.

632- ابن عذارى: المصدر نفسه والجزء ذاته، ص164؛ الزاوي: تاريخ الفتح العربي، ص242؛ روسي أتوري: ليبيا منذ الفتح، ص86؛ T Lewicki, La repartition, p325.

Ferhat Dachraoui:Le Califat Fatimide au Magherb 296362- H Imprimerie Officielle De La République Tunisienne, Tunis, 1981, p135.

عمومته في سلب أموال العامة وانتهاك حرماتهم، فأثارت هذه المعاملة السيئة التي سلكتها كتامة انتفاضة أخرى سنة (300هـ/914م)، حيث قام سكان طرابلس بقتل أفراد من كتامة اضطر حينها ماكنون إلى ترك المدينة فارا إلى رقادة. عندئذ قام سكان المدينة بتقديم محمد بن إسحاق القرشي المعروف بابن القرلين، وفي هذه الأثناء أرسل عبيد الله خمسة عشر سفينة محملة بالجند لإخماد هذه الثورة، لكنها هوجمت وأضرمت النار فيها، وقدم جيش آخر يقود هذه المرة ابنه أبو القاسم على طريق البر في جمادى الأولى سنة 300هـ فاعترضته هوارة فأوقع بها الهزيمة. وحاصر طرابلس حصارا مشددا حتى اضطر أهلها إلى أكل الميتة نظرا لفراغ الأقوات والمؤن التي كانت تمدها هوارة للسكان. ولم يصمد ابن إسحاق كثيرا إذ طلب سكان طرابلس الأمان من أبي القاسم، فآمنهم على أن يسلموا إليه محمد بن إسحق، ومحمد بن نصرو رجلا آخر يقال له «الحوححة»، فقبلوا ذلك وسلموهم إليه، ودخلوا طرابلس وفرض على أهلها غرامة مقدارها ثلاثمائة ألف دينار، وقتل ما تبقى فيها من الأغالبة بتهمة تدبير هذا العصيان، وتولى جباية هذه المغارم رجل يقال له خليل بن إسحاق. وبعد أن استقرت الأمور، وعادت إلى حالتها الطبيعية، استخلف عليهم أبا مديني بن كناوة اللهيصي، وترك معه حباسة بن يوسف الملوسي، وعاد أبو القاسم إلى رقادة ومعه الرجال الثلاثة فقتلهم، وشهر بهم في شوارع القيروان[633].

وظلت طرابلس لفترة زمنية وجيزة آمنة، وفضّل أهلها مداراة الشيعة، حيث تقبلوا عمالهم، وجباتهم، وقضاتهم، إلى أن حلت سنة (322هـ/933م) حيث استغلوا وفاة عبيد الله المهدي في منتصف ربيع الأول من تلك السنة، وتولي ابنه أبو القاسم (القائم بأمر الله) الخلافة، وقيام ثورات في العديد من المناطق فثاروا بزعامة رجل عربي من العراق يدعى محمد بن طالوت. وقد ادعى هذا الأخير أنه ابن المهدي، وتمكن من استمالة الناس حوله فقاموا معه واتبعوه ثم زحف على طرابلس وحاصرها، لكن حامية من جندها وبمساعدة الأهالي تمكنت من التصدي له، وإلحاق الهزيمة به، خاصة وأن جماعة من أصحابه تبينوا أمره فقتلوه وأتوا برأسه إلى القائم[634]. وتجدر الإشارة إلى أن معارضة الشيعة قد

633 - ابن عذارى: المصدر نفسه والجزء ذاته، ص168-169؛ ابن خلدون: العبر، مج4، ص78.

634 - ابن غلبون: تاريخ طرابلس الغرب المسمى التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار، تحقيق: الطاهر أحمد الزاوي، المطبعة السلفية، القاهرة، 1349هـ، ص16-17؛ القاضي النعمان: كتاب افتتاح الدعوة، ص325؛ القرشي: عيون الأخبار السبع الخامس، ص125؛ ابن الأثير: الكامل، مج8، ص77؛ لقبال: دور كتامة، ص404-405؛ إدريس عماد الدين: تايخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب (القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار)، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1985، ص192؛ مرمول: السياسة الداخلية، ص78-79؛ الزاوي: تاريخ الفتح العربي، ص243-244؛ روسى أتوري: ليبيا منذ الفتح، ص86-87؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب،

استمرت في طرابلس وأرباضها، ولم تكن من طرف الإباضية فقط بل حتى من السنة. ورغم ضعف نفوسة إلا أنها اغتنمت هي الأخرى تردي الأوضاع الأمنية فأعلنت ثورتها سنة (310هـ/ 922م).

ب-ثورة نفوسة 310هـ (922م)[635]:

ما أن انتهى العبيديون من القضاء على الاضطرابات التي وقعت في طرابلس حتى شق سكان جبل نفوسة الطاعة وقاموا بثورة يتزعمهم رجل تسميه المصادر «أبابطة»، ورغم أن المصادر لا تعطينا الدوافع الحقيقية لهذه الثورة إلا أننا نعتقد أن الفاطميين أرادوا إخضاع الجبل لحكمهم خاصة وأنه أصبح ملاذا لثورات الإباضية، وأصبح سكانه يدعمون كل حركة عصيان تظهر في المنطقة، لأن أغلب قبائلها إباضية المذهب وبالتالي فهي تابعة لمشائخ الجبل. ضف إلى ذلك إحياءهم للإمامة الرستمية. أما فيما يخص زعيمهم أبو بطة فإن المصادر لا تزودنا بمعلومات وافية عنه إلا أن ليفيسكي، ومحمود إسماعيل يتفقان على أن اسمه ما هو إلا كنية لأبي يحي زكريا الأرجاني الذي تولى قيادة جيش نفوسة[636]. وإذا كان ليفيسكي يرى بأن قيادته للجيش كانت بتكليف من رئيس أهل المذهب وقتها ألا وهو أبو محمد عبد الله بن الخير على أساس أن هذا الأخير كان شيخا مسنا[637]. إلا أن المصادر الإباضية تذكر بأن أبا يحي بويع في هذه الفترة إمام دفاع لمحاربة المسودة[638].

ومهما يكن من أمر فقد أنفذ إليهم عبيد الله المهدي جيشا بقيادة علي بن سليمان الداعي،[639] فشن هجوما على قرية «الجزيرة»، لكنه هزم إذ تمكن النفوسيون من صده ومن قتل العديد من جنده فتفرق أصحابه مما جعله يولي الأدبار إلى طرابلس. وأرسل إلى عبيد الله يخبره بالهزيمة ويطلب منه ضرورة إرسال الإمدادات إليه، فكتب الخليفة لعامله على قابس علي بن لقمان يأمره بقتل كل من مر به من المنهزمين ففعل، جزاء تركهم لقائدهم وخذله في ميدان المعركة، وفي الوقت نفسه زوده بقوات إضافية ليتجه علي بن سليمان مرة أخرى إلى الجبل، وشن حملة على «تيركت» - وهي قرية تقع بين «نالوت»

ص517-518؛ .136-Ferhat Dachraoui:Le Califat Fatimide, p135

635 - يرى ابن عذارى أن الثورة كانت في سنة 309هـ (921م) واستمرت إلى غاية 311هـ (923م)، ينظر: المصدر نفسه والجزء ذاته، ص187.

636 - T. Lewicki, Les hakims, p101. ؛ محمود إسماعيل: الخوارج في المغرب الإسلامي، ص176-177.

637- T. Lewicki, ibid, p101.

638 - البغطوري: سير نفوسة، و65؛ الشماخي: السير، ص243؛ معمر: الإباضية في ليبيا، ص154.

639 - في رواية القرشي فإن القائد يسمى «سليمان بن كافي الأجاني» ينظر: إدريس عماد الدين: التاريخ الخلفاء الفاطميين، ص214.

و«كباو» - وتمكن من إلحاق الهزيمة بنفوسة في 18 شعبان 310هـ. وهدم حصونهم، وقتل العديد من رجالهم، وسبي نسائهم وأطفالهم[640].

ورغم ذلك، فالمصادر الإباضية تذكر بأن النفوسيين تمكنوا هذه المرة كذلك من إلحاق الهزيمة بعلي بن سلمان رغم مقتل قائدهم أبي يحي، قتله رجل من أصحابه من «تين بكر»[641] أو من «تنكتر» من أهل «تمجدال»[642]. والحقيقة كانت غير ذلك إذ أصبح النفوسيون منذ ذلك الحين يدفعون المغارم للجباة الفاطميين الذين كانوا يشتطون ويبالغون في تقديرها، وكانوا كل مرة يهددونهم إذا تأخر دفعها. يقول الشماخي: «لما تولى (أي أبو الفضل سهل) أدرك الناس في ذلك من المسودة، وزناتة، والعرب، وواحد من أولئك يقدم على عشرة من نفوسة، لما ملأوا قلوبهم من العرب، فلم يبرح حتى عكسها، وصار النفوسي يقدم على عشرة من أهل البادية، ورفع الجور على نفوسة»[643].

ويبدو أن النفوسيين أرادوا الثأر من الفاطميين، فخرجوا مرة أخرى لقتالهم في عهد أبي زكريا بن أبي يحي الأرجاني، لكنهم انهزموا شر هزيمة وقتل منهم خلق كثر، وتعرض أبو زكريا هو الآخر لمثل أبيه حيث قتله رجل من طرميسة من أصحابه[644].

ويجب الإشارة في هذا السياق إلى أن المصادر الإباضية تسمي كل من الفاطميين وبني زيري بـ «المسودة» ما يصعب لنا في بعض الأحيان تحديد الدولة المقصودة، خاصة إذا تعذر وجود إشارة نستطيع من خلالها تحديد تاريخ الحادثة. وقد وقع علي يحي معمر - وهو إباضي - في هذا الخطإ عندما ذكر بأن جيوش العباسيين هجموا على الجبل إبان حكم أبي زكريا بن أبي يحي الأرجاني[645].

جـ - ثورة النكارية 322هـ (933م):

أطلقت تسمية «النكارية» على الجماعة التي أنكرت إمامة عبد الوهاب (171-211هـ) (787-826م). كما عرفوا بأسماء أخرى مثل «النجوية»، لأنهم أكثروا من النجوى

640 - البغطوري: المصدر السابق، و65؛ الشماخي: المصدر السابق، ص243؛ ابن عذارى، البيان المغرب، ج1، ص187؛ روسى أتوري: ليبيا منذ الفتح، ص87؛ محمود إسماعيل: الخوارج في المغرب الإسلامي، ص176-177؛ مرمول: السياسة الداخلية، ص83؛ الزاوي: تاريخ الفتح العربي، ص248. R.. .101-T Lewicki, Les hakims, p99 .Basset :Les sanctuaires, p385

641 - الشماخي: المصدر نفسه، ص243-244.

642- البغطوري: المصدر السابق، و65.

643 - الشماخي: المصدر نفسه، ص275.

644 - البغطوري: المصدر السابق، و65؛ الشماخي: المصدر نفسه، ص244.

645 - ينظر: الإباضية في ليبيا، ص155.

في إبطال إمامة عبد الوهاب، و«الشغبية» لأكثارهم الشغب في تاهرت وأرباضها، و«النكاث» لأنهم نكثوا بيعة عبد الوهاب بعد مبايعته[646].

وقد اتخذت معارضة هذه الجماعة طابعا سياسيا في البداية برفض زعيمها يزيد بن فندين إمامة عبد الوهاب، ثم ما لبث أن تحول هذا الصراع إلى طابع ديني وأصبحت لها عقائد مناوئة ومختلفة عن المذهب الإباضي، وعن الإسلام عموما، منها أنهم قالوا إن حجة الله لا تقوم إلا بسماع، وأنكروا عذاب القبر[647]، كما قالوا بأن ولاية الله تتقلب بالأحوال، وأن الإمامة غير مفترضة ومن لم تبلغه دعوة الإسلام ودعا إلى دين سماوي آخر لا يجوز له أن يجيب، وقالوا إن صلاة الجمعة غير جائزة خلف أئمة الجور، وإن عطايا الملوك لا يحل أخذها، وإن الله لم يأمر بالنوافل، كما قالوا بلزوم العمل بالفرائض دون لزوم العلم بها، ولا من معرفتها شيء، وأن الحرام المجهول حلال،[648] كما قالوا بشرب الخمر على التقية، وقالوا لا تجوز إمامة أحد المسلمين وفي المسلمين أفضل منه، وهذا الشرط هو الذي خالفوا فيه الإمام عبد الوهاب ورفضوا الاعتراف بإمامته[649].

وتجدر الإشارة إلى أنه بظهور هذا الخلاف انقسم المجتمع الإباضي إلى فريقين، فريق النكار، وفريق الوهبية، وهذا الأخير وقف إلى جانب الإمام عبد الوهاب فسمي باسمه[650]. ورغم وصول الفتاوي من المشرق ببطلان أقوال النكارية في الإمامة، إلا أن الخلاف استمر ونشبت حروب بين الفريقين، انتهت بانتصار الوهبية وتفرق أتباع يزيد في بعض مدن المغرب الإسلامي، ولم ينته هذا الخلاف السياسي المذهبي بوفاة عبد الوهاب بل استمر لزمن طويل حيث ظلت بقاياهم في جبل أوراس، وجبل نفوسة، وبلاد الجريد، وغيرها، وظل الصراع قائما بينهما خاصة الصراع الفكري المتمثل في المناظرات التي كانت تعقد بين الطرفين.

646- الشماخي: المصدر السابق، ص148؛ أطفيش: رسالة شافية، و4؛ يحي هويدي: تاريخ فلسفة الإسلام، ج1، ص45.

647 - المارغني: فرق الإباضية، ص45؛ الوارجلاني: الدليل والبرهان، تحقيق سالم بن أحمد الحارثي، نشر وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، 1983، مج2، ص318؛ معمر: الإباضية دراسة مركزة في أصولهم، ص75.

648 - المارغني: المصدر نفسه، ص55؛ صابر طعيمة: الإباضية عقيدة ومذهبا، دار الجيل، بيروت، 1986، ص52؛ معمر: الإباضية بين الفرق الإسلامية، ص263.

649 - المارغني: المصدر نفسه والصفحة ذاتها، طعيمة: المرجع نفسه والصفحة ذاتها.

650 - يرى البعض أن نسبة الوهبية تعود إلى عبد الله بن وهب الراسبي لا إلى الإمام عبد الوهاب لأن (ها) الوهاب مشددة وبعدها ألف ليس ذلك في لفظ الوهبيةاللهم إلا أن يقال من ترخيم النسب شذوذا والواقع أن هذه التسمية لم تظهر قبل تأسيس الدولة الرستمية. ينظر: أطفيش: رسالة شافية، و44-45؛ مجهول: كتاب كشف الغمة فيما تشاجرت به الأمة (كشف الغمة وبيان كل فرقة)، ورقة94.

أما أعنف ثورة قام بها النكارية فهي ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد ابتداء من سنة 322هـ (933م)[651]. فعندما انتشرت أفكاره وكثر أتباعه «أخذ على نفسه بالحسبة على الناس وتغيير المنكر»[652]. ولما بلغ خبره الخليفة الفاطمي القائم بأمر الله (322-334هـ) (933-945م)، أرسل في طلبه من عامله على قسطيلية وتم زجه في السجن بمدينة توزر ولكنه تمكن بعد فترة زمنية قصيرة من الفرار بمساعدة أصحابه الذين اقتحموا أبواب السجن. حينئذ وبعد فك أغلاله بالحامة شرع في الترحال بين القبائل يستنفر أتباعه والبربر عامة لمحاربة الفاطميين، فنزل في قلعة بني درجين وجبل أوراس، واتصل ببني واركلا، وبني برزال، وبني زنداك، وفي الوقت نفسه كان الخليفة القائم يترصد ويتحسس أخباره و يرسل إليه الجيوش، لكنه لم يتمكن من توقيفه لسرعة تحركاته. واستمرت الثورة إلى عهد خليفته المنصور، ولا نريد أن نتناول بالتفصيل أحداث هذه الثورة والأشواط التي قطعتها لأن المصادر والمراجع أفاضت في الحديث عنها، ولكننا نريد أن نركز فقط على مساهمات سكان جبل نفوسة فيها، هل كانت مجرد تعاطف وتأييد ومساندة؟ أم كانت مدعمة بالسلاح والكراع والمحاربين، خاصة بالنسبة للوهبية الذين هم على غير رأي النكارية ؟

إن النصوص المتوفرة لدينا تفيد بأن الإباضية الوهبية سواء في جبل نفوسة أم في غيره من المناطق كانوا غير معنيين بهذه الثورة، وبالتالي لم يشاركوا فيها، إذ إن مسارة بن غني - أحد أصحاب أبي يزيد - قال له: «لا تظن أن الوهبية خرجوا معك فإنهم في مساجدهم»[653]. ومن خلال هذا النص يتبين لنا أن الوهبية لم يشاركوا في هذه الثورة، وحتى قبيل قيامها كان الوهبية لا يختلطون بالنكارية كنوع من المقاطعة. فقد روى الدرجيني أن عالما من علماء الإباضية يدعى «أبو الربيع» خرج برفقة أبي يزيد. وأثناء مرورهم بحي من أحياء الوهبية لم يكترثوا بهما، وعندما مر بالنكارية أكرموهما وأحسنوا استقبالهما[654].

651 - هو مخلد بن كيداد بن سعد بن مغيث بن كرمان بن مخلد بن عثمان بن وريتت بن حونيفر بن سميدان بن يفرن بن جانا، وكنيته أبو يزيد. وهو من بني واركو إخوة مرنجيصة من بطون بني يفرن الزناتية. ولد بمدينة كوكو السودانية. ولما عاد أبوه منها أصبح أبو يزيد يتردد بين توزر وبين تقيوس من بلاد الجريد فحفظ القرآن وخالط النكارية فتأثر بمذهبهم ومال إلى اعتقاداتهم. ثم أنشأ مدرسة في توزر لتعليم الصبيان ثم انتقل إلى تاهرت ثم عاد إلى تقيوس. وظل يعلم بها إلى أن بدأ دعوته إلى الثورة ضد العبيديين. ينظر: ابن عذارى: البيان المغرب، ج1، ص216؛ ابن خلدون: العبر، مج7، ص26؛ ابن أبي دينار: المؤنس، ص57-58.

652 - ابن خلدون: المصدر نفسه والجزء ذاته، ص84؛ ابن الأثير: الكامل، مج8، ص422.

653 - الدرجيني: طبقات المشائخ، ج1، ص105

654 - المصدر نفسه والجزء ذاته، ص110-111.

وتضيف المصادر كذلك أن أبا يزيد عندما توجه إلى الحج بعد فراره من عبيد الله المهدي طولب بمكس فاستعظمه. فلما عاد ووصل قرب جبل نفوسة فارقه من كان معه من أهل الجبل قاصدين منازلهم فقال لهم: «إقرأوا إخواننا السلام وقولوا لهم قد فاتنا منكم كثير، وفاتكم منا كثير، وإنه ليس الله علينا أن نشتري حجة». يشير بهذا إلى المكس الذي طولب به، ويريد بهذه الرسالة اختلاف القلوب[655].

وقد استمر هذا الصراع والخلاف. فالمصادر تشير إلى نزاعات بين الفريقين بلغت درجة الحروب، وإلى مناظرات بينهما دعت إلى حمل السيوف. فقد ناظر وهبي نكاري من مدينة توزر، وجرى بينهما نقاش وجدل بلغ درجة الشتم ثم ما لبث أن تحول إلى حرب عندما اشتكى كل واحد منهما لحيه، وانهزم فيها النكارية وتتبعهم الوهبية إلى غاية تقيوس وحاصروها، وانتهى القتال في الأخير بهزيمة الوهبية[656].

كما حاصر الوهبية النكار علميا فضايقوهم في حلقاتهم العلمية بعقدهم لحلقات موازية. فقد روي أن أبا صالح بكر بن قاسم اليراسني (اليهراسني) لما سمع بان النكار استولوا على جبل دمر بحلقة، فخرج من جربة وكابد صعود الجبال - لتقدمه في السن - إلى أن وصل إلى زيري بن كملين - رئيس أهل الجبل - فلامه وعاتبه[657].

واختار بعض العلماء وسيلة أخرى لمحاربة الفكر النكاري وهي أنهم رفعوا الأقلام بدل السيوف والجنود للتأليف للرد على أباطيلهم. فقد وضع محمد بن أبي خالد إثنى عشر كتابا يرد فيها على من أنكر إمامة عبد الوهاب[658].

وكانت الرسائل تبعث من علماء الوهبية إلى كافة الوهبية إينما كانوا سواء في الجبل أم في غيره من المناطق تحذرهم من مغبة فسح المجال للنكار لكي ينشطوا علميا، ويكثروا من حلقات الدرس، وقد حفظت لنا المصادر نصوص رسائل منها رسالة أبي القاسم يونس بن أبي زكريا إلى أبي مكدول الزنزفي يقول له فيها: «أما بعد فإني سمعت أن جماعة من النكار طلعوا قبلكم فإياكم ثم إياكم أن يردوا أرضكم، ولو للضيافة فإن القوم أخدع للأمة، وأنت ممن لا يحتاج إلى أن يوصى»[659]. ويروى كذلك أن أبا مسور يسجا بن يوجين اليراسني (اليهراسني) الساكن بجربة تعرض لأذى النكار فجاءته ثلاث رسائل

655 - نفسه، ص97.

656 - أبو زكريا: كتاب السيرة، ص227-228؛ الشماخي: السير، ص359.

657 - الوسياني: السير، ج2، و15؛ الدرجيني: المصدر السابق، ج2، ص357؛ الشماخي: المصدر نفسه، ص368.

658 - الوسياني: المصدر نفسه والجز ذاته، و37؛ الشماخي: المصدر نفسه، ص418.

659- الشماخي: المصدر نفسه، ص408-49؛ الدرجيني: المصدر السابق، ج2، ص420.

من وهبية نفوسة، وزواغة، وجبل دمر تتفق كلها في المحتوى. ومما جاء فيها: «بلغنا أن النكار يسيئون إليك فإن صح نصرناك بعسكر أوله عندك وآخره عندنا»[660]. ورغم أن أبا مسور لم يشتك من أذاهم، إلا أن الرسائل جاءته تباعا، وكأنهم اتفقوا وتواعدوا مما جعل النكار يزدادون رعبا فأصبحوا يحترمونه ويوقرونه.

وقد انتقل هذا الصراع كذلك إلى المساجد حيث كانت الفرقتان تتنازعان حول إمامة الصلاة فيها[661] بل إن علماء الوهبية كانوا يرفضون الزواج منهم[662]. وقد تعرض علماء الوهبية لمحاولات اغتيال من قبل النكار مثلما حدث لأبي القاسم يزيد بن مخلد[663].

والآن وبعد كل هذه الشواهد التاريخية يبدو لنا من الوجهة الموضوعية والمنطقية أن وهبية الجبل لم يشاركوا في هذه الثورة بأي حال من الأحوال رغم أن العدو مشترك. ورغم وجود بعض الإشارات وهي قليلة يبدي فيها الوهبية تسامحا كبيرا مع مخالفيهم من النكار. فالشماخي يذكر أنه لما جاز أبو الربيع سليمان بن زرقون[664] على قرية «ريصو» فوجد[665] بها أربع فرق من الإباضية: وهبية، وخلفية، ونكارية، ونفاثية. فأمر القضاء والأحكام لأبي الخطاب وسيل بن سنتين الزواغي، والفتيا للنكار، وإمامة الصلاة في رمضان للنكارية، والآذان للنفاثية .

وإذا كان ليفيسكي يرى بأن نفوسة قد زودت أبا يزيد بفرق من الجند سنة 333هـ (944م)[666] فإن مؤرخي الإباضية الوهبية يجزمون بأنه لم يتلق أية مساعدة منهم. فأبو عبد الله بن أبي عمرو بن أبي منصور إلياس - وهو أحد رؤساء أهل الدعوة في ذلك الوقت - لم يقم بأي تصرف يوحي بتقديم يد المساعدة. ذلك أن جرائمه تبرأ منها الوهبية. ولعل هذا الانقسام وهذا التباين هو الذي حال دون استفادة سكان الجبل - وهيبتهم على الأقل - من هذه الفرصة التي أتاحتها لهم هذه الثورة للانتقام من قتلة الإمام يقظان. وعلى الرغم من استقلالهم المذهبي عن الفاطميين إلا أنهم استكانوا على عكس السنة

660 - الشماخي: المصدر نفسه، ص345.

٦٦١ - الوسياني: السير، ج١، و٦٤.

662 - ذكر أن رجلا من أهل جربة أراد أن يزوج ابنته لرجل من النكار فكرهت ذلك ولم ترض فشكته إلى المشائخ فاستخلف أحدهما فزوجها للآخر ولما سمع والدها راح يصيح: «يا للوهبية لا نكاح إلا بولي». ينظر: الوسياني: المصدر نفسه، ج2، و63.

663- الشماخي: السير، ص347.

664 - هو أحد علماء الإباضية الوهبية تصنفه المصادر ضمن علماء الطبقة السابعة (300-350هـ) ولد في قرية «تابديوت» بجبل تيرشوين بجبل نفوسة. ينظر: الدرجيني: طبقات المائخ، ج1، ص109.

665 - الشماخي: المصدر السابق، ص281+282.

666 - T. Lewicki: Les hakims, p102.

الذين استغلوها وشاركوا فيها بدعوى من علمائهم بالقيروان. ومع ذلك فإننا نعتقد أن نكارية الجبل قد شاركوا فيها خاصة وأننا نعلم أنهم كانوا منتشرين في مجموعة من القرى مثل: يفرن، ككلة، بابل، تاكبال، وهو ما أشار إليه ابن خلدون في حديثه عن حصار أبي يزيد للمهدية حيث ذكر أن بربر قابس، وطرابلس، ونفوسة، شاركوا في هذا الحصار[667]. وإذ كان الشماخي يذكر تسمية أخرى للنكار وهي مستاوة،[668] فإن الباروني يوضح بأن مستاوة -وهي فرقة غير معروفة - تنسب إلى عالم يدعى عبد الله بن يزيد المستاوي، وإن الحسنية التي تنسب لأحمد بن الحسين وكلتاهما تنكر إمامة عبد الوهاب[669].

ويبدو أن مساهمة نكارية الجبل كانت محدودة لأن المصادر التاريخية الإباضية - وأغلبها وهبية - لم تتحدث عنها ولو بإشارة واحدة. وربما كان إهمالها مقصود. ضف إلى ذلك أن هذه المساعدات - إن كانت حقا - لم تؤد إلى تأزم الوضع في هذه الجهة. ولم نسمع عن قيام عصيان أو تمرد أو حتى عن حملات تأديبية فاطمية بعد فشل الثورة. ولا تتحدث المصادر المتوفرة عن مثل هذا منذ تعيين زيان الصقلي عاملا على طرابلس في خلافة المنصور حيث أحسن السيرة، وظل على ولايتها حتى خلافة المعز لدين الله[670].

د - ثورة الوهبية 358هـ (968م):

يعد مقتل أبي القاسم يزيد بن مخلد[671] الشرارة الأولى التي أدت إلى ثوران الإباضية الوهبية ضد خلفاء بني عبيد. فقد عرف هذا الشيخ بعلمه وأدبه، واشتهر في القيروان في زمن المعز لدين الله حتى إنه «إذا دخلها اضطربت المدينة يسألونه عن المشكلات ويستفتونه، بل يدخرونها لوروده من موافق ومخالف»[672]. فلا غرابة إذن أن يقول فيه المعز: «أما يزيد بن مخلد فلم تلد العرب مثله»[673]. ولذلك فقد قربه المعز وأشركه في مجالسه لمناظرة علماء النحل الأخرى. ورغم هذه الحظوة التي نالها أبو القاسم إلا أن المعز ظل

667- ينظر: العبر، مج7، ص30.

668 - ينظر: السير، ص282.

669 - ينظر: مختصر تاريخ الإباضية، ص54.

670 - صالح مصطفى: ليبيا منذ الفتح، ص151.

671 - هو عالم من علماء الطبقة السابعة (300-350هـ) ولد في مدينة الحامة ببلاد الجريد، وفيها تتلمذ على كبار شيوخها مثل سحنون بن أيوب وأبي الربيع سليمان بن زرقون النفوسي ثم انتقل إلى القيروان ومنها إلى سجلماسة ثم عاد في الأخير إلى القيروان وعكف على مطالعة الكتب ودراستها رفقة أبي خزر يغلى بن زلتاف. ينظر: الدرجيني: طبقات المشائخ، ج1، ص119-120؛ معمر: الإباضية في ليبيا، ص51-52؛ صالح باجية: الإباضية بالجريد، ص126.

672 - الشماخي: السير، ص347.

673 - الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص132؛ المجدوب: الصراع المذهبي، ص217.

يخشاه ويهابه نظرا لمكانته عند الإباضية، فكان دأبه مراقبة تحركاته وتحركات غيره من العلماء ذوي النفوذ والشهرة. وكثرت الروايات ضده خاصة من وزراء المعز يحذرونه من خروجه عليه خاصة وأنه كان كل ربيع يخرج رفقة المشائخ إلى مواطن قبيلة مزاتة الإباضية. وكانت هذه الأخيرة - كما سبق الذكر - قوة كبيرة قدرت بإثني عشر ألف فارس[674].

ولما كثرت التحذيرات أرسل المعز إلى عامله على مدينة الحامة يأمره بقتله. وتذكر المصادر أن هذا العامل كان معجبا بشخصية أبي القاسم ولذلك لم ينفذ أمره بل نراه ناصحا له بالسفر إلى مصر أو إلى وارجلان للحيلولة دون الوقوع في أيدي جند المعز. ولما تباطأ أرسل المعز سرية من الجند لتتمكن في النهاية من قتله[675].

وبلغ مقتله مبلغا عظيما في أهل الدعوة فاتفقوا على القيام بالثأر له. وبدأ شيوخ الوهبية يتصلون بإخوانهم في مختلف مواطن للتنسيق بينهم والإعداد للثورة. ومن الرسل الذين أرسلوا إلى الجبل لهذا الغرض أبو نوح سعيد بن زنغيل، جاء ليستشير أبا عبد الله بن أبي عمرو حاكم الجبل، وليطلع على ما يمكن أن تساهم به نفوسة، وقد وعده هذا الأخير بتقديم العون، رغم ضعفهم بعد مانو. ثم توجه أبو نوح إلى جزيرة جربة لاستنفار إباضيتها، ولكن شيخهم أبا صالح اليهراسني أبدى تخوفا من هذه المغامرة لأن العبيديين كانوا أكثر عددا وعدة وأجابه قائلا له: «ليس لكم في مزاتة ما تقومون به»،[676] وأخبر أبو نوح أبا خزر بنتائج اتصالاته، ويبدو أن هذه النتائج غير المشجعة هي التي جعلتهم يتصلون بأمويي الأندلس، ويطلبون منهم النصرة والعون خاصة وأن علاقاتهم مع العبيديين كانت متوترة جدا حيث قامت مراكب أندلسية بأعمال قرصنة ضد بعض السفن الفاطمية. وفي المقابل غزا الأسطول الفاطمي مدينة المرية وأحرق المراكب الراسية في مينائها مما جعل الناصر يستنجد بالروم[677].

وتذكر المصادر أن المعز لدين الله اكتشف مراسلاتهم دون أن توضح كيفية بلوغها إليه. ولا نستبعد أن يكون للنكار يد في ذلك للانتقام من الوهبية الذين لم يؤازروهم في ثورتهم. وشعر المعز بالخطر الذي يحدق به فبعث إليهم يدعوهم إلى المسالمة، ويطلب

674 - الدرجيني: المصدر نفسه والجزء ذاته، ص124.

675 - أبو زكريا: كتاب السيرة، ص139؛ الجدوب: المرجع السابق، ص217؛ سنوسي يوسف إبراهيم: زناتة والخلافة الفاطمية، شركة سعيد رأفت للطباعة، ط1، القاهرة، 1986، ص273.

676 - أبو زكريا:المصدر السابق، ص202.

677 - لمزيد من الاطلاع على الصراع الفاطمي - الأموي في عصر المعز. ينظر: القاضي النعمان: كتاب المجالس والمسايرات، تحقيق: الحبيب الفقي -إبراهيم شبوح - محمد اليعلاوي، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، تونس، 1978، ص164 وما بعدها.

منهم أن يعودوا إلى بلادهم التي تولوها من تاهرت وبلاد الجريد. حينئذ أرسل المشائخ أبا محمد جمال إلى الزاب وأريغ ليستنفروا إباضيتها. وبويع أبا خزر إماما للدفاع على أمل أن يولوه إمامة الظهور إن كان النصر حليفهم[678].

وبادر أبو خزر بالهجوم على باغاية قبل أن تلتحق فرق الزاب وأريغ ووارجلان. ورغم أن المواجهة المصيرية لن تبدأ بعد نجد أن فخذا من مزاتة (بنو يليان) انسحب من جيشه بعد أن أغراهم عرض سكان باغاية والمتمثل في حصولهم على مال كثير مقابل الانسحاب. وانهزم الجيش وفر أبو خزر إلى جبل نفوسة واختفى هناك في جبل «تلتماجرت». أما أبو نوح فقد تنكر بزي الرعاة. وأما إباضية المغرب الأوسط فقد عادوا من حيث أتوا لما علموا بما وقع لإخوانهم وكانوا على مقربة من باغاية إذ لم يبق لهم من المسير سوى نصف يوم[679].

وأرسل المعز في طلبهما فألقي القبض على أبي نوح وزج به في السجن، لأنه كان يعتقد أنه هو الذي راسل بني أمية[680]. أما أبو خزر فقد أمنه الخليفة[681] فسار إليه إلى القيروان في الحادي والعشرين من ربيع الآخر سنة 359هـ (969م) حيث رفع مرة أخرى منزلته وأصبح مجلسه على سريره دون بقية الجلساء. كما بعث المعز إلى أقاليم الوهبية كلها بأمان[682].

ولما عزم المعز على الانتقال إلى مصر أراد أن يصحبهما معه ربما لتخوفه من بقائهما بين إخوانهم. فالمصادر تذكر انه لما علم المعز بقدوم أبي خزر من نفوسة أرسل أبا نوح ومعه ثمانون فارسا من مزاتة لاستقباله في قابس، طعن جلساؤه في تزويده بهذه القوة إذ قالوا له: «إن أبا نوح أصاب ثمانين فارسا - كما طلب - يمنع أبا خزر إن أراد ذلك» فتفطن المعز لذلك وأرسل وراءهم من يقلل عدد الفرسان[683].

ومهما يكن من أمر فقد قبل أبو خزر الدعوة، ورفضها أبو نوح. وانتقل الأول إلى مصر وأقطعه المعز أرضا رغم أن أهل الدعوة كانوا يحبذون بقاؤه بينهم. وتذكر المصادر أن جماعة من الإباضية فرت من جيش المعز حينما خرج في طريقه إلى مصر. والتحقت

678 - أبو زكريا:المصدر السابق، ص202؛ الشماخي: السير، ص350؛ مرمول: السياسة الداخلية، ص182.

679 - الشماخي: المصدر نفسه، ص351.

680 - دبر أحد يهود المعز حيلة للتأكد من كاتب الرسالة بأن أعطى أبا نوح ورقا ومحبرة لكي يكتب طلب عفو من المعز حتى يقارن بين الرسالتين ولكن هذا الأخير تفطن للحيلة فغير الخط. ينظر: أبو زكريا:المصدر السابق، ص207-208.

681 - يذكر ابن الأثير أن أبا خزر هو الذي طلب الدخول في الطاعة. ينظر: الكامل، مج8، ص599.

682 - الدرجيني: طبقات المشائخ، ج1، ص136؛ مرمول: السياسة الداخلية، ص183-184.

683 - أبو زكريا: كتاب السيرة، ص213-214.

بالجبل[684] وبذلك تنتهي مرحلة من مراحل الصراع لتبدأ مرحلة أخرى مع بني زيري. وتجدر الإشارة في الأخير إلى أن مصادرنا لم تتحدث عن حجم القوات النفوسية التي شاركت في المعركة، هذا إن شاركت أصلا. وربما لم تصل إلى باغاية مثل أهل أريغ ووارجلان. كما تشير بعض الروايات إلى مشاركة النكارية[685] على الرغم من أن المصادر الوهبية لا تذكر ذلك.

684 - ابن الأثير: الكامل، مج8، ص621؛ صالح مصطفى: ليبيا منذ الفتح، ص159؛ الباروني: مختصر تاريخ الإباضية، ص50؛ الزاوي: تاريخ الفتح العربي، ص257.
685- ابن الأثير: المصدر نفسه والمجلد ذاته، ص598.

الفصل الثاني

نفوسة الجبل والصراع الفاطمي - الزيري

1 - رحيل المعز لدين الله الفاطمي إلى مصر.

2 - علاقات إباضة الجبل ببني زيري.

أ - قيام الإمارة الزيرية.

ب - النفوسيون وبني زيري.

3 - استراتيجية جديدة للفاطميين.

4 - جوغراف والهجرة إلى المجهول.

1 - رحيل المعز لدين الله الفاطمي إلى مصر:

سبقت الإشارة إلى أن الفاطميين منذ أن تمكنوا من الاستيلاء على بلاد المغرب، والقضاء على دولة بني مدرار بسجلماسة، ودولة بني رستم بتاهرت، والأغالبة برقادة، ظلوا يخططون ويمهدون للانتقال إلى مصر ليتخذوها قاعدة لهم ينطلقون منها إلى الحجاز. ذلك أن الدخول إلى مصر يسهل لهم السيطرة على الأماكن المقدسة - قبلة المسلمين من مختلف أصقاع العالم الإسلامي - وعلى أهم الحواضر الإسلامية كدمشق، وبغداد عاصمة العباسيين. فلا غرو إذن أن أولى بنو عبيد عناية خاصة لهذا المشروع منذ تأسيس دولتهم بالمغرب سنة 296هـ (909م)، ومبايعة عبيد الله المهدي بالخلافة، على الرغم من أن البربر لم يخضعوا نهائيا لسلطانهم خاصة بربر زناتة.

فقد جهز عبيد الله المهدي ثلاث حملات عسكرية لفتح مصر كانت الأولى سنة 301هـ (913م)، والثانية سنة 306هـ (918م) أو سنة 307هـ (919م)،[686] والثالثة سنة 322هـ أو 323هـ (933م) و(934م)[687]. ففي الحملة الأولى سير ابنه أبا القاسم محمد فأستولى على الإسكندرية والفيوم، وتمكن من جباية خراجها وخراج بعض أعمال الصعيد، لكنه أرغم على الجلاء والعودة إلى بلاد المغرب بعد أن انهزم أمام الجيش الذي أرسله الخليفة العباسي المقتدر (295-320هـ) (907-932م) بقيادة مؤنس الخادم[688]. أما الحملة الثانية فقد فشلت فشلا ذريعا لأن المقتدر وجه لمواجهته مؤنس الخادم مرة أخرى حيث اشتبك مع حباسة بن يوسف الكتامي - أحد قواد كتامة - وهزمه[689]. ولم تكن هذه الحملات برية فقط بل كانت بحرية كذلك اذ أن الأسطول كان يبحر على الساحل بجوار المشاة. ففي الحملة الثانية وصل ثمانون مركبا من المغرب لنجدة أبي القاسم لتواجه خمسة وعشرين مركبا أرسلها المقتدر من طرسوس[690].

---

686 - الصنهاجي: أخبار ملوك بني عبيد، ص23؛ محمد بن عميرة: دور زناتة، ص238؛ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، ج3، ص145.

687 - ابن عذارى: البيان المغرب، ج1، ص209؛ أحمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي، دار النهضة العربية، بيروت، 1971، ص247. أرسل هذه الحملة في أواخر أيامه، ذلك أنه توفي يوم الإثنين الرابع عشر من ربيع الأول من هذه السنة.

688 - الصنهاجي: المصدر السابق، ص23؛ الوزير السراج: الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تحقيق: محمد الحبيب الهيلة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1970، ج1، ص896.

689 - الصنهاجي: المصدر نفسه والصفحة ذاتها.

690 - الوزير السراج: المصدر السابق، ج1، ص897؛ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ج3، ص145.

وقد استغرقت كل حملة سنتين على الأقل، وكان مصيرها الفشل الذريع، وحتى الحملة التي سيرها عبيد الله سنة 322هـ لم تحقق له ما كان يصبو إليه، إذ تمكن الأمير الإخشيدي العباس بن محمد بن طغج الإخشيد من صدها[691].

وتجدر الإشارة في هذا المضمار إلى أن الخلافة العباسية كانت متفطنة لهذا الخطر الفاطمي خاصة وأنها كانت من القوة بحيث تمكنت من صد هذه الحملات. وتوقفت الحملات نتيجة انشغال الخليفتين القائم بأمر الله (322-334هـ) (933-945م) والمنصور (334-341هـ) (945-952م) بإخماد ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني. ورغم ذلك لم يحل دون قيام الفاطميين بمحاولات أخرى ولكنها ليست عسكرية، فقد اتصل القائم بمحمد الإخشيد عدة مرات محاولا كسبه واستمالته ليقطع الخطبة لبني العباس. وكاد أن ينجح خاصة عندما ساءت العلاقات بينه وبين الخليفة العباسي الراضي (322-329هـ) (933-940م)، لولا أن تراجع الإخشيد عن هذه الفكرة لأن عواقبها غير محمودة[692].

وبعد القضاء على ثورة أبي يزيد مخلد، بعثت فكرة إعادة المحاولة من جديد إبان خلافة المعز لدين الله (341-362هـ) (952-972م)، حيث أمر بحفر الآبار وبناء الحصون والقصور على طول الطريق المؤدي إلى مصر. ونعتقد أن هذه الحصون هي نفسها التي أشار إليها المراكشي في قوله: «ما بين الإسكندرية وطرابلس المغرب خمسة وأربعون مرحلة. وكانت العمارة متصلة من مدينة الإسكندرية إلى مدينة القيروان تمشي فيها القوافل ليلا ونهارا. وكان فيما بين الإسكندرية وطرابلس المغرب حصون متقاربة جدا، فإذا ظهر في البحر عدو ونور كل حصن للحصن الذي يليه، واتصل التنوير فينتهي خبر العدو من طرابلس إلى الإسكندرية، أو من الإسكندرية على طرابلس في ثلاث... أو ربع ساعات من الليل فيأخذ الناس أهبتهم ويحذرون عدوهم»[693].

ولما بلغته الأخبار بوفاة كافور الإخشيدي حاكم مصر أواخر جمادى الآخرة سنة 355هـ (955-956م)، واضطراب الأمن في ولايته، وانشغال العباسيين بمشاكلهم الداخلية، خاصة وأن قيام دولة معادية لهم مثل الحمدانيين في الشمال، والقرامطة في

691 - ابن عذارى: البيان المغرب، ج1، ص209.

العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي، ص248.

692 - العبادي: المرجع نفسه والصفحة ذاتها.

693 - ينظر: تاريخ الأندلس المسمى، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، المطبعة الجمالية، ط1، القاهرة، 1914، ص196.

الجنوب، حال دون وصول جيوشهم إلى مصر لصد الخطر الشيعي كما كانوا يفعلون في السابق[694]. وفي هذه الأثناء كان جوهر قد خرج على رأس حملة إلى المغرب. ولما عاد في أواخر محرم سنة 358هـ (969م) ومعه الرجال والأموال أمره المعز بالخروج إلى مصر[695]. ويمكننا أن نشير هنا إلى أن عاملا مهما شجع الخليفة الفاطمي على إنفاذ هذا الجيش، وهو أن جماعة من مصر كتبت إلى المعز تستدعيه وتطلب منه التعجيل في إرسال العساكر إليهم[696]. ولاشك أن هذه الجماعة هي من بعثهم المعز إلى مصر لتحسس الأخبار ونشر الدعوة الشيعية وإطلاعه عن الأوضاع هناك.

حشد المعز الجيوش وجمع الأموال اللازمة، فأنفق في العسكر الخارج مع جوهر أموالا كثيرة، وغمرهم بالعطاء لشراء جميع ما يحتاجونه ورحلوا ومعهم ألف حمل من المال والسلاح[697]. وخرج الجيش من القيروان في 14 ربيع الأول سنة 358هـ (5 فبراير 969م) تصحبه بعض القطع البحرية من المهدية. وأمر المعز أولاده واخوته الأمراء وسائر رجال الدولة أن يترجلوا مشاة في أثناء تشييع جوهر وهو راكب إجلالا وتقديرا له. وأرسل لسائر عماله يأمرهم أن يترجلوا مشاة حين مروره. ولما وصل برقة أنف «أفلح بن ناشب الكتامي» - عامله عليها - من الترجل فأعطى لجوهر خمسين ألف دينار ذهبا مقابل إعفائه، ولكن جوهر ردها إليه وفرض عليه الترجل كسائر العمال والقواد[698].

وكان المعز واثقا من أن هذا الجيش سيحقق له الحلم الذي ظل يراوده ويراود جده عبيد الله. ولذلك قال المشائخ المتوجهين مع جوهر: «والله لو خرج جوهر هذا وحده لفتح مصر، ولتدخلن مصر بالأردية من غير حرب»[699]. وبعد مسير خمسة أشهر دخل جوهر مصر يوم الثلاثاء 17 من شعبان سنة 358هـ. ولم يعان كثيرا في فتحها إذ كانت الظروف مواتية. وتمكن من القضاء على المقاومة الإخشيدية بسهولة خاصة وأن أغلب أعيان الإخشيد كانوا قد فروا من مصر إلى الشام قبل وصول جوهر[700]. ضف إلى ذلك

694 - حسن إبراهيم حسن: تاريخ جوهر الصقلي قائد المعز لدين الله، مطبعة السعادة، ط2، القاهرة، 1963، ص23-24؛ العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي، ص248-249؛ الزاوي: تاريخ الفتح العربي، ص253؛ بن عميرة: دور زناتة، ص238.

695 - ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، (د.ت)، مج5، ص266؛ حسن إبراهيم حسن: المرجع نفسه، ص29.

696 - ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج4، ص24.

697 - ابن خلكان: المصدر السابق، مج5، ص226؛ حسن إبراهيم حسن، تاريخ جوهر الصقلي، ص29.

698 - ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج4، ص28-29؛ ابن الضياف: أتحاف أهل الزمان، ج1، ص160؛ الزاوي:تاريخ الفتح العربي، ص254.

699 - ابن أبي الضياف: المصدر نفسه والجزء ذاته، ص160.

700 - الصنهاجي: أخبار ملوك بني عبيد، ص50؛ العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي، ص250.

أنه في هذه السنة انتشر الوباء فقضى على حياة الآلاف من الناس، وحدث غلاء عظيم بالبلاد[701].

وأرسل جوهر إلى مولاه يبشره بالفتح ودخوله إلى الديار المصرية ويحثه على المسير إليه، ثم سير إليه من يخبره بانتظام الأمور في مصر والشام والحجاز، وإقامة الدعوة له في هذه البقاع فسر المعز بذلك[702]. ولم يبق للمعز إذن إلا الرحيل فخرج في 22 شوال سنة 361هـ (971م) من المنصورية إلى سردانية، وأقام بها لكي يلتحق بها رجاله وعماله وأهل بيته، وكل ما كان له في قصره من أموال وأمتعة وغير ذلك[703].

وقبل أن يرتحل إلى مصر نظر فيمن يوليه أمر أفريقية والمغرب ممن له مقدرة في الرئاسة وصدق في التشيع، فوقع اختياره على بلكين بن زيري بن مناد. ويمكننا أن نشير هنا إلى أن المعز استقدم في البداية جعفر بن علي بن حمدون وعرض عليه أن يكون نائبه في هذه البلاد، ولكن هذا الأخير اشترط شروطا تجعله شبه مستقل عن مصر، إذ قال له: «أترك معي أحد أولادك أو اخوتك يجلس في القصر، وأنا أدبر ولا تسأل عن شيء من الأموال، لأن ما أجبيه يكون بازاء ما أنفقه، وإذا أردت أمرا فعلته دون انتظار ورود أمرك فيه، لبعد ما بين مصر والمغرب، ويكون تقليد القضاء والخراج وغيره إلي»[704] فقوبلت شروطه هذه بالرفض وغضب المعز لذلك حتى إنه قال له: «يا جعفر عزلتني عن ملكي وأردت أن تجعل لي فيه شريكا في أمري، واستبددت بالأعمال والأموال دوني، قم فقد أخطأت حظك»[705].

ورست في الأخير نيابة الفاطميين في بلاد المغرب على بلكين بن زيري، وكان حينئذ متوغلا في المغرب منشغلا بإخماد الاضطرابات، وتمكن المعز من إقناع بلكين بعد تردده، وقلص من اختصاصاته، فلم يجعل له الحكم على صقلية، وطرابلس، وأجدابية، وسرت. فقد عين على صقلية حسن بن علي بن أبي الحسين الكلبي، وعلى طرابلس عبد الله

701 - ابن خلكان: وفيات الأعيان، مج5، ص226.

702 - المصدر نفسه والمجلد والصفحة ذاتهما.

703 - ابن أبي دينار: المؤنس، ص65؛ النويري: نهاية الإرب، ج24، ص155؛ ابن خلكان: المصدر نفسه والمجلد ذاته، ص227؛ القرشي: تاريخ الخلفاء الفاطميين، ص717؛ الوزير السراج: الحلل السندسية، ج1، ص916؛ صالح مصطفى: ليبيا منذ الفتح، ص159؛ الزاوي: تاريخ الفتح العربي، ص256؛ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، ج3، ص150.

704 - ابن أبي الضياف: إتحاف أهل الزمان، ج1، ص162؛ العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي، ص315.

705 - المصدر نفسه والجزء والصفحة ذاتهما؛ المرجع نفسه والصفحة ذاتها؛ إبراهيم أحمد العدوي: بلاد الجزائر (تكوينها الإسلامي والعربي)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1970، ص267.

بن يخلف الكتامي[706]. وجعل على جباية أموال إفريقية زيادة الله بالانقياد لبلكين[707]. ونلاحظ أن المعز عينه واليا للحرب فقط، إذ جرده من ولاية القضاء، وجباية الضرائب، وأوصاه بأن لا يرفع السيف عن البربر، والجباية عن أهل البادية، ولا يولي أحد من أهله. وعهد إليه غزو المغرب وإخضاعه واستئصال النفوذ الأموي فيه[708].

وفي يوم الأربعاء العاشر من ربيع الأول سنة 362هـ (972م) خرج المعز من قابس - بعد أن ودعه بلكين في نواحي صفاقس - في طريقه إلى مصر، فدخل طرابلس يوم الأربعاء 24 من الشهر المذكور، وفي أثناء مسيره من طرابلس إلى برقة فرت جماعة من الإباضية لتلتحق بإخوانها من أهل الدعوة في الجبل، وقد طاردهم المعز لكنه لم يتمكن من إعادتهم إلى جنده[709]، بينما ارتحل أبو خزر - أحد علماء المذهب البارزين - رفقة المعز رغم استياء إخوانه من قبيلة «لماية»، في حين تمارض أبو نوح حتى لا يفارق أهل مذهبه. وكان المعز يهدف من وراء استصحابهما معه إلى مصر للحيلولة دون خروجهما مرة أخرى على نوابه في بلاد المغرب[710]. ووصل المعز إلى مصر يوم السبت الثاني من رمضان سنة 362هـ (972م).

ويستشف مما سبق ذكره أن خلافا حدث بين أبي خزر وأبي نوح فيما يخص تأييد أو مواصلة معارضة الفاطميين. ويبدو أن الإباضية الذين التحقوا بالجبل كانوا عرضة للضغوط التي مارسها عليهم الشيوخ المناوئون لتطبيع العلاقات مع الفاطميين.

2 - علاقات إباضية الجبل ببني زيري:

أ - قيام الإمارة الزيرية:

ظل بنو زيري يحكمون إفريقية باسم الفاطميين. وكان أول عمل قام به بلكين هو غزو المغرب الأقصى - كما أوصاه المعز لدين الله - للقضاء على النفوذ الأموي فيه، وإعادة السكينة والاستقرار إلى بلاد المغرب، خاصة وأن توليته الإمارة قد أثارت حفيظة

706- ابن خلدون: العبر، مج6، ص318؛ النويري: نهاية الإرب، ج24، ص169؛ Farhat Dachraoui: Le Califat Fatimide, p274.

707 - ابن الأثير: الكامل، مج6، ص620-621.

708 - ابن خلدون: المصدر السابق، مج6، ص318؛ النويري: المصدر السابق، ج24، ص170؛ الوزير السراج: الحلل السندسية، ج1، ص937؛ محمد جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، دار الفكر العربي، القاهرة، 1976، ص225؛ محمد حمدي المناوي: الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، دار المعارف، (د.ت)، القاهرة، 1970، ص188؛ بن عميرة: دور زناتة، ص239-240.

709 - الباروني: مختصر تاريخ الإباضية، ص50؛ صالح مصطفى: ليبيا منذ الفتح، ص159.

710 - الدرجيني: طبقات المشائخ، ج1، ص138.

منافسه جعفر بن علي بن حمدون أمير الزاب، حيث شق عصا الطاعة للفاطميين، والتحق بالأمويين في الاندلس طالبا اللجوء في بلاط الخليفة المستنصر (350-366هـ) (961-976م)، كما خرجت عليه قبيلة زناتة، وثار عليه سكان تاهرت[711].

ولما توفى أبو الفتوح سنة 373هـ (1080م) في طريق عودته إلى إفريقية بين سجلماسة وتلمسان خلفه ابنه أبو الفتح المنصور بن بلكين في أوائل سنة 374هـ (1081م). وجاءه التقليد من الخليفة الفاطمي العزيز بالله (365-386هـ) (975-996م). فواصل سياسة أبيه فى محاربة زناتة المغرب الأقصى، واستمالة بعض بطونهم لتفتيت صفوفهم. وقد انضم فعلا فريق منهم إلى المنصور بن بلكين، ومنهم سعيد بن خزرون الذي وفد إليه سنة 379هـ (1086م)، فولاه على مدينة طنجة، وتزوج ابنه وروا من ابنة أبي الفتوح. وفي عهد المنصور بدأت الخلافات تتوتر بين الإمارة والفاطميين فى مصر، حيث برزت نزعة الاستقلالية إلى السطح، فعندما تسلم المنصور كتاب الولاية قال للذين جاءوا لتهنئته بأشير عندما كان واليا عليها: «إن أبي وجدي أخذا الناس بالسيف قهرا، وأنا لا آخذهم إلا بالإحسان، وما أنا في هذا الملك ممن يولى بكتاب ويعزل بكتاب لأني ورثته عن آبائي وأجدادي، وورثوه عن آبائهم وأجدادهم حمير»[712].

ويتضح من كلام المنصور أنه كان يميل إلى الاستقلال عن مصر، وأن الخليفة الفاطمي لا يحق له عزله. فهو ليس ممن يولى بكتاب ويعزل بجرة قلم. وقد أحس العزيز باشتداد بأسه وقوته فبدأ يخطط ويعمل على إضعافه وزعزعة استقرار إمارته ببث الفوضى والعصيان بين القبائل خاصة كتامة التي ظلت وفية للدعوة الفاطمية. وأرسل العزيز داعية إلى قبيلة كتامة يدعى «أبو الفهم» واسمه «حسن بن نصر» يدعوهم إلى طاعته والوقوف إلى جانبه لحمايته إن حدث له مكروه. وكان الهدف من ذلك هو استمالة كتامة ليتمكن من محاربة المنصور وبالتالي استخلاص إفريقية منه، وقد وصل هذا الداعية إلى كتامة، وتمكن من تحقيق نجاح معتبر حيث كثر أتباعه واشتد بأسه وعظمت شوكته. وقد أزعج هذا التصرف المنصور، فأرسل إلى العزيز يخبره بأمر هذا الداعية، فكان رده أن أوفد إليه رسولين يحملان رسالة منه يمنعه فيها من التعرض لأبي الفهم وكتامة

711 - السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، ص556.

712 - ابن عذارى: البيان المغرب، ج1، ص240؛ النويري: نهاية الإرب، ج24، ص177-178؛ ابن الأثير: الكامل، مج9، ص34؛ جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص225؛ العبادي: في التاريخ العباسي، ص317؛ إسماعيل العربي: دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية (ش و ن ت)، الجزائر، 1980، ص75-76.

George Marcais: La Berberie Musulmane et l>orient au moyen age Imprimerie Typolithom Edition 160-Montaigne, Alger 1946, p159.

وأمره أن يتركه وشأنه[713]. وقد استقبلهما المنصور استقبالا فاترا أغلظ فيه الكلام لهما وللعزيز. ثم جهز جيشا واتجه به إلى بلاد كتامة للقضاء على هذا الداعية قبل أن يتفاقم خطره، وتمكن من إلحاق الهزيمة بأتباعه، في حين فر هو لائذا بجبل صعب المسالك يقع في منازل كتامة، ونزل عند أناس يقال لهم «بنو إبراهيم» وبعد تهديد هؤلاء بالقتال أرسل المنصور سرية فأمسكت بأبي الفهم وعذبته ثم قتل في الأخير. كما قتل المنصور جماعة من الدعاة ووجوه كتامة. وعاد الرسولان إلى العزيز وأخبراه بفشل المحاولة[714].

وعقب هذا الإخفاق اتبع العزيز سياسة اللين والمهادنة، وآثر سياسة التودد والملاطفة مع المنصور، فأرسل إليه هدية ثمينة مرفقة برسالة مودة، دون أن ترد فيها أدنى إشارة عن أبي الفهم رغم أن العزيز لم يهضم تلك الهزيمة التي منيت بها كتامة، حيث كرر المحاولة مرة أخرى فأثار كتامة من جديد سنة 379هـ (1086م) بقيادة رجل يسمى «أبو الفرج الخراساني» فقد اتخذ هذا الأخير البنود وضرب السكة، وتمكن المنصور في النهاية وبعد قتال شديد من التخلص منه هو الآخر[715].

وفي عهد باديس بن أبي الفتوح المنصور (386-406هـ) (996-1015م)[716] استمرت العلاقات الودية بين الفاطميين وبين بني زيري، رغم ما تخفيه هذه العلاقات من خلافات بين الحاكم وباديس. وعكف الحاكم بأمر الله (386-411هـ) (996-1020م) على تدبير المؤامرات استمرار السياسة سابقيه. وكان مركز الصراع هذه المرة إقليم طرابلس حيث أمر الحاكم بأمر الله يانس العزيزي - واليه على برقة - بالاتجاه إلى طرابلس والاستيلاء عليها وكان ذلك سنة 390هـ (999م). وبما أن طرابلس أصبحت تابعة للإمارة اعتبر باديس ذلك اعتداء سافرا على سلطته، ولذلك لم يتوان في قتال يانس والنيل منه. فقد أنفذ له جيشا يقوده جعفر بن حبيب ليصده عن المدينة، تمكن في آخر المطاف من قتله. والتحق بطرابلس قائد من قواده يدعى فتوح بن علي فحاصره جعفر مدة زمنية. وبينما هو كذلك إذ وصله كتاب من عامل قابس يوسف بن عامر يخبره أن فلفل بن سعيد

713 - ابن الأثير: المصدر نفسه والمجلد ذاته، ص53؛ جمال الدين سرور: المرجع نفسه، ص225-226.
G. Marcais: Ibid, 160.

714 - ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص241-243-244؛ العبادي: المرجع السابق، ص318؛ G. Marcais: Ibid, 161.

715 - ابن الأثير: المصدر السابق، ص67؛ العبادي: المرجع السابق، ص318-319؛ إسماعيل العربي: دولة بني حماد، ص84-85.
G. Marcais: Ibid, 161.

716 - هو أبو مناد باديس بن المنصور بن بلكين بن زيري بن مناد والد المعز بن باديس كانت ولايته بعد أبيه المنصور المتوفى سنة 386هـ. ينظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، مج1، ص265.

وصل قابس في طريقه إلى طرابلس فتنحى جعفر عن المدينة إلى ناحية الجبل - ربما جبل نفوسة - ولما حل فلفل بمكانه وضاقت الحال بجعفر وجنده ارتحل إلى قابس تاركا فلفل (فلفول) يدخل المدينة خاصة وأنه استقبل من أهلها استقبالا حارا وفتحت له الأبواب[717].

وفي هذه الأثناء سير الحاكم جيشا آخر يقوده يحي بن علي بن حمدون الذي لجأ إلى مصر بعد مقتل أبيه جعفر. وبعد انضمامه إلى عسكر فلفل بن سعيد تراجع في الأخير خشية الاصطدام مع باديس خاصة وأن حاله قد اختل، ففضل العودة أدراجه إلى مصر بدل المواجهة[718].

وبعد فشل هذه المحاولة لجأ الحاكم بأمر الله إلى حث قبيلة زناتة على الاستيلاء على مدينة طرابلس، ونجح في ذلك إذ تمكن فلفل - زعيم زناتة - من السيطرة عليها. أما عن القطيعة الحقيقية عن الخلافة الفاطمية فتبدأ منذ تولي المعز بن باديس الإمارة سنة 406هـ (1015م)، ذلك أن هذا الأخير انحرف عن المذهب الشيعي وأخذ بالمذهب السني، وحمل أهل المغرب على التمسك بمذهب الإمام مالك. ورغم انحرافه عنه علنية فإن الخليفة الحاكم بأمر الله لم يبد اعتراضه على سياسته المذهبية بل عمل على ملاطفته واستمالته بأن أضاف إليه لقبا آخر وهو «شرف الدولة» في رسالة بعثها إليه سنة (407هـ/1016م)، كما بعث إليه هدايا مع رسول أوفده إليه سنة 411هـ (1020م). وقد اتبع السياسة نفسها خليفته من بعده ابنه الظاهر للإعزاز دين الله (411-427هـ) (1020-1035م) حيث أضاف إليه لقبا آخر سنة 414هـ (1023م) وأصبح يدعى «شرف الدولة وعضدها». ورغم هذه الألقاب التشريفية إلا أن العلاقات الودية لم تعمر طويلا إذ أعلن المعز بن باديس سنة 440هـ (1048م) في خلافة المستنصر بالله (427-487هـ) (1035-1094م) خروجه عن الطاعة فأمر بحذف اسم الخليفة من الخطبة والسكة والطرز، وأعلن ولاءه للخليفة العباسي القائم بأمر الله (422-467هـ) (1030-1074م). كما أمر بلبس السواد شعار العباسيين واستقل بنو زيري نهائيا عن الخلافة في مصر، وانقطعت بذلك الدعوة الفاطمية في بلاد المغرب[719].

717 -ابن خلدون: العبر، مج7، ص85.

718-ابن الأثير: الكامل، مج9، ص154؛ ابن عذارى: البيان المغرب، ج1، ص256؛ جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص226-227؛ الزاوي: تاريخ الفتح العربي، ص265-266؛ العبادي: في التاريخ العباسي، ص319-320.

719 - ابن خلدون: المصدر السابق، مج6، ص325؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص50؛ الداوداري: كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق صلاح الدين المنجد، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1961، ج6، ص331؛ النويري: نهاية الإرب، ج24، ص209؛ ابن أبي الضياف: إتحاف أهل الزمان، ج1، ص172؛ الزهري: كتاب الجغرافية، تحقيق: محمد حاج صادق، المركز الإسلامي للطباعة، القاهرة (د.ت)، ص109-111؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ

ب - النفوسيون وبني زيري:

تأرجحت العلاقات النفوسية - الزيرية بين العداء تارة وبين المسالمة تارة أخرى. ويمكن لنا أن نقسم هذه العلاقات إلى مرحلتين أساسيتين: مرحلة تميزت بالتسامح المذهبي، ومرحلة اتسمت بالعداء والقتال ومضايقة أهل المذهب. ليس في الجبل فقط بل في إفريقية والمغرب الأوسط كذلك، خاصة بعد أن تم القضاء على أتباع المذهب الشيعي، وأضحى المذهب المالكي هو المذهب الرسمي - إن صح التعبير - ويمكن أن نحدد بداية المرحلة الأولى بأواخر خلافة المعز لدين الله الفاطمي في بلاد المغرب وتنتهي في أوائل القرن الخامس الهجري (11م). ففي هذه المرحلة كانت العلاقات حسنة بين الطرفين حيث كان أمراء بني زيري - ومن قبلهم المعز لدين الله - يفتحون أبواب قصورهم لعلماء ومشائخ الإباضية لحضور المجالس العلمية، ومناظرة خصومهم أتباع المذاهب والفرق الأخرى. فالمصادر تذكر أن أبا نوح - وهو أحد مفجري ثورة الوهبية في خلافة المعز - كان مقربا وذا حظوة لدى المنصور الصنهاجي، وكان أبو نوح يسافر إليه إلى القيروان فيكرم مثواه، ويفضله على العديد من مجالسيه، ويمكنه من الرد على أصحاب الفرق. وكان المنصور يجيزه ويغدق عليه الأموال. رغم أن أبا نوح كان يرتاب من هذه الزيارات، حتى إنه استشار في إحداها مقدم بني درجين. يقول الدرجيني: «لما جاءه الرسول بهذا الخبر - أي خبر استدعاء المنصور له - قلق أبو نوح وتجددت عقابيل الخوف... فاستشار وحنين (وحنين بن وريغول) في المسير إليه، وهل هناك أمر يخافه عليه... فقال له وحنين: إن طاب على نفسك المسير فسر فإني لا أخاف عليك، وإن كرهت المسير فأقم وأنا أمنعك وأخالف عليه من أجلك»[720].

وسافر أبو نوح إلى القيروان فأحسن المنصور إليه وطمأنه بكلام ليزيل خوفه يقوله: «اعلم يا شيخ بأن رمحي وهبي وسيفي وهبي»[721]. كما كان مقدم بني درجين في بلاد الجريد مقربا من المنصور، كثير الوفادة عليه، وذا مكانة مرموقة عنده[722]. كما كان الإباضية يقدمون الهدايا لأمراء بني زيري رغبة في التقرب منهم واتقاء لشرهم وغضبهم، منها

المغرب في العصر الإسلامي، ص573؛ جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص227-228؛ حسن أحمد محمود: محنة الشيعة في إفريقية في القرن الخامس الهجري، مجلة كلية الآداب، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة، 1950، مج12، ج2، ص93-94؛ محمد ولد دادة: مفهوم الملك، ص89؛ George Marcais: La Berberie Musulmane, p166-168.

720 - ينظر: طبقات المشائخ، ج1، ص146-147.

721 - المصدر نفسه والجزء ذاته، ص147.

722- أبو زكريا: كتاب السيرة، ص223؛ الشماخي: السير، ص358.

الهدية التي قدمها رجل يقال له «أبو باديس» والمتمثلة في فرس ومهر[723]. وحتى في عهد المعز بن باديس (406-454هـ) (1015-1062م) كانت العلاقات طيبة بينهما. فقد ذكر الوسياني أن أم ماكسن بن الخير[724] كانت تربطها علاقات حسنة بأم سوسو «زوجة المعز بن باديس»[725].

وفي المقابل أهدى المعز بن باديس سيفا لمشائخ الجبل رغم أن هذه الهدية اختلف في قبولها أو رفضها[726]. وهناك من الإباضية من تولى مناصب في دولة بني زيري، ومنهم من كان قائدا في الجيش، فقد ذكر الوسياني أن رجلا يدعى «إبراهيم بن ونمو» كان قائدا من قواد المعز بن باديس وهو إباضي من مزاتة القيروان[727].

وهناك من الإباضية من كان يرفض التعامل مع صنهاجة اتقاء شرهم. فإذا كان أبو صالح بكر بن قاسم - وهو أحد العلماء المشهورين - شديدا على العصاة، إلا أنه كان لا يضرب اللصوص من صنهاجة متى أمسك بهم تقية لا مهادنة[728]. ومنهم من كان لا يتعامل تجاريا معهم «لتجبرهم وغصبهم للناس أموالهم»[729] فقد روي أن رجلا يقال له عبد السلام اشترى خرفانا من إفريقية، فلما علم أن بائعها صنهاجي تصدق بها[730].

أما المرحلة الثانية فقد اتسمت بالعداء، وقد تأثر الجبل كثيرا بالصراع الذي احتدم بين الفاطميين وبين بني زيري من جهة، وبين بنى زيري وزناتة طرابلس من جهة أخرى. ورغم أن النفوسيين لم يكونوا طرفا في هذا النزاع، إلا أن آثاره قد امتدت إلى الجبل فوجدوا أنفسهم مضطرين للدفاع عن أنفسهم ضد أي عدوان ومن أي طرف. ولعل الشرارة الأولى التي أدت إلى تدهور العلاقات - دفاعا عن النفس والأرض - هو - كما ذكرنا - التنافس على إدارة إقليم طرابلس، فقد شهد هذا الإقليم أحداثا كثيرة غذاها الفاطميون في

723 - الوسياني: السير، ج1، و45-46؛ الشماخي: المصدر نفسه، ص383-384؛ معمر: الإباضية في الجزائر، ص156؛ محمد بن يوسف أطفيش: رسالة إن لم تعرف الإباضية يا عقبي يا جزائري، طبعة حجرية، القاهرة، 1323هـ، ص59.

724 - هو أبو محمد ماكسن بن الخير أحد علماء الإباضية المشهورين توفي سنة 401هـ. ينظر: الدرجيني: طبقات المشائخ، ج2، ص430.

725- ينظر: المصدر السابق، ج2، و35.

726 - قال بعضهم: «ردوه أولى بالريبة من وحل فيها»، وقال بعضهم: لا تفعلوا فإن ذلك عون له على باطله وجوره، وقال آخرون: أكسروه وأدفنوه، وقال آخرون: أمسكوه فإن عطايا الملوك جائزة لمن يأخذها عند جمهور الأمة لمن يدخل أمورهم الفاسدة. ينظر: الوسياني: المصدر نفسه والجزء ذاتها، و2-3-4.

727 - ينظر: المصدر نفسه والجزء ذاته، و18.

728 -نفسه، و14؛ الدرجيني: طبقات المشائخ، ج2، ص354.

729 -الشماخي: السير، ص400.

730 -أبو زكريا: كتاب السيرة، ص306-307؛ الدرجيني: المصدر السابق، ج2، ص408.

مصر بتقديم المال والسلاح لأعداء صنهاجة التقليديين من أجل إضعافها، والوقوف ضد أطماعها الانفصالية. فعند فشل حملة يحي بن علي بن حمدون وعودته إلى مصر تثور زناتة في إقليم طرابلس وتستولي على المدينة سنة 393هـ (1002م) بتشجيع من الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله. فقد استنجد بها وأطمعها في الاستقرار هناك لكي يشغلها للوقوف ضد أطماع بني زيري. وقد أدى إلى حدوث قلاقل واضطرابات، والعديد من المعارك الطاحنة التي راح ضحيتها خلق كثير من الزناتيين وامتدت هذه الاضطرابات إلى الجبل. ويبدو أن غارات كثيرة قامت بها زناتة ضد سكانه. وقد أشار الشماخي إلى ذلك - كما سبق الذكر - في حديثه عن ولاية أبي الفضل سهل على الجبل حيث عانى النفوسيون الكثير من هجومات المسودة (بنو زيري)، وزناتة، والعرب. وإذا كان الشماخي يذكر بأنه في زمن أبي الفضل سهل (ط 8)(350هـ-400-م) خرجت نفوسة لقتال زناتة، ونزلت موضع قرب طرابلس يسمى «الأبراج» وأن المعركة انتهت بهزيمة زناتة[731]. فإن الوسياني، والدرجيني يذكران أن موقعة الأبراج كانت بين زناتة وصنهاجة[732]. ويبدو أن هذا الموقع كان مركزا لإمارة زناتة، وهو مركز شبيه إلى حد كبير بالموضع المسمى «قيطون زناتة» الذي كان موطنا لبني خزرون[733].

أما أكبر هجوم تعرض له الجبل من لدن قبيلة زناتة طرابلس فقد حدث في زمن أبي الخطاب عبد السلام بن منصور بن أبي ورجون (ط8)(350-400هـ) ولم يتمكن النفوسيون من صده إلا بعد مدة طويلة[734].

ويبدو أن هذا الهجوم كان سببا في هجرة سكان «تاغرويت» إلى المغرب الأوسط[735]. ويعتقد ليفيسكي أن بني خزرون استولوا دون شك على جبل نفوسة، وأنه من خلال الحروب التي خاضتها زناتة ضد المعز بن باديس بين سنتي 430-440هـ (1038-1039م) و(1048-1049م) عانت نفوسة الويلات[736].

ومن المعروف أن إمارة زناتية تأسست في هذه المنطقة أسسها بنو خزرون بقيادة زعيمهم فلفل بن سعيد بن خزرون سنة 391هـ (1000م). وأعلن هذا الأخير الطاعة للحاكم بأمر الله الفاطمي في السنة نفسها. وقبل الحاكم طاعته، ولكنه لم يعينه

731 -ينظر: المصدر السابق، ص275.

732- ينظر: السير، ج2، و56؛ وينظر: المصدر السابق، ج1، ص169.

733 - T. Lewicki: Les hakims, p105.

734 - أبو زكريا: كتاب السيرة، ص304.

735 - الشماخي: السير، ص296.

736 - T. Lewicki: Les hakims, p105.

حاكما على طرابلس بل عين يحي بن حمدون الأندلسي. ولكن هذا الأخير لم يتولى المنصب، ذلك أن فلفل أعرض عن ذلك واستولى على العديد من خيله مما أجبره على العودة إلى مصر. واستقل فلفل بطرابلس سواء عن الفاطميين أو عن بني زيري. وبعث بطاعته إلى المهدي محمد بن هشام حاكم قرطبة، وتوفي فلفل قبل أن يصله الرد[737].

ولما توفي فلفل تولى أخوه «ورو» الولاية على طرابلس، وفي ولايته هاجمه باديس واضطر إلى التسليم بعد أن خذله جنده وانضموا إلى جيش باديس. وطلبت زناتة الأمان فأمنهم بشرط أن يغادروا طرابلس. وأقطعهم إقليم نفزاوة وقسطيلية[738].

وقبل أن يغادر باديس المنطقة عين عاملا على طرابلس يدعى «محمد بن حسن»، ولم يستقر هذا الأخير طويلا في منصبه، إذ جمع ورو زناتة وهاجمه مرتين بعد أن انضم إليه أخوه خزرون. ويبدو أنه فشل في الاستيلاء عليها لما أبداه عاملها من بلاء حسن في الدفاع عنها، إذ اضطر إلى تقديم الطاعة مرة أخرى إلى باديس. ولما توفي ورو في شوال سنة 405هـ (1015م) حدث نزاع وصراع على الزعامة بين ابنه «خليفة» وأخيه «خزرون»، مما تسبب في انقسام زناتة إلى فريقين. انضم القسم الأكبر إلى خليفة وحارب هذا الأخير عمه خزرون حتى تغلب عليه وبعث بطاعته إلى باديس معاهدا إياه على المحافظة على الأمن وعلى عهده بطرابلس فقبل ذلك[739].

وهكذا نلاحظ أن إقليم طرابلس لم يعرف الاستقرار طيلة حكم بني زيري. ولا ندري بالتدقيق هل حافظ الجبل على استقلاليته أم أصبح تابعا لإمارة بني زيري أو لبني خزرون ؟ فإذا عدنا إلى المصادر الإباضية فإنها تتحدث عن شيوخ تولوا الرئاسة في الجبل في هذه الفترة، وفي المقابل نلاحظ بأن هؤلاء كانوا يجمعون الضرائب ويقدمونها لبني زيري. وهذا يعني ولو نسبيا أن سكان الجبل دخلوا في الطاعة. ولعل تأسيس نظام العزابة في هذا الوقت يرجع إلى هذه الظروف المستجدة التي تستدعي التستر والتكتم. وقد ذكرت المصادر أن جابيا من القيروان قدم إلى الجبل وطلب من سكانه مبلغ ألف دينار، وقد تولى أبو زكريا بن أبي عبد الله التندميرتي جمع هذا المبلغ[740]. وكما سبق الذكر فإن أبا زكريا هذا دامت رئاسته إلى غاية سنة 418هـ (1027-1028م) أو 428هـ (1036-

737 - ابن خلدون: العبر، مج7، ص85-86؛ ابن عذارى: البيان المغرب، ج1، ص256؛ الزاوي: تاريخ الفتح العربي، ص270-271.

738- ابن خلدون: المصدر نفسه والمجلد ذاته، ص86؛ ابن عذارى: المصدر نفسه والجزء ذاته، ص258؛ الزاوي: المرجع نفسه، ص274-276.

739 - ابن خلدون: المصدر نفسه والمجلد ذاته، ص87.

740 - البغطوري: سير نفوسة، و31؛ الشماخي: السير، ص320.

1037م). وإبان رئاسته أرسل أمراء إفريقية إلى نفوسة يأمرونهم بالدخول في الطاعة والاعتراف بهم، فرفض أبو زكريا ما جعل الزيريين يجهزون حملة عسكرية على الجبل، ويحاصرونه مدة اثني عشر سنة. ومن النتائج التي تمخضت عنها هذه الحملة أن سكان الجبل أصبحوا يدفعون الضرائب[741]. وظل النفوسيون يجمعون المال ليداروا به عن الجبل ويكلفون أحدهم بحمله إلى الجابي المعين في هذه الجهة مثلما حدث مع أبي يعقوب مقدم «تغرمين»[742].

واتخذت العلاقات النفوسية - الزيرية منعرجا خطيرا في عهد المعز بن باديس (406-454هـ) (1015-1062م)، ويبدو أنه عندما تخلص هذا الأخير من المذهب الشيعي وأتباعه وجه اهتمامه إلى الإباضية. وأصبح سكان نفوسة يتلقون التهديدات من القيروان[743] ربما لخروجهم عن الطاعة، أو رفضهم لتسديد الضرائب. ولذلك شنوا عليهم حملات عسكرية فقد حاصر أمير من بني زيري - لا تذكر المصادر اسمه - الجبل وخندق على نفسه وتحصن. ولما لم يبق له إلا عمل يوم واحد قام أحد الإباضية ممن كانوا ضمن جيش المعز بن باديس وأخبر إخوانه بالجبل بالثغرة الموجودة بالخندق فقام رجال نفوسة بالهجوم ليلا فقتلوا جند المعز قتلا ذريعا، وجمعوا أموالهم وأحرقوها، وعقروا الدواب حتى ماتت، وأضرموا فيها النيران حتى إن لهيبها رآه سكان قابس[744].

وفي زمن أبي عمرو ميمون بن محمد الشروسي (ط8)(350-400هـ)، أغارت صنهاجة على الجبل، ولا نعرف الكثير عن نتائج هذه الغارة، لأن المصادر تذكر أن أعضاء هذه الحملة انصرفوا عندما علموا أن أخبارهم سبقتهم إلى رئيس أهل المذهب أبي عمرو ميمون[745].

كما أغارت صنهاجة على قرية «تغرمين» في زمن أبي عبد الله بن أبي محمد عبيدة بن زارود (زارور) التغرميني. هذه الغارة التي فقد فيها اثنين من أبنائه، وتعد هذه الحملة العسكرية حلقة أخرى من الحرب التي دامت قرابة اثني عشر سنة بين النفوسيين والزيريين، والتي ابتدأت منذ سنة 406هـ (1015-1016م)[746].

741 - T. Lewicki: Les hakims, p103-104.

742 - الشماخي: المصدر السابق، ص253؛ T. Lewicki: Ibid, p114.

743 - « كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ « (الآية) فأجابهم أبو عبد اللّٰه محمد بن جنون الشروسي بكتاب تضمن قوله تعالى: «أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ» (الآية). ينظر: الشماخي: المصدر نفسه، ص323-324؛ البغطوري: سير نفوسة، و42.

744 - الوسياني: السير، ج2، و12.

745 - الشماخي: المصدر السابق، ص274؛ معمر: الإباضية في ليبيا، ص166.

746 -المصدر نفسه، ص252.

ونشير في هذا المضمار إلى أن إباضية جبل نفوسة لم يكونوا الوحيدين الذين استهدفهم بطش بني زيري، بل تعرض إباضية إفريقية للمعاملة نفسها[747]. ولذلك نلاحظ ان أعدادا كبيرة من الأسر الإباضية انتقلت من إفريقية إلى المغرب الأوسط، خاصة وأنه في هذه الفترة قد شرع إخوانهم في هذه المنطقة في تأسيس المدن في وادي ميزاب. فمن الوافدين على مدينة «أسوف» بالمغرب الأوسط مزاتة قلعة درجين ببلاد الجريد بعد تخريبها من قبل عساكر صنهاجة سنة 440هـ (1048م)[748]. كما انتقلت مزاتة إفريقية إلى نواحي طرابلس بسبب الزلازل التي ضربت المنطقة ويبدو أن هذه الزلازل قد حدثت في عام الأبراج[749]. وقد تحدث ابن عذارى عن هذه الزلازل في أحداث سنة 395هـ (1004م) حين قال: «كانت بإفريقية شدة عظيمة انكشف فيها المستور، وهلك فيها الفقير، وذهب مال الغني، وغلت الأسعار، وعدمت الأقوات، وجلى أهل البادية عن أوطانهم، وخلت أكثر المنازل. فلم يبق لها وارث ومع هذه الشدة وباء وطاعون هلك فيه أكثر الناس من غني ومحتاج»[750].

ومهما يكن من أمر فقد مر سكان الجبل بظروف صعبة عانوا فيها الكثير، مما دعاهم إلى التفكير في وضع استراتيجية جديدة تحمي مذهبهم فكان ميلاد نظام العزابة الذي أسسه أبو عبد الله محمد بن أبي بكر النفوسي مع بداية القرن الخامس الهجري (11م)، كما أن هذه الظروف المستجدة وما تبعها من عدم استقرار إفريقية والمغرب الأوسط هي نتيجة كثرة الحروب بين زناتة وصنهاجة، وبين بني زيري وبني عمومتهم الحماديين. بالإضافة إلى هجرة بني هلال إلى المغرب وما نجم عنها من تخريب ونهب وانقطاع السبل. وإذا كانت المصادر الإباضية قد تناولت علاقات النفوسيين، فإنها لم تعطنا معلومات وافية عن علاقاتهم ببني خزرون أو ببني حماد.

3 - استراتيجية جديدة للفاطميين:

تتفق المصادر على أن قطع الخطبة الفاطمية في بلاد المغرب من قبل المعز بن باديس، والدعوة للخليفة العباسي القائم بأمر الله (422-467هـ) (1030-1074م) ولبس السواد شعار العباسيين كان السبب المباشر في إرسال بني هلال إلى بلاد المغرب. ونلاحظ

747 -تذكر المصادر أن قوات المعز هاجمت جزيرة جربة وقتلت العديد من الشيوخ منهم: أبو عمرو النميلي وأبو محمد كموس وغيرهم، وفرضت عليهم الضرائب الباهضة. للمزيد من التفاصيل ينظر: الشماخي: المصدر نفسه، ص336-337-400؛ باجية: الإباضية بالجريد، ص147؛ معمر: المرجع السابق، ص207-209.

748-الدرجيني: طبقات المشائخ، ج2، ص407.

749 -المصدر نفسه والجزء ذاته، ص368.

750 -ينظر: البيان المغرب، ج1، ص256-257.

أن الفاطميين سلكوا استراتيجية جديدة في التعامل مع بلاد المغرب، والمتمثلة في التخلص من شغب الهلاليين في صعيد مصر، وفي الوقت نفسه الانتقام من بني زيري. فلما بلغ الخبر الخليفة المستنصر بالله الفاطمي قامت قيامته، وأرسل إلى المعز يرغبه ويرهبه ويتوعده بإرسال الجيوش إليه. ولكن هذا الأخير كتب إليه كتابا عنيفا قائلا له: «إن آبائي وأجدادي كانوا ملوك المغرب قبل أن تملكه أسلافك ولهم عليهم من الخدم أعظم من التقديم، ولو أخروهم لتقدموا بأسيافهم»[751]. حينئذ استشار المستنصر وزيره أبا محمد الحسن بن اليازوري فأشار عليه بإرسال بني سليم وبني هلال إلى إفريقية وتوليتهم أعمالها وبذلك تحقق هدفان أساسيان: أولهما التخلص منهم إذ كانوا يغيرون على الأراضي في صعيد مصر ويفسدون فيها، وثانيهما الانتقام من صنهاجة خاصة وأن الدولة كانت عاجزة عن اتخاذ أي إجراء آخر ضده. ويبدو أن أسبابا أخرى كان لها باع طويل في بلورة هذه الفكرة وتنفيذها ميدانيا وهي أن العلاقات كانت متوترة بين اليازوري والمعز.

ومن المعروف أن اليازوري لم يكن من أهل الوزارة ولا من الكتاب، وإنما كان من أهل الزراعة والفلاحة حين كان بالشام. وجرت العادة أن أمراء الأمصار كانوا يخاطبونه في رسائلهم على عادة الوزراء إلا المعز فإنه رفض ذلك. وكان يكاتبه بصنيعته مما أغضبه. وللنيل منه أقنع الخليفة بالفكرة حتى إن هذا الأخير أرسله إلى أحيائهم لإقناعهم وإغرائهم بالسير إلى إفريقية بأن وعدهم بتقديم المال والمدد والسلاح. وأعطى لكل فرد منهم دينارا وبعيرا، وأخبرهم بأن الخليفة المستنصر قد أقطعهم إفريقية. وهكذا انطلقت اول موجة هلالية إلى بلاد المغرب، وكان ذلك سنة 442هـ (1050م)[752] وأنفذ اليازوري كتابا إلى المعز يقول فيه: «أما بعد فقد أنفذنا إليكم خيولا، فحولا، وأرسلنا عليها رجالا، كهولا، ليقضي الله أمرا كان مفعولا»[753].

وجاءت هذه القبائل البدوية إلى مدينة برقة فوجدوها خالية تقريبا من السكان. ذلك أن المعز بن باديس أباد أهلها من الزناتيين، فتوقفوا بها، وكاتبوا إخوانهم بشرق النيل يرغبونهم في اللحاق بهم فأجازوا إليهم، وخربوا المدينة الحمراء، وأجدابية، وأسمرا، وسرت، ويمكننا أن نشير إلى أن القبائل التي نزلت برقة هي من بني سليم، في حين تقدم بنو هلال إلى إفريقية فوصلوها سنة 443هـ (1050م)[754].

751- النويري: نهاية الإرب، ج24، ص209-210.

752- ابن خلدون: العبر، مج6، ص30-31؛ رابح بونار: المغرب العربي، ص193؛ المناوي: الوزارة والوزراء، ص189-190؛ الأنصاري: كتاب المنهل العذب، ص116؛ George Marcais: La Berberie Musulmane, p193-194.

753 - ابن خلدون: المصدر نفسه والمجلد ذاته، ص31.

754 - نفسه، ص31؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، ص581-582؛ أتوري روسي:

أما القبائل التي استقرت في إقليم طرابلس فهي: زغبة ورياح، ولا شك أن هذه القبائل هي التي سببت متاعب لسكان الجبل. يقول البكري: «بين طرابلس ومدينة شروس حصن لبدة يسكن هذا الحصن قوم من العرب... وهم محاربون لجميع من يجاورهم من قبائل البربر»[755].

وتشير المصادر الإباضية إلى غارات شنها العرب على إباضية المنطقة، ولكننا لم نتمكن من تحديد تاريخها بدقة، مثل الغارة التي أغارها بعض عرب «معقل» على «بني واشية»، واغتصبوا بنات أحد شيوخ المذهب[756]. ومن جهة أخرى تعامل النفوسيون مرغمين مع الوافدين الجدد. فقد أرسل نفوسي يدعى «أبو محمد عبيدة التلاتي النفوسي» ناقته ترعى وديعة عند العرب[757].

وتذكر بعض الروايات أن القبائل العربية النازلة بطرابلس وضواحيها ضربت خيامها في منطقة «الجفارة» الواقعة في سفح الجبل من جهة الساحل، وربما حتى داخل الجبل نفسه. وقد أدى إلى مغادرة العديد من النفوسيين للمنطقة متجهين إلى الغرب، وإلى الشمال الغربي من الجبل، وإلى إفريقية وقد استولى العرب على هذه الأماكن المهجورة[758].

ويبدو أن الهجرة كانت كثيفة فيما بعد أي بعد سنة 442هـ (1053م) - وهي فترة خارجة عن البحث - خاصة بعد وصول الموجات الهلالية الأخرى القادمة من مصر. فقد هددوا الطرق فعطلوا الحج والتجارة والرحلة، وقد أثر ذلك تأثيرا سلبيا على الحياة الاقتصادية في المنطقة، بما حصل من خراب ودمار للعمران والزرع. يقول ابن غلبون: «ضاق الناس بالأمر وساءت أحوالهم وانقطعت أسفارهم، ونزل بإفريقية بلاء لم ينزل بها مثله قط»[759].

4 - جوغراف والهجرة إلى المجهول:

نعتقد أن فكرة الهجرة إلى «جوغراف» التي انتشرت بين أهل الدعوة قد ظهرت في هذه الفترة، وهي فكرة إن لم نقل أسطورة تدور حول نهاية العالم. ووفق المصادر

ليبيا منذ الفتح، ص96-97؛ حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب، ص148.

755- ينظر: المغرب، ص9.

756- الوسياني: السير، ج2، و29.

757 - الشماخي: السير، ص300.

758 - Jean Despois: Le djebel Nafusa, p294.

759 - ينظر: تاريخ طرابلس الغرب، ص25-26.

الإباضية فإن أهل الدعوة الذين حافظوا على دينهم سيجتمعون في هذا المكان قبيل آخر الزمان. ذلك أنهم سيضطرون إلى الخروج إلى جوغراف لكثرة الزلازل والحروب فيهربون بدينهم وأنفسهم[760].

ويقع موضع «جوغراف» في الرمال، يمتاز بكثرة المياه الجارية يجتمع فيه بقايا الإباضية، ويظلون به إلى غاية نهاية العالم، ولن يدوم البقاء فيه أكثر من ثلاثين سنة،[761] ويحكمهم في هذه المدة «ملك جوغراف» وقد أوردت المصادر روايات كثيرة حاول أصحابها تحديد تاريخ هذه الهجرة منها رواية رجل يدعى يونس بن مايل نقلا عن أبي صالح اليهراسني (اليراسني) حيث قال: «إذا انتقل بنو درجين من قنطرار إلى أسوف، وانتقل أهل أسوف إلى أريغ وانتقل أهل أريغ إلى وارجلان. فإذا اجتمعوا في وارجلان ارتحلوا إلى جوغراف»[762].

ويبدو جليا من خلال هذه الرواية أن فكرة الهجرة إلى جوغراف ظهرت في الفترة العصيبة التي مر بها الإباضية وهي فترة إمارة المعز بن باديس، وهجرة بني هلال، والحروب الدامية التي دامت بين بني زيري وأبناء عمومتهم بني حماد، وبين بني زيري العرب وبين الهلاليين، ولذلك لا يستبعد أن تكون هذه الأسطورة محلية، ظهرت فقط في الشريط الذي يمتد من بلاد الجريد إلى وارجلان. ولم تكن منتشرة بين الجماعات الإباضية في جنوب شرق إفريقية ومنطقة طرابلس، ولكن هناك من كان له إيمان قوي بها حتى من العلماء، منهم على سبيل المثال لا الحصر: أبو عبد الله محمد بن بكر النفوسي - مؤسس نظام العزابة - فقد كان كثيرا الحديث عن «جوغراف» رغبة منه في التعرف على موقعه. وقد حاول الوصول إليه رفقة جماعة من رفقائه عندما خرجوا من وارجلان في اتجاه القبلة. وقد لحق بهم مشائخ وارجلان لردهم، فأدركوهم في مكان يسمى «أزلج».

وتضيف الرواية أن أبا عبد الله سيتوفى في «جوغراف» في المصادر الإباضية، إلا أنها اختلفت في تحديد موقعه جغرافيا. فهناك روايات جعلت وارجلان هي «جوغراف»، وأخرى حددت موقعه بموقع «اريغ» وهي رواية رجل يدعى «زيري بن لقمان الخارجي». في حين ذكر أبو نوح صالح بن إبراهيم بن يوسف المزاتي أن قرية «أجلوا وتين يسلي» الواقعتين قرب وارجلان تقعان في بلد جوغراف. أما أبو الربيع سليمان بن عبد السلام الوسياني اعتبر «أجلوا الغرب» التي لا تبعد كثيرا عن أريغ هي جوغراف. وهناك إشارة في المصادر تفيد

760 - أبو زكريا: كتاب السيرة، ص381.

761- المصدر نفسه والصفحة ذاتها.

T. Lewicki: Une Croyance Des Ibadites Nord-Africains Sur La Fin Du Monde: Le Pays De Gugraf, Ve Gongres International D' Rabisantd et D' Islamisations, Bruxelles, 1970, N11, p321.

762- المصدر نفسه، ص377.

بأن موضع جوغراف يبعد عن وارجلان مسير ستة عشر يوما فقط.

وإذا رحنا نبحث عن هذا الموضع في الصحراء جنوب وارجلان، فإننا نجد موقعا يحمل الاسم نفسه، يقع في سلسلة جبال «مويدير (ايميدير) الواقع غرب الهقار، وكان يشق الجبل مسلك تجاري يتجه إلى وارجلان مرورا بالقليعة وعين صالح الحالية. وتتفرع إلى مجموعة من المسالك منها مسلك يؤدي إلى مدينة أغاديس Agadis وجاو Gao. أما عن الطريق التي تربط الهقار بـ «جاو» فإنها تمر بـ «سيلات»، و«تين زواتن»، و«كيدال»، و«بورام». ففي العصور الوسطى كانت هذه الطريق تمر بتادمكة، ذلك المركز التجاري الهام، والمعروف أن لهذه المدينة علاقات تجارية مكثفة مع الجماعات الإباضية في منطقة طرابلس ووارجلان. ونلاحظ أن قبائل البدو من الطوارق المقيمين في هذه الصحاري يتداولون اسم جوغراف (زغراف) (جقراف) وهو عبارة عن واحة صغيرة تقع فوق هضبة توجد بها آثار لثقافات الأولين، كما أن هناك عينا جارية تسمى «عين جوغراف»، وهي غير العين الموجودة في الواحة التي ذكرناها، ويبدو أن هضبة جوغراف كانت تمر عليها القوافل التجارية، وكانت هذه الطريق مستعملة في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري (9م) من قبل التجار الإباضية المتجهين إلى «تادمكت»، أو «جاو». ومادام أن هذا الموضع وهذا المسلك معروف لدى التجار الإباضية فلاشك أن أبا عبد الله محمد بن بكر النفوسي كان يرغب في الوصول إلى هذه الواحة، والأرجح إما أن يكون الإباضية قد نسوا مسالك هذا الطريق وظلت ذاكرتهم تحتفظ فقط باسم «جوغراف»، وإما أن يكون هذا الموقع سرا بين الإباضية حتى لا يعلمه أعداؤهم، وبمرور الزمن تعرض للنسيان وإما أن يكون الإباضية يبحثون على وادي ميزاب غضوا النظر عن جوغراف خاصة وأن هذه الأخيرة تقع وسط القفار.

ومهما يكن من أمر فإن انتشار هذا الاعتقاد قد أدى إلى هجرة جماعات كثيرة من إباضية إفريقية ومنطقة طرابلس إلى صحراء المغرب الأوسط واستقروا في قراها ومدنها مثل وارجلان، أريغ، أسوف، تين يسلي، أجلو، وقرى وادي ميزاب.

الباب الرابع

الحياة الاقتصادية والثقافية والاجتماعية

الفصل الأول

الحياة الاقتصادية في الجبل

1 - الأوضاع الاقتصادية في بلاد المغرب عامة.

2 - الزراعة.

3 - الثروة الحيوانية.

4 - الصناعة.

5 - التجارة.

أ - الطرق التجارية.

1 - الطرق البرية.

2 - الطرق البحرية.

ب - الأسواق.

جـ - السلع الصادرة والواردة.

د - تجارة السودان.

6 - المكاييل والموازين.

7 - العملة.

8 - الحسبة.

9 - مستوى المعيشة.

1 - الأوضاع الاقتصادية في بلاد المغرب عامة

شهدت بلاد المغرب الإسلامي تقلبات سياسية أثرت إيجابا وسلبا على الأوضاع الاقتصادية. فإبان الفتح الإسلامي لم تعرف البلاد الاستقرار نتيجة انشغال العرب بالفتوحات، والبربر بالمقاومة، وما نجم عن ذلك من تخريب الكاهنة للمدن، وإحراق للغابات، وقطع للشجر وتهديم للحصون.[763] وازداد الوضع الاقتصادي تدهورا عندما اشتط عمال بني أمية في جباية الضرائب، وما تبع ذلك من ثورات البربر بإيعاز من الإباضية والصفرية، وما خلفته من تخريب للبلاد إذ تحولت البلاد إلى ميدان للقتال والتناحر بين البربر وبين الجيوش الأموية والعباسية.[764]

ومع تأسيس الدول المستقلة واتسام هذه الفترة بالتعايش السلمي رغم الاختلافات المذهبية، وعدم انتهاج أي دولة لسياسة التوسع، عرفت البلاد فترة استقرار سياسي مكنت أئمة وأمراء هذه الدول من الاهتمام بالبناء الاقتصادي، فأمنت السبل، ونشطت حركة التبادل التجاري، وازدهرت الصناعة والزراعة، فاهتم الأغالبة بتنشيط الآلة الاقتصادية وتعميم الرخاء في البلاد. ولم تشهد إفريقية إلا بعض الأزمات الاقتصادية كالتي حدثت سنة 260هـ في عهد أبي الغرانيق حيث انتشرت المجاعة والأوبئة، والتي حدثت سنة 266هـ في عهد إبراهيم بن أحمد حيث كان القحط والغلاء المفرط.[765]

ويرجع الفضل في انتعاش الحياة الاقتصادية في إفريقية إلى الإصلاحات المالية التي قام بها أمراء بني الأغلب كتحديد وتنظيم الضرائب وتحسين العملة. وأضحت القيروان في عهدهم من أهم المراكز التجارية حيث كانت «أعظم مدن المغرب قطرا، وأكثرها بشرا، وأيسرها أموالا، وأوسعها أحوالا... وأربحها تجارة، وأكثرها جباية، وأنفقها سلعة».[766]

وشهد المغرب الأوسط تحت حكم بني رستم ازدهارا اقتصاديا كبيرا، خاصة وأن الأئمة وثقوا الصلة بدولة بني مدرار، ودولة الأدارسة، والدولة الأموية في الأندلس، وأقاموا علاقات تجارية وطيدة مع بلاد السودان.

---

763 - الرقيق: تاريخ إفريقية والمغرب، ص31؛ ابن عذارى: البيان المغرب، ج1، ص36؛ صالح مصطفى: ليبيا منذ الفتح، ص198-199.

764- الحبيب الجنحاني: المغرب الإسلامي، ص20-21؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، ص321.

765 - ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص116-117؛ السيد عبد العزيز سالم: المرجع نفسه، ص322.

766 - الإدريسي: القارة الإفريقية، ص185.

ولما أسس الشيعة دولتهم، اهتم ملوكهم بالحياة الاقتصادية فشجعوا الزراعة والتجارة على الرغم من أن سياستهم كانت تقوم على جمع المال قدر الإمكان بغية تحقيق الحلم الذي ظل يراودهم وهو الانتقال إلى المشرق والسيطرة على الحجاز. فكانوا يجبون الأموال الطائلة ويصادرونها ظلما. وقد عاشت الدولة بعض السنوات العجاف، ففي سنة 317هـ عم إفريقية وباء عظيم، وغلاء في الأسعار.[767] ولما اندلعت ثورة أبي يزيد بن مخلد بن كيداد سنة 331هـ (942م)، أصاب البلاد الخراب حتى إنه «لم يبق بإفريقية منزل عامر».[768]

وتأرجحت فترة حكم بني زيري بين الرخاء تارة والقحط والجدب تارة أخرى. فقد عرفت في سنوات 396هـ و430هـ رخاء وأمان.[769] في حين عرفت سنة 395هـ غلاء فاحشا حيث «ذهب مال الغني، وغلت الأسعار، وعدمت الأقوات، وجلي أهل البادية عن أوطانهم... ومع هذه الشدة وباء وطاعون هلك فيه أكثر الناس».[770]

وقد تأثر جبل نفوسة كغيره من مناطق بلاد المغرب بالأحداث السياسية التي حدثت في بلاد المغرب. فمر هو الآخر بالظروف نفسها.

2 - الزراعة:

تعتمد الزراعة في جبل نفوسة على مياه الوديان التي تشق الجبل، وارتبطت حياة السكان فيه بالأمطار. فالمنطقة تتميز بأنها تجمع بين مناخ البلدان البحرية، والسهوب التابعة لمناخ البحر الأبيض المتوسط، وبين الأراضي الصحراوية القاحلة. وبالرغم من قساوة الطبيعة وتفاوتها من منطقة إلى أخرى فقد تعلم النفوسيون كيف يستغلون ويستثمرون كل قطرة من المياه التي تتجمع من سقوط الأمطار في وديان الجبل، كوادي لالوت، وواد إكراين، ووادي شروس، ووادي أمسين، ووادي الزرقاء، ووادي الآخرة... وغيرها.[771] وقد أقام النفوسيون السدود الصغيرة، والأحواض لجمع المياه. كما أقاموا الجسور في بساتينهم لسقيها من مياه الأمطار. فقد ذكر الدرجيني أن مهدي النفوسي - أحد علماء القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي - كانت له سدود كثيرة في أرضه قد خربت، ولم يتمكن من إعادة بنائها لوحده، مما جعله يتزوج بإمرأة أخرى لتساعده في إصلاحها.[772]

767 - ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص194.
768 - ابن أبي دينار: المؤنس، ص59.
769 - ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص257-258.
770 - المصدر نفسه والجزء ذاته، ص256-257.
771 - عبد الجليل الطاهر: المجتمع الليبي، ص21؛ علي يحي معمر: الإباضية في ليبيا، ص170 وما بعدها.
772 - أبو زكريا: كتاب السيرة، ص114؛ بحاز: الدولة الرستمية، ص148.

ويضيف الدرجيني بأن الجبل قد أصابه القحط في سنة من السنين فدعا «باثمان» ربه فنزلت المطر حتى فاضت جسور بستانه.[773]

وكان الهدف إذن من بناء هذه الحواجز حول البساتين هو حجز مياه الأمطار لسقي وحماية التربة من الانجراف. وقد اعتمدت حياة السكان في الجبل على زراعة الأشجار المثمرة، وتعد زراعة أشجار الزيتون العمود الفقري للحياة الزراعية في الجبل. فقد روى الشماخي أن عين قرية «إجناون» وحدها كانت تسقي إثني عشرة ألف زيتونة[774] فما بالك ببقية القرى الأخرى. فقد روي أن زيتون قرية «تغرمين» كان مشهورا حيث كان الناس يتمنون رؤيته لمذاقه وجماله وكثرته.[775] وقد تحدث الباروني عن مدينة تيجي فقال بأنها تنتج ثمارا متنوعة، وأن أشجارها كثيرة، وعيونها تسيل على وجه الأرض لارتفاع كثير من منابعها.[776]

وكان جني الزيتون يتم في وقت محدد معلوم. ففي السير أن أبا عبيدة عبد الحميد الجناوني منع أهل «إجناون» من خرط زيتونهم إلى وقت معلوم، وقد عاقب من كسر هذا الحجر.[777] ونظرا لكثرة إنتاج الجبل من الزيتون فقد أقيمت له معاصر يشتغل فيها العبيد المجلوب من بلاد السودان، وكانت هذه المعاصر تبنى في باطن الأرض وهي معاصر بدائية تستخدم الخشب والطواحين من الحجر.[778]

ويعد زيت الزيتون من أكثر السلع التي يصدرها النفوسيون إلى المدن، خاصة في المواسم الجيدة، حيث يكثر الإنتاج. وقد يقل ذلك نتيجة قحط أو جدب. فقد ذكر الشماخي أن النفوسيين في زمن أبي محمد الدرفي كانوا يجعلون الزيت على المغرف لقلته.[779] وقد كانت القوافل تأتي إلى مدن الجبل كمدينة «درج» لشراء الزيت.[780]

كما اهتم النفوسيون بزراعة أشجار النخيل والتين. فقد روي أن أبا محمد عبيدة التلاتي النفوسي غرس ثلاثمائة كرمة بيده. ويبدو أنه كان من كبار المزارعين في الجبل، ذلك أنه عندما وقع قحط أخذ ينفق على أهل قريته مدة طويلة حتى إنه قال لهم: «من

773- الدرجيني: طبقات المشائخ، ج2، ص309.
774 - الشماخي: السير، ص189.
775 - الشماخي: المصدر نفسه، ص260؛ بحاز: الدولة الرستمية، ص148
776 - الأزهار، ج2، ص253.
777 - الشماخي: المصدر السابق، ص197.
778 - عبد الجليل الطاهر: المجتمع الليبي، ص67؛ Jean Depois: Le djebel Nefussa, p283-284.
779 - الشماخي: المصدر السابق، ص287.
780 - المصدر نفسه، ص315.

أراد أن يأخذ نصف صاع لغذائه ونصف صاع لعشائه من أي نوع شاء من شعير أو تمر أو تين»[781] وذكر أن أبا هارون الجلالمي كان غراسا للشجر، حيث جنى من أشجار التين وحدها ثلاثمائة مديا، أو مائة وخمسون وسقا.[782] وروي في السير أن أبا الربيع بن أبي هارون كان يصيب في السنة ثلاثمائة مج تينا، فينفق مائة على عياله، ومائة لتلاميذه، ومائة يطعمها للأضياف.[783]

وبالإضافة إلى التين والزيتون والخضر والفواكه فقد اهتم النفوسيون بزراعة الحبوب خاصة الشعير، فقد كان أغلب النفوسيين من المزارعين المرتبطين بفلاحة الأرض وغرسها. فإذا عدنا إلى تراجم الشيوخ نلاحظ أن أغلبهم كان يشتغل بالزراعة، فلا غرو إذن أن ينسحب العديد من أفراد الجيش الذي سيره أبو الخطاب لقتال ابن الأشعث سنة 144هـ (761م) والعودة إلى الجبل لأن الموسم كان موسم حصاد.[784] ومما يدل على كثرة إنتاج القمح والشعير أن أبا أيوب صنو أبي الخطاب إذ جمع زرعه في الأندر لدرسها بريضة (ريزو، ريصوا) رآه من كان بجزيرة جربة لكثرته،[785] ومما يدل كذلك على وفرة إنتاج الحبوب قول أبي يوسف الجدولي النفوسي: «لو تمادت الشدة عشرين سنة أو ثلاثين سنة لم أبال فيها لعيالي ولا لحيواني، لما أدخر لكل نوع ما يليق به».[786] وكانت لأبي عثمان المزاتي غرفة يملأها شعيرا، وقد تصدق بها كلها في مجاعة وقعت بالجبل.[787] وقد أقام النفوسيون المخازن الكبيرة لخزن الغلال، وهي عبارة عن غرف محصنة لازالت بعض أطلالها شامخة في مدينتي نالوت وكباو.[788]

واشتهرت مدينة شروس بكرومها، وأعنابها، وتينها، وحبوبها خاصة الشعير، الذي كان أكل سكانها الأساسي، فإذا خبز كان أطيب طعما من خبز الحنطة. وقد انفرد خبزهم بلذة لا توجد في خبز آخر.[789] فلا غرابة إذن أن يذكر الشماخي في سيره أن أبا مرداس مهاصر السدراتي الساكن بقرية «تبرست» بالجبل كان يجلس على طريق رجوع الخدم من الاحتطاب فيعطيهن قبضة من دقيق مبلول يسمى «الصميت» (البسيسة).[790]

781 - نفسه ، ص300-301.
782 - نفسه، 278.
783- البغطوري: سير نفوسة، (مخ)، و14.
784 - أبو زكريا: كتاب السيرة، ص73؛ بحاز: الدولة الرستمية، ص149.
785- أبو زكريا: المصدر نفسه، ص188-189؛ الشماخي: السير، ص283.
786 - الشماخي: المصدر نفسه، ص331.
787- نفسه، ص203؛ بحاز: الدولة الرستمية، ص149-150.
788 - عبد الجليل الطاهر: المجتمع الليبي، ص65-36
789- ابن حوقل: صورة الأرض، ص92؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج5، ص296.
790- ينظر: ص173.

ورغم هذا الإنتاج الوفير من الحبوب إلا أن الجبل مر بفترات قحط وجدب عانى فيها النفوسيون الكثير. فقد روي أن السنة التي خرج فيها أبو الخطاب إلى القيروان لطرد قبيلة ورفجومة منها كانت سنة قحط، حتى إنهم أكلوا الجراد.[791] وقد اضطر السكان في بعض الأحيان إلى السفر إلى المدن المجاورة لشراء ما يكفيهم من مؤونة، وقد منعهم أبا أيوب صنو أبي الخطاب في مرة من المرات عندما أرادوا النزول إلى جربة، فأنزلهم عنده وأنفق عليهم.[792] وتضيف الروايات ان أبا مرداس مهاصر السدراتي عندما جاز على أهل قرية «إكراين» وهو في طريقه إلى أرضه ليحرثها وجدهم في حالة من الفقر والحاجة نتيجة قحط أصابهم فتصدق عليهم بالزريعة ثم عاد أدراجه.[793]

أما عن نظام غراسة الأرض في الجبل فإن المصادر لا تمدنا بمعلومات وافية عنه عكس ما كان معروفا عند إباضية بلاد الجريد حيث كان سكان مدينة «تقيوس» يعمرون غاباتهم بالمناصفة فيكون لهم النصف عن غلالها، وللسلطان النصف، بالإضافة إلى تأديتهم العشر من النصف.[794] وبما أن المناطق الزراعية محدودة في الجبل فقد كان لكل عائلة قطعة من الأرض تستغلها. وقد لجأ النفوسيون كذلك إلى الخروج من الجبل لاستصلاح الأراضي في الجفارة. فقد روي الدرجيني أن أبا محمد علي حرث ذات سنة أرضا ولما حصد زرعها ودرسه وقف عليه رجل وقال له: «اللهم إنك تعلم أني لم آذن في حرث أرضي، ولا بعت، ولا وهبت، وإنها لأرضي لم تخرج عن ملكي» فقال الشيخ لابنه: «أفرغ الطعام».. ومضى تاركا له كل الغلة.[795]

ويبدو أن نظام ملكية الأراضي في الجبل يعتمد على الملكية الخاصة أو العائلية فالمصادر الإباضية لا تشير إلى تعاون جماعي في استغلال قطعة من الأرض. وهذا يعود إلى الطبيعة الوعرة للجبل والتي لا تسمح بوجود شراكة في استغلال أراضي صالحة للزراعة.[796] ولعل مشاركة التلاميذ إلى جانب شيوخهم في الحصاد تدخل فقط في إطار التعاون المعمول به إلى أيامنا هذه.[797] وبما أن الأراضي الصالحة للزراعة محدودة في الجبل فقد مر بنا أن الإمام عبد الوهاب اقطع النفوسيين النازحين من الجبل أرضا لاستصلاحها.

791 - المصدر السابق، ص127.
792 - المصدر نفسه، ص175.
793 - نفسه، ص175.
794- الشماخي: السير، ص459؛ صالح باجية: الإباضية بالجريد، ص148.
795 - الدرجيني: المصدر نفسه، ج2، ص334.
796 - بحاز: الدولة الرستمية، ص155.
797 - الشماخي: السير، ص239.

وقد استعان النفوسيون في زراعة الأراضي بالعبيد المجلوب من السودان، وحتى بالروم واستعملوهم كذلك في معاصر الزيتون. ومما يوحي بتشغيل العبيد في الحقول والمزارع بعض الإشارات المتناثرة في المصادر. فقد ذكر الوسياني أنه كان عند يوسف بن زيري خادم رومي يشتغل في جنانه.[798] وقد اهتم تجار نفوسة بجلب الخدم من بلاد السودان لاستخدامهم في التجارة والزراعة، واشتهرت قرية «ويغو» بتجارة الرقيق.[799] وقد مر بنا أن أبا مرداس مهاصر السدراتي كان يجلس على طريق رجوع الخدم ليتصدق عليهم، كما كان يبيب بن زلغين - وهو أحد أثرياء الجبل - يستخدم العبيد في رعي الأغنام.[800]

3 - الثروة الحيوانية:

تتحدث المصادرالإباضية كثيرا عن وفرة الأغنام بالجبل، فإذا كان ابن حوقل قد وصف تاهرت بأنها أحد معادن الدواب، والماشية، والغنم،[801] فإن هذا الوصف ينطبق كذلك على الجبل. فقد كان يبيب بن زلغين يملك ثلاثين الف ناقة، وثلاثمائة ألف شاة، واثني عشر ألف حمار. ورغم مبالغة المصادر - على ما يبدو - في هذا العدد إلا أن شهادة الإمام عبد الوهاب تؤكد على أن يبيا كان من كبار ملاك الأنعام. فقد قال: «لولا أنا ومحمد بن جرني، ويبيب بن زلغين لخرب بيت مال المسلمين، أنا بالذهب ومحمد بن جرني بالحرث، وابن زلغين بالأنعام».[802] كما أن أبا منصور إلياس ورغم أنه كان عاملا للإمام على الجبل إلا أن ذلك لم يمنعه من تربية الماشية، فقد كانت غنمه كثيرة التناسل.[803]

ومما يدل على كثرة الأغنام في الجبل واهتمام النفوسيين بتربيتها أن أبا علي النفوسي عندما وقعت شدة في الجبل نزل إليه بعض المشائخ ولبثوا عنده مدة طويلة، وكان يذبح لهم كل يوم شاتين، ثم زادها إلى أربعة، وهذا لكثرة ماله من الحيوان.[804] وينطبق الكلام نفسه على أبي نوح سعيد بن يخلف، حيث وصفه الدرجيني قائلا: «كان كثير المال كثير الأضياف... فإذا نظرت إلى خيامه رأيت جلود الشياه منشورة عليها لفائف قطن لكثرة

798 - ينظر: السير، و44.

799 - الشماخي: السير، ص218.

800- المصدر نفسه، ص204.س

801- ابن حوقل: صورة الأرض، ص86.

802- الشماخي: المصدر السابق، ص204-205؛ بحاز: الدولة الرستمية، ص161؛ الباروني: مختصر تاريخ الإباضية، ص41.

803- الدرجيني: الطبقات، ج2، ص329-330؛ بحاز: المرجع نفسه، ص161؛ يقول الدرجيني: «ولم ينقطع من بيت أبي منصور وذريته ثلاثة أشياء ولم تتبدل منذ فارقوا النصرانية... وهي الصلاحية، وزريعة القمح وتناسل الغنم».

804- الشماخي: المصدر السابق، ص336.

ما يغشاه من الأضياف، فيكثر الذبائح».[805] ولم تقتصر تربية الماشية على العامة فقط بل مارسها الشيوخ من العزابة. فأبو عبد الله محمد بن بكر النفوسي مؤسس نظام الحلقة كان له قطيع من الغنم يرعاه. فقد روى الوسياني أن غنمه استولى عليها بنوغمرة في غارة أغاروها في أودية «أندرار» بالجبل.[806]

وبالإضافة إلى الأغنام اهتم النفوسيون بتربية الإبل، فكثرت حتى أصبح يعرف أهل الجبل أنهم ينتجونها ويركبون أسرعها. ويعود اهتمام النفوسيين بالإبل إلى اشتغالهم بالتجارة خاصة التجارة الصحراوية، إذ كانوا يتوغلون إلى بلاد السودان.[807]

وإلى جانب الأغنام والإبل اهتموا بتربية الخيل لإعدادها للظهور باعتبارها وسيلة من الوسائل المستعملة في المعارك ضد الأعداء.[808] فقد كان أبو نوح سعيد بن يخلف المزاتي يكثر من اقتنائها لما كان «يأمله من الخير في نصرة الدين ومدافعة المعتدين»[809] كما اهتم النفوسيون بتربية الأبقار، ويبدو أن أعدادها كانت هي الأخرى كثيرة، إذ لم يتجاوز سعر الثور في الجبل أربعة دنانير لكثرة العرض.[810]

4 - الصناعة:

تعد الصناعة في جبل نفوسة ذات أثر محدود، فهي عبارة عن صناعة بسيطة تعتمد على المنتوجات الزراعية والحيوانية. فكانت الصناعة تشمل العسل، والتين المجفف، والتمور، ومختلف المواد الغذائية مثل صناعة عصر الزيتون، وصناعة طحن الحبوب، وصناعة الكحل، المعروفة بالكحل النفوسية، وصناعة الزبيب.[811] ولعل أهم صناعة برزت في الجبل هي صناعة النسيج لما يتوفر عليه من مادة خام لكثرة الأغنام، فكان الجبل ينتج أنواعا من الملابس الصوفية. وقد أشارت المصادر إلى اشتغال النساء بالغزل والنسيج حتى إنهن يحضرن مغازلهن إلى المجالس العلمية.[812] وكانت تقوم بهذه الأعمال في الغالب الجواري.[813] وانتشرت في الجبل كذلك صناعة الأصباغ حيث

805- المصدر نفسه، ج2، ص368.

806- ينظر: سير مشائخ المغرب، ص49.

807 - صالح مصطفى: ليبيا منذ الفتح، ص207.

808 - ذكر أن أبا باديس أبخت بن باديس -وهو من شيوخ الإباضية بفحص بونة بالمغرب الأوسط- كانت له خيل كثيرة يعدها ويجهزها لإمامة الدفاع أو الظهور. ينظر: الشماخي: السير، ص382-383.

809 - الشماخي: المصدر نفسه، ص374؛ الدرجيني: طبقات المشائخ، ج2، ص368.

810 - الشماخي: المصدر نفسه، ص306.

811 - صالح مصطفى: ليبيا منذ الفتح، ص209؛ الحريري: الدولة الرستمية، ص232.

812 - الشماخي: المصدر السابق، ص309.

813 - نفسه، ص247؛ بحاز: الدولة الرستمية، ص167.

كانت الجالية اليهودية في «جادو» وغيرها مختصة في هذا النوع من الصناعة، حتى إن النساء كانت تعدن الوضوء لأنه نجس، فرخص لهن أبو ذر إبان بن وسيم بأن يغسلن أيديهن فقط، وليس عليهن إعادة الوضوء.[814] ومما يؤكد اشتهار جبل نفوسة بصناعاته النسيجية المتنوعة الألوان ما ذكره ابن حوقل في وصف جودته حيث قال: «وطبقات الأكسية الفاخرة الزرق، والكحل النفوسية، والسود، والبيض الثمينة».[815]

كما عرف الجبل صناعة الأواني الفخارية، والخزف، خاصة الأواني التي تستعمل كمواقد للجمر المستخدمة في الطبخ أو في التدفئة. وقد اشتهرت بهذه الصناعة في العصر الرستمي قرية ويغو.[816] يقول الباروني: «تعجب القوم من استحضار فرج إبن خالة مهدي في أقرب وقت على حين غفلة تلك الكوانين كلها، ويقال إنها مجالس فخار كان أعدها للغرس».[817] وهذا إبان زيارة الإمام عبد الوهاب للجبل، وهذا يدل على أن النفوسيين كانوا يستعملون الأواني الفخارية لغرسها بالأزهار لتزيين بيوتهم.

وهكذا نلاحظ أن أغلب الصناعات في الجبل كانت عبارة عن صناعات بسيطة تقوم على الثروة الزراعية والحيوانية، لتلبي حاجيات السكان من ملبس، وزينة، وأواني منزلية، ولا تشير المصادر إلى وجود صناعات حديدية على الرغم من أن جبال طرابلس بها معادن كثيرة، من فضة، وحديد، وفحم، وكبريت، وغيره.[818] أما الصناعات الجلدية فنعتقد أنها كانت متطورة بالجبل، لارتباطها بالثروة الحيوانية، وتوفر المادة الخام، وإن كانت لم تشتهر مثل نظيرتها في غدامس.

5 - التجارة:

أ - الطرق التجارية:

1 - الطرق البرية: كانت تربط الجبل عدة طرق تجارية بمختلف المدن المغربية، وبلاد السودان خاصة وأن موقعه الجغرافي ساعده على توسط شبكة من المسالك التي تربط المشرق الإسلامي بمغربه. ولا جدال في أن للطرق والمسالك دورا هاما في إنعاش الحركة

814 - الدرجيني: طبقات المشائخ، ج2، ص303؛ بحاز: المرجع نفسه، ص168؛ الحبيب الجنحاني: دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، 1986، ص200.

815 - ينظر: صورة الأرض، ص71-72.

816 - الباروني: الأزهار، ج2، ص191؛ الحريري: الدولة الرستمية، ص232-233.

817 - الباروني: المرجع نفسه، والصفحة ذاتها.

818 - ابن غلبون: المنهل العذب، ص21.

التجارية وازدهارها، خاصة وأن الجبل لا يبعد سوى مسيرة ثلاثة أيام عن طرابلس، وستة أيام عن القيروان.[819]

والمعروف أن طرابلس الغرب ترتبط بمجموعة من المسالك التجارية البرية والبحرية، بالإضافة إلى المسالك الداخلية التي تتوغل إلى أسواق المدن الصحراوية. وبما أن الجبل يقع على مسافة قصيرة من هذه الحاضرة فقد استفاد سكانه من هذه المسالك.

أ- جبل نفوسة – وارجلان:

لعل أهم طريق صحراوي يربط الجبل بالمدن الصحراوية في المغرب الأوسط هو الطريق المؤدي إلى مدن أريغ، آجلو، أسوف، ووارجلان. ونحن نعلم أن هذه المدن كانت مكتظة بالإباضة خاصة بعد أن نزح إليها التاهرتيون بعد سقوط الدولة الرستمية. ويبدو أن لإباضية جبل نفوسة علاقات تجارية منذ فترة مبكرة مع سكان هذه المدن، فأول إشارة لهذا الطريق أوردها الإدريسي، حين ذكر بأن هناك طريقا يربط الجبل بوارجلان مسيرته اثنتا عشر مرحلة، لكنه لا يشير إلى مراحله.[820] ويرى ليفيسكي بأنه يمر بنفزاوة ثم أسوف ثم إلى وارجلان.[821] وهذا ما أكده أبو زكريا حين ذكر أن أبا يعقوب يوسف بن الوالي - أحد علماء الإباضية - عندما أراد مغادرة «تين يسلي» إلى نفزاوة، سار إلى أسوف صحبة قافلة، وفيها وجد أخرى اعتزمت السفر إلى نفزاوة فاصطحبها.[822]

وأسوف هذه لا تبعد كثيرا عن مدينة نفطة الواقعة في بلاد الجريد بإفريقية، ومنها يتجه الطريق إلى نفزاوة. فالإدريسي يصف مراحل طريق قفصة - نفزاوة بقوله: «من مدينة قفصة إلى نفطة مرحلتان صغيرتان... ومن قفصة إلى نفزاوة جنوبا يومان وبعض يوم، ومن توزر إلى نفزاوة يوم ونصف يوم، ومن وارجلان إلى قفصة ثلاثة عشر مرحلة»[823]. أما مجموع المراحل بين واجلان وبلاد الجريد فهي أربعة وعشرون يوما من السير.[824]

ب - جبل نفوسة - نفزاوة:

وهناك طريق آخر يربط جبل نفوسة بنفزاوة، مرورا بمدينة لوحقة، التي تتصل بها

819 - البكري: المغرب، ص9؛ البغدادي: مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، دار المعرفة، ط1، بيروت، 1955، مج3، ص1382.

820- ينظر: القارة الإفريقية، ص180.

821 - T. Lewicki: Etudes Maghrebines- Soudanaises, Editions Scientifiique de Pologne, Varsovie, 1976, p29.

822- ينظر: كتاب السيرة، ص330.

823- ينظر: القارة الإفريقية، ص179-197.

824- الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، ط1، بيروت، 1984، ص6.

غربا مدينة بسكرة، وباديس في الزاب.[825] ولا يعرف موقع مدينة لوحقة هذه ولكنها تقع على ما يبدو بين جبل نفوسة ونفزاوة. فالطريق يبدأ من قابس متجها إلى الجبل إلى الجنوب الشرقي مرورا بمدينة «يغمراسن» التي تقع شمال غرب «تطاوين» ثم يتجه الطريق شرقا إلى «زغاوة». كما يمر بمدينة «تلالت» التي ذكرتها المصادر الإباضية.[826] فقد كان فيها مصلى للإمام عبد الوهاب عندما زار منطقة طرابلس في القرن 3هـ (9).[827]

ويحتمل أن هذا الطريق يمر بمدينة شروس، فقد كانت هذه المدينة تمثل مرحلة من مراحل القوافل التي تسلك طريق وارجلان، وطريق التكرور (السودان الغربي). وغاية هذه القوافل الوصول إلى طرابلس التي تبعد مسيرة خمسة أيام عن شروس.[828] كما أن هناك طريقا آخر يربط الجبل بفزان وبلاد كانم في السودان الأوسط. ومدينة غدامس التي تقع على الطريق الذي يمر ببلاد كانم، وهي ليست بعيدة عن جبل نفوسة إذ يحدد البكري المسافة بسبعة أيام في الصحراء،[829] أي سبع أو ثمانية مراحل.[830] وربما كانت غدامس المحطة الرئيسية بين جبل نفوسة وتادمكت، لأنه يوجد طريق بين هذه الأخيرة وغدامس مسيرته خمسة وعشرين يوما.[831] ويؤدي هذا الطريق كذلك إلى بلاد كوكو التي تبعد نحو تسع مراحل عن تادمكة.[832] ولاشك أن التجار النفوسيين قد استعملوا هذه الطريق، خاصة ونحن نعرف بأن سكان مدينة غدامس إباضية، وكانت تربطهم علاقات تجارية متميزة مع إخوانهم في الجبل.[833] أضف إلى ذلك إلى أن هناك طريقا يربط غدامس بمدينة وارجلان مسافته نحو عشرين يوما في صحراء قليلة المياه.[834] فعبر هذا الطريق وصل تجار نفوسة إلى تادمكت، منهم أبو الربيع بن أبي هارون الذي كان يسافر كثيرا إلى هذه المدينة للتجارة، وقد عرف بثرائه.[835] وتتحدث المصادر الإباضية كذلك عن سفر أبي نوح سعيد بن زنغيل إلى هذه المدينة.[836]

825- الإدريسي: المصدر السابق، ص180.

826 - T. Lewicki: Etudes Maghrebines, p30.

827 - الشماخي: السير، ص159.

828 - البكري: المغرب، ص9.

829 - البكري: المصدر نفسه، ص182.

830- الشماخي: المصدر السابق، ص275.

831- البكري: المصدر السابق، ص182؛ Henri Lhote: La saline d>amadror et le geographe, El Bekri, .55-Bulletin de liaison Saharienne n°14, 1953, p54

832 - نفسه، ص182-183.

833 -T. Lewicki: Tasmiya Suyuh Nefoussa, p100.

834 - مجهول: الاستبصار، ص224.

835 - البغطوري: سير نفوسة، و14.

836 - الدرجيني: طبقات المشائخ، ج2، ص367.

جـ - جبل نفوسة - زويلة - ودان:

أما الطريق من نفوسة إلى زويلة فإنه ينطلق من مدينة «جادو» حاضرة الجبل إلى موضع يسمى «تيري» في الصحراء، والذي يبعد عنه مسيرة ثلاثة أيام. ويقع هذا الموضع في سفح جبل يمتاز بكثرة العيون الجارية والنخيل. ثم يشق الطريق الجبل، ومنه إلى صحراء لا ماء فيها نحو أربعة أيام من السير. وأول بئر يجده المسافر على هذا الطريق بئر يسمى «اودرف»، ثم يجد جبالا شامخة تسمى «تارغين». وبعد مسيرة ثلاثة أيام يصل إلى بلد «تامرما» ومنه إلى موضع يسمى «سباب» مسير يومين، ومن سباب إلى زويلة مسير يوم.[837]

والمعروف أن مدينة زويلة بحكم موقعها الجغرافي عرفت حركة تجارية نشيطة. فقد كان يجلب إليها الرقيق من الميريين، والزغاويين، والمرويين لقربهم منهم، ومنها يخرج الرقيق إلى بلاد إفريقية وغيرها من البلاد،[838] فلا غرابة إذن أن تكون هذه المدينة مجمع الرفاق. يسكنها أخلاط من التجار من خراسان، والبصرة، والكوفة. وبما أن سكانها إباضية فلاشك أن تعاملهم التجاري مع إباضية جبل نفوسة كان كثيفا.[839]

ومن أراد الاتجاه إلى تاجرفت فإنه يخرج من زويلة إلى مدينة سبها مسيرة خمسة أيام، ثم إلى مدينة «هل» المسافة نفسها، وهي مدينة عامرة كثيرة النخل. من «هل» إلى «ودان» مسيرة يومين، ومن «ودان» إلى «تاجرفت» ثلاثة أيام، ومنها إلى مدينة «سرت»، وبين سرت وزويلة إثنا عشر مرحلة، وبينها وبين ودان المسافة نفسها. وهناك طريق آخر غير هذا يربط زويلة بتاجرفت، فمن زويلة إلى مدينة «تمسى»، ومنها إلى مدينة «زلهى» ثم الفاروج، فسرت ثم إلى أجدابية، ثم إلى قصر زيدان الفتى فأوجلة. ومن أوجلة إلى تاجرفت. وتبلغ المسافة بين زويلة وتاجرفت مسير ثلاث وعشرين يوما وخمس مراحل.[840]

وهناك طريق آخر غير هذا، يربط زويلة بتاجرفت، فمن زويلة إلى مدينة «تمسى»، ومنها إلى مدينة «زلهى»، ثم الفاروج، فسرت، ثم إلى أجدابية، ثم إلى قصر زيدان الفتى، فأوجلة، ومن أوجلة إلى تاجرفت. وتبلغ المسافة بين زويلة وتاجرفت مسيرة ثلاث وعشرين يوما وخمس مراحل.

837 - البكري: المغرب، ص10؛ صالح مصطفى مفتاح: ليبيا منذ الفتح، ص216.

838 - اليعقوبي: صفة المغرب، ص3؛ مجهول: الاستبصار، ص146.

839 - اليعقوبي: المصدر نفسه، والصفحة ذاتها.

840 - البكري: المغرب، ص11-12؛ صالح مصطفى: ليبيا منذ الفتح، ص21؛ محمد سليمان أيوب: مختصر تاريخ فزان، ص87-88.

وهناك طريق يربط جبل نفوسة بـ «ودان» عبر طرابلس. فمن الجبل إلى طرابلس مسيرة ثلاثة أيام، ومن طرابلس يسير المسافر في بلد هوارة، نحو الجنوب إلى أن يصل قصر ابن ميمون، ثم من هذا القصر ثلاثة أيام إلى صنم من حجارة مبني على ربوة عالية يسمى كرزة، ومن كرزة إلى ودان مسير ثلاثة أيام.[841]

د - جبل نفوسة - كوكو:

أما الطريق الذي يربط جبل نفوسة بكوكو مرورا بغدامس وتادمكة، فإنه ينطلق من مدينة شروس ليصل المسافر إلى غدامس بعد مسيرة سبعة أيام في الصحراء[842] وغدامس هذه كانت محطة لقوافل الحجاج المتجهين إلى البقاع المقدسة، وللتجار المتجهين إلى بلاد السودان ومصر. وقد كانت هذه المدينة منذ العصر الفينيقي، والروماني، حصنا تجاريا وحربيا لروما على طريق جرمة جنوبا. وفي العصر الإسلامي لعبت دورا هاما في العلاقات التجارية عبر الصحراء. فقد ربطها التجار الإباضية بنشاطهم التجاري الواسع. وظلت تحتفظ بمكانتها التجارية حتى عصر محمد بن الحسن الوزان المعروف بـ «ليون الإفريقي» الذي وصف أهلها بالثراء الناجم عن تجارتهم الكثيفة مع بلاد السودان. وأشهرها ما تنتجه هذه المدينة الجلود المصنوعة.[843]

ويخرج الطريق من غدامس في اتجاه الغرب ليتصل بالطريق الذي يربط تاهرت عاصمة الدولة الرستمية بكوكو، بين وارجلان وتادمكة، ثم يتجه جنوبا نحو تادمكة. وتقدر المسافة بين غدامس وتادمكة خمسة وعشرين مرحلة، ومن تادمكة إلى كوكو تسعة مراحل.[844] أما المسافة بين تاهرت وكوكو فتقدر بمسير ثلاثة أشهر.[845]

وهناك طريق آخر يربط غدامس بتادمكة لا يذكر البكري مراحله، ولا يستبعدأن يكون تجار جبل نفوسة الذين وصلوا إلى اودغست قد سلكوا هذا الطريق قاصدين كوكو ثم غانة بعد عبور نهر النيجر، ومنها جنحوا نحو اودغست.[846]

841 - البكري: المصدر نفسه، ص12؛ صالح مصطفى: المرجع نفسه، ص217؛ محمد سليمان أيوب: المرجع نفسه، ص88-89.

842 - مجهول: الاستبصار، ص145؛ بحاز: الدولة الرستمية، ص218-219.

843 - أحمد إلياس حسين: الطرق التجارية عبر الصحراء الكبرى حتى مستهل القرن السادس عشر، كما عرفها الجغرافيون العرب، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، 1977، ص89-90.

844 - البكري: المغرب، ص182-183.

845 - الباروني: الأزهار الرياضية، ج2، ص239.

846 - بحاز: الدولة الرستمية، ص218-219.

هـ - جبل نفوسة - الكانم:

وهناك طريق صحراوي آخر ساهم في ازدهار التجارة مع بلاد السودان هو الطريق الذي يربط جبل نفوسة بكوار بالكانم. فقد كانت القوافل التجارية التي كانت تخرج من جادو تتجه إلى مدينة زويلة جنوبا، لتصلها بعد مسير ثلاثة عشر يوما. ويمتاز هذا الطريق بأنه يشق قفارا لا ماء فيها. ومن مدينة زويلة إلى مدينة كوار مسيرة خمسة عشر يوما.[847] وهي مدينة بها قوم من المسلمين أغلبهم بربر يتاجرون بالرقيق.[848] وتقع كوار هذه في إقليم كانم شمال بحيرة تشاد. ويبدو أن هذا الطريق هو أقصر المسالك المؤدية إلى بلاد السودان، إذ لا تتعدى مسافته أكثر من مسير شهر. كما أنه اختص بجلب الرقيق وبيعهم في الأسواق، أو لتشغيلهم في الزراعة، والصناعة.[849]

أما الطريق الذي يخرج من غدامس إلى «غات» و«إيري» وممالك الهوسا، فإنه يتجه من غدامس إلى فزان وطرابلس، أو إلى مصر سواء عن طريق بحيرة تشاد، أو عن الطريق الذي أشار إليه البكري، والذي يربط بين الواحات الليبية والواحات المصرية، ويمتاز هذا الطريق بكثرة خطورته ومشقته يصفه صاحب الاستبصار بقوله: «لولا قلة الماء في هذه الصحراء لكان الطريق من إفريقية إلى مصر على الواحات أقرب».[850] ويبدو أن هذا المسلك هو الذي هلكت فيه قافلة من أهل الجبل ماتوا من العطش، ولم ينج منهم إلا عبد حبشي أخبر نفوسة بموتهم.[851] وكان هذا الطريق أي طريق الواحات يمر بالواحات الخارجة من صحراء مصر الغربية، ومنها إلى الواحات الداخلة إلى أن يصل إلى أوجلة. وقد ذكر البكري مفصلا مراحل هذا الطريق. فمن أوجلة إلى بلد سنترية عشر مراحل، وهي مدينة كثيرة العيون والثمار والحصون يسكنها قوم من البربر. ومن سنترية إلى بهنسى عشر مراحل، ومن بهنسى إلى أريش ثماني مراحل، ومن أريش إلى الفرفرون ثلاثة أيام، ومن الفرفرون إلى الواح الداخل أربع مراحل في صحراء لا ماء فيها ولا عمارة. وفي هذه الجهة توجد حصون منها حصن يسمى بالقصر، ثم يسير المسافر في قرى متصلة إلى حصن يسمى قلمون، ثم إلى قرية كبيرة تسمى «القصبة». ومن هذا الواح إلى الواحين الخارجين ثلاث مراحل، وهو آخر بلاد الإسلام. وبينه وبين بلاد النوبة في صحراء ست مراحل.[852] ومن المحتمل أن يعبر هذا الطريق الوحات إلى أن يصل إلى غدامس،

847 - البكري: المغرب، ص10.

848 - اليعقوبي: صفة المغرب، ص6.

849- بحاز: الدولة الرستمية، ص219-220.

850 - ينظر: ص147.

851- الوسياني: السير، (مخ)، ورقة 10

852- البكري: المغرب، ص14-15.

وغات، ثم يتجه إلى سجلماسة في أقصى بلاد المغرب، وغرب إفريقية حيث تقع مناجم الذهب.[853]

أما الطريق الذي يمتد من طرابلس ولبدة إلى غاية فزان، وكوار، وبرنو، وبحيرة تشاد، فإنه يعد شريانا حيويا ساهم في انتعاش التجارة، وتنوع السلع الصادرة والواردة، ويرجع تاريخ وجود هذا المسلك إلى العصر الروماني، ذلك أن الرومان أدركوا أهمية مدينتي جرمة، وفزان خاصة هذه الأخيرة التي تقع على الطريق الرابط بين مصر وشمال إفريقيا، وقد استعمل الفاتحون العرب هذا الطريق إبان فتحهم لبلاد المغرب.[854]

وقد تحدث «بوفيل» عن تجارة الرقيق بين برنو وطرابلس فقال: «وعلى الرغم من أن طريق فزان - كوار حمل كمية هائلة من الملح فمما لاشك فيه أنه كان طريقا للرقيق، سجل كل أوروبي سافر عن هذا الطريق فزعه من آلاف الهياكل البشرية التي انتشرت على جانبيه».[855]

و - جبل نفوسة - مصر:

من بين الطرق التي تربط جبل نفوسة بمصر، الطريق الساحلي وهو الطريق الذي يوفر سبل الأمن والراحة للتجار لكثرة الحصون المنتشرة فيه، ووجود نظام أبراج المراقبة على طول الساحل، يقول المراكشي: «كانت العمارة متصلة من مدينة الإسكندرية إلى مدينة القيروان تمشي فيها القوافل ليلا ونهارا، وكان فيما بين الإسكندرية وطرابلس المغرب حصون متقاربة جدا فإذ ظهر في البحر عدو نوّر كل حصن للحصن الذي يليه، واتصل التنوير فينتهي خبر العدو من طرابلس إلى الإسكندرية»،[856] وقد ذكر اليعقوبي مجموعة من الحصون مثل حصن «وادي مخيل»، «أجية»، «الجبل الشرقي»، و«الجبل الغربي»، ببرقة «، أجدابية»، «لبدة»، وغيرها».[857]

يخرج هذا الطريق من جبل نفوسة إلى طرابلس مسير ثلاثة أيام، ومن طرابلس إلى وادي الرمل عشرون ميلا، ومن وادي الرمل إلى المجتني المسافة نفسا، ومن المجتني إلى ورداسة إثنان وعشرين ميلا، ومن ورداسة إلى دغوغا ثمانية عشر ميلا، ومن دغوغا إلى تاورغا عشرون ميلا، ومن تاورغا إلى المنصف أربعة وعشرين ميلا، ومن المنصف إلى

853 - صالح مصطفى مفتاح: ليبيا منذ الفتح، ص227-228.

854 - المرجع السابق، ص219.

855 - المرجع نفسه، ص219.

856 - المراكشي: المعجب، ص196.

857 - صفة المغرب، ص2.

مغمداس أربعين ميلا، ومن مغمداس إلى القرنين عشرين ميلا، ومن القرنين إلى سرت ثمانية عشر ميلا، ومن سرت إلى قبر العبادى أربعة وثلاثون ميلا، ومن قبر العبادى إلى اليهوديتين أربعة وثلاثين ميلا، ومن اليهوديتين إلى قصر العطش أربعة وعشرين ميلا، ومن قصر العطش إلى منهوشة أربعة وثلاثين ميلا، ومن منهوشة إلى حي نجوة ثلاثون ميلا، ومن حي نجوة إلى أجدابية عشرون ميلا، ومن أجدابية يتجه الطريق إلى سلوق، ومن سلوق إلى أوبران ثم إلى قصر العسل فإلى برقة.[858]

ومن أراد أن يسلك من برقة إلى مصر اتجه إلى وادي مخيل والذي يبعد عن برقة بثلاث مراحل، ومنه إلى جب الرمل، ثم إلى قصور الروم، ثم إلى مغاير رقيم، ثم إلى القصر الأبيض، ثم العقبة، ثم الرمادة - وهي آخر منازل البربر يسكنها قوم من مزاتة والعجم والعرب - من بلّى وجهينة وبني مدلج وغيرهم، ومن الرمادة إلى قصر الشماس أو خربة القوم ثم إلى منزل «معن»، ثم إلى منازل بني مدلج، ثم إلى ذات الحمام، ثم إلى بومينا، ومن إلى «المنى»، ثم إلى ترنوط، ومنه إلى مدينة الفسفاط.[859]

ز - جبل نفوسة - تاهرت - فاس:

أما عن الطريق الذي يربط جبل نفوسة بتاهرت عاصمة الرستميين فإنه يمر ببلاد الجريد، فالنفوسي إذا أراد السفر إلى تاهرت فإنه يتجه إلى مدينة قفصة، وهناك يجد ثلاثة مسالك: مسلك يتجه إلى القيروان مسافته مسيرة سبع مراحل، ومسلك يتجه إلى تاهرت عبر سطيف، هذه المدينة التي تبعد عن تاهرت بعشرين مرحلة، وعن القيروان بعشرة مراحل، ومسلك ثالث كان مستعملا في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) يمر بمدينة مجانة والمسيلة وأشير مسيرته أربعة عشر يوما، وهو أقصر الطرق، أما الطريق الذي يربط بين مدينتي قفصة والمسيلة، فقد عدد لنا ابن حوقل مراحله، فمن قفصة إلى قسطيلية، ومن قسطيلية إلى نفطة بعض مرحلة، ومن نفطة إلى مدالة مرحلة، ومن مدالة إلى تادميت مرحلتان، ومن تادميت إلى باديس مرحلة، ومن باديس إلى تهودا مرحلة، ومن تهودا إلى بسكرة - قاعدة الزاب - مرحلة، ومن بسكرة إلى طبنة مرحلتان، ومن طبنة إلى مقرة، ومن مقرة إلى المسيلة.[860]

وإذا رغب المسافر أن ينتقل من تاهرت إلى عاصمة الأدارسة فاس فإنه يسير خمسة وعشرين يوما إلى مدينة تلمسان، ومنها إلى فاس أربعة وعشرين ليلة، وبالتالي فإن

858 - البكري: المغرب، ص4-6؛ صالح مصطفى: ليبيا منذ الفتح، ص225-227.

859 - اليعقوبي: صفة المغرب، ص2-3.

860 - صورة الأرض، ص87.

المسافة لا تتعدى الخمسين يوما.[861] وإذا أراد الخروج من تاهرت إلى سجلماسة فإنه يسلك الطريق التي تمر بـ «أوزكا» وهي مدينة تبعد بثلاثة مراحل عن تاهرت. ومن أوزكا إلى سجلماسة سبع مراحل.[862]

جـ - جبل نفوسة - غانه:

وهناك مسلك صحراوي آخر يربط جبل نفوسة بغانة مرورا بوارجلان. وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى أن أقدم مسلك يؤدي إلى غانة كان ينطلق من مدينة طرقلة حاضرة السوس الأقصى، قبل تأسيس مدينة سجلماسة سنة 140هـ (757م). وتشير المصادر الإباضية إلى أن التجار الإباضية قد سافروا إلى غانة مرورا بوارجلان. ولا يستبعد أن يكون هؤلاء قد جاؤوا من إفريقية إلى أودغست، عبر المسلك الذي يمر ببلاد الجريد، ووارجلان، ومسيرته أربعة عشرة يوما.[863] وعلى الرغم من أن المصادر لا تعطينا معلومات وافية عن مراحل هذا الطريق ومحطاته إلا أن ليفيسكي يرجح أنه كان يمر بمدينة القليعة وقرارة (حاليا).[864] أما عن المراحل التي يقطعها المسافر بين سجلماسة وغانة فقد ذكرها البكري بدقة، وحدد المسافة بينهما بمسير شهرين في صحراء غير عامرة .[865] أما محطاته الرئيسية فهي: تامدلت، إيزل واودغست. فأودغست تبعد عن سجلماسة بإحدى وخمسين مرحلة. وفي موضع آخر يذكر البكري أن المسافة بينهما مسيرة شهرين.[866] أما المسافة بين أودغست وغانة فقدرت بإثني عشر مرحلة، وبين أودغست ووارجلان إحدى وثلاثين مرحلة.[867] وتبقى بعض المحطات غير معروفة، فـ «إيزل» مثلا هي كدية إيجيل، التي ظهر على مقربة منها في فترة متأخرة موضع يسمى «حصن الملح»، وهو الحصن الذي كان التجار يأخذون منه الملح لبيعه في بلاد السودان.[868] أما تامدلت فهي إحدى قرى بني درعة وسكانها بنو ترجا من البربر،[869] وقدوصفها صاحب الاستبصار بأنها مدينة كبيرة حافلة بالأسواق، كثيرة العمارة،تبعد عن درعة مسيرة ستة أيام.[870]

---

861 - جودت عبد الكريم: العلاقات الخارجية، ص205؛ بحاز: الدولة الرستمية، ص189.

862 - اليعقوبي: صفة المغرب، ص20-21؛ جودت: المرجع نفسه، ص224-225؛ بحاز: المرجع نفسه، ص190.

863 - الحميري: الروض المعطار، ص60.

864 - T. Lewicki: Etudes Maghrebines, p45.

865 - ينظر: المغرب، ص149

866 - المصدر نفسه، ص159-164-168.

867 - الإدريسي: القارة الإفريقية، ص89.

868- ابن سعيد: كتاب الجغرافيا، ص113؛ T. Lewicki: Etudes Maghrebines, p45.

869 - اليعقوبي: صفة المغرب، ص27.

870 - ينظر: ص213.

وقد اكتفى اليعقوبي بذكر محطتين فقط بين سجلماسة وبلاد السودان، فالمحطة الأولى هي مواطن قبائل أنبية من صنهاجة والتي تبعد بخمسين مرحلة عن سجلماسة. أما المحطة الثانية فهي غسط وهي مدينة تقع في واد عامر كثير المنازل.[871] وتوجد محطة أخرى ذكرها ابن سعيد وهي «أزقي»، التي تبعد مسير سبعة أيام عن حصن الملح.[872] ويبدو أن الطريق إلى غانة يبدأ من هذه المحطة. يقول الحميري: «هي أول مراقي الصحراء، ومنها إلى سجلماسة ثلاثة عشر مرحلة، ومنها إلى نول لمطة سبعة مراحل... ولابد من الدخول على هذه المدينة لمن أراد تكرور وغانة من بلاد السودان».[873]

ظلت غانة لحقبة طويلة ملتقى للقوافل التجارية، ففيها كان يجتمع التجار، ومنها ينتقلون إلى بلاد التبر، ومنه كانوا يتزودون بالمؤن.[874]

وهناك طريق آخر يربط بلاد «جدالة» بغانة. فجدالة تقع شمال مجرى نهر السينغال الأدنى، فهي أقرب بلاد الإسلام إلى بلاد السودان، وأقرب مدينة من مدن السودان إليهم مدينة صنغانة التي تبعد عن جدالة مسير ستة أيام، وتلي مدينة صنغانة مدينة تكرور،[875] وهناك مسلك يربط غانة بمدينة تادمكة مسيرته خمسين يوما، والطريق بين غانة وبين سفنقو آخر عمل غانة مسيرته ثلاث مراحل، ثم إلى بوغارت، ومنها إلى مدينة تيرقي، ثم إلى تادمكة.[876] فأما تيرقي فهي مدينة عامرة آهلة، بها أسواق حافلة يجتمع فيها التجار من مختلف الأمم. وتبعد تادمكة عن غانة بحوالي خمسين مرحلة.[877]

كما يربط غانة طريق آخر بمصر يمر على كوكو، ومرندة، وزويلة، وأجدابية، فمن غانة إلى كوغة مسير شهر، وهي مدينة آهلة يتجهز إليها بالملح، والودع، والنحاس المسبوك، واشتهرت بوفرة الذهب لكثرة معادن التبر به. ومن كوغة إلى سامة أقل من شهر، ومن سامة إلى كزم شهر كذلك، ومن مرندة إلى زويلة شهران، ثم إلى أجدابية شهر، ومن زويلة إلى فزان خمسة مراحل، ومن فزان إلى زغاوة شهران. وقد أهمل هذا الطريق وتركه التجار لصعوبته، وذلك في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، فقد ذكر ابن حوقل أن العديد من القوافل التي سلكت هذا الطريق قد هلكت بسبب تعرضها للعواصف

---

871 - المصدر السابق، ص22.

872 - كتاب الجغرافيا، ص113.

873 - الروض المعطار، ص28.

874 - ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج4، ص184.

875 - مجهول:الاستبصار،ص217

876 - البكري: المغرب، ص181.

877 - مجهول: المصدر السابق، ص222.

الرملية، ولقطاع الطرق، وأصبحت القوافل تجتاز بالمغرب إلى سجلماسة.[878]

ورغم وجود هذا الطريق الذي يربط فزان بغانة إلا أن التجار الإباضية قد سلكوا الطريق المار بوارجلان. فقد عرج أبو موسى هارون بن أبي عمران الوسياني - أحد شيوخ المذهب - على وارجلان في أثناء سفره إلى غانة وغيارو،[879] التي تقع في السودان الغرب، وهي من الأماكن التي يوجد فيها أفضل أنواع التبر. تبعد عن غانة عاصمة المملكة بسبعة أيام.[880] كما أن تاجرا إباضيا آخر يدعى عمران بن محمد بن رستم سافر إلى غانة انطلاقا من وارجلان.[881] كما قدم الشيخ إسماعيل بن علي النفزاوي من «تين بمر» الواقعة قرب «نفزاوة» قاصدا غانة. وفي طريقه بات في قرية «توات» إحدى قرى مدينة وارجلان في ضيافة أبي العباس أحمد بن محمد بن علي (النصف الثاني من القرن الخامس الهجري).[882]

وهكذا نلاحظ بأن التجار الإباضية وصلوا إلى المدن النائية لشراء السلع التي تدر عليهم أرباحا طائلة، رغم مخاطر الطريق وبعد المسافة إذ أن في أغلبه مفازة. يقول ابن خلدون: «(إن) نقل السلع من البلد البعيدة المسافة أو شدة الخطر في الطرقات يكون أكثر فائدة للتجار أو أعظم أرباحا... ولهذا تجد التجار الذين يولعون بالدخول إلى بلاد السودان أرفه الناس، وأكثرهم أموالا، لبعد طريقهم، ومشقته، واعتراض المفازة الصعبة، المخطرة بالخوف، والعطش».[883] فلا غرابة إذن أن يبعث تملى الوسياني من تادمكة ستة عشر كيسا، كل كيس فيه خمسمائة دينار إلى أبي عمران موسى بن سدرين ليوزعها على الفقراء والمحتاجين.[884] وقيل ستة عشر كيسا مملوءة ذهبا.[885] كما أن الشيخ عبد الحميد الفزاني وهو عالم كبير من علماء أهل الدعوة يسافر إلى بلاد السودان، ولا نعرف الطريق الذي سلكه. فالوسياني يذكر أن المسافة بين جبل نفوسة وبلاد السودان مسير شهر.[886]

878 - المصدر نفسه، ص65.
879 - الشماخي: السير، ص372-373.
880 - البكري: المغرب، ص177.
881 - الشماخي: المصدر السابق، ص516؛ T. Lewicki: Etudes Maghrebines, p43.
T. Lewicki: Quelques Extraits Inedites Relatifs Aux Voyages Des Commercants Et Des Missionnaires Ibadites Nord-Africains Au Pays De Soudan Occidentale F.O, 1960, T2, p19-20.
882 - T. Lewicki: Etudes Maghrebines, p43.
883 - ينظر: المقدمة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1968، ص706-707.
884 - الشماخي: السير، ص411.
885 - مجهول: كتاب المعلقات، مخطوط بمكتبة العطف غرداية، و9-10.
886 - السير، ج2، و4.

وبفضل تجار نفوسة توغل الإسلام وانتشر في مدينة غانة وما جاورها من بلاد السودان فالفضل يرجع إلى العالم التاجر علي بن يخلف النفوسي التميجاري.[887]

وفي المقابل جاءت قوافل التجار من التكرور إلى جبل نفوسة في زمن أبي عمرو ميمون بن محمد الشروسي، وقد جمعوا له أربعمائة دينار لكن أبا عمرو رفضها وأمر بإغلاق الأسواق والبروز إلى التكرور من أجل الانتفاع بالبيع والشراء.[888]

ط - جبل نفوسة - مدن إفريقية:

كما ارتبط جبل نفوسة بمجموعة من المسالك مع مدن إفريقية، فمن الجبل إلى طرابلس ثلاثة أيام، ومن طرابلس إلى قابس ست مراحل إلى جهة القيروان، وهي جادة الطريق.[889] وقيل خمس مراحل،[890] وقيل عشر مراحل.[891] ومن قابس إلى مدينة سفاقس سبعون ميلا، ومن سفاقس إلى قفصة ثلاثة أيام، ومن سفاقس إلى المهدية مرحلتان، وهي مدينة آهلة عامرة كانت مرفأ للسفن التجارية القادمة من بلاد المشرق والمغرب والأندلس وبلاد الروم.[892] كما اشتهرت مدينة سفاقس هي الأخرى بكثرة حماماتها، وفنادقها، كما أنها كانت محطة للسفن، يقصدها التجار من مختلف الآفاق بالأموال الكثرة لشراء السلع الواردة إليها، من الإسكندرية والشام وبرقة.[893]

ومن أراد المسير إلى القيروان فإن المسافر يخرج من سفاقس إلى «طرفى» وهو بلد عامر بالسكان، ومنه إلى قصر رباح ثم إلى القيروان.[894] ومن القيروان إلى رقادة أربعة أميال،[895] وقيل ثمانية أميال. ومن القيروان إلى سوسة مرحلة، ومن القيروان إلى الجزيرة مرحلة، ومن القيروان إلى باجة ثلاثة مراحل. ومن القيروان إلى الأربس مرحلتان، ومن القيروان إلى مجانة أربع مراحل، ومن القيروان إلى بلاد الزاب عشرة مراحل.[896] ومن مدينة القيروان إلى تونس مرحلتان.[897]

887 - عبد الله بن يحي الباروني: رسالة سلم العامة والمبتدئين إلى معرفة أئمة الدين، مطبعة النجاح، القاهرة، 1324هـ، ص21-22.
888 - الشماخي: السير، ص273؛ معمر: الإباضية في ليبيا، ص167.
889 - ابن حوقل: صورة الأرض، ص72.
890 - اليعقوبي: صفة المغرب، ص8.
891 - المراكشي: المعجب، ص197.
892 - الإدريسي: القارة الإفريقية، ص182.
893 - البكري: المغرب، ص20.
894 - المصدر نفسه، ص20-21.
895 - نفسه، ص27.
896 - اليعقوبي: صفة المغرب، ص8-11.
897 - الإدريسي: القارة الإفريقية، ص186.

وهناك طريق مباشر يربط الجبل بمدن بلاد الجريد، فمن قفصة إلى الجبل في جهة الجنوب نحو مسير ستة أيام، ومن قفصة إلى نفطة مرحلتان ومن نفطة إلى قابس ثلاثة مراحل وبعض مرحلة،[898] وعلى العموم فإن أغلب المسافات التي تربط الجبل بالمدن الإفريقية قصيرة فمن الجبل إلى سفاقس تسع مراحل، ومن الجبل إلى قسطيلية ست مراحل، ومنه إلى جبل دمر ثلاث مراحل،[899] وبين الجبل ومدينة القيروان مسيرة ستة أيام.[900]

ونظرا لقرب المسافة فقد كانت هذه المدن تعج بالتجار الإباضية خاصة وأن جاليات منهم تسكن في جزيرة جربة، قابس، القيروان وأغلب مدن بلاد الجريد. فمن هذه المدن كان النفوسي يشتري السلع القادمة من مختلف الأمصار البعيدة التي تأتي بها السفن وعن طريق موانئ طرابلس، قابس، المهدية، جربة، كان يصدر منتجاته التي اشتهر بها الجبل.

ونظرا للدور الذي تلعبه الطرق التجارية في ازدهار حركة التجارة فقد اهتمت بها الدول الإسلامية في بلاد المغرب، فعملت على صيانتها وحمايتها، وبناء المحطات والحصون على طول الطرق الهامة حتى توفر الأمن للتجار. ومنذ أن فتح العرب هذه البلاد واستقروا فيها أولوا عناية كبيرة للطرق فمهدوها، وأنشأوا المحطات المزودة بالخيل على مسافات متقاربة، فلما قامت الدولة الرستمية في المغرب الأوسط (160-296هـ) ساهم أئمتها مساهمة فعالة في تنشيط حركة التجار، فمهدوا السبل إلى مختلف الأصقاع. كما كانت للأئمة قوافلهم الخاصة التي كانوا يرسلونها إلى بلاد المشرق للتجارة، مثل القافلة التي رحل رفقتها الإمام أبو اليقظان في طريقه إلى الحج، يقول ابن الصغير: «استعملت السبل إلى بلاد السودان، وإلى جميع البلدان من مشرق ومغرب، بالتجارة وضروب الأمتعة... والعمارة زائدة، والناس والتجار من كل الأقطار تاجرون».[901] فجاء التجار إلى تاهرت من كل الأمصار واستوطنوها، ومما شجع التجارة وأنعش الحياة الاقتصادية في الدولة الرستمية هو أن بعض أئمتها مارسوا التجارة، فقد كان الإمام عبد الوهاب تاجرا أيام أبيه.[902] وقد تزايدت أهمية التجارة في عهد أفلح، فكثرت الأموال، وجاءت الوفود من كل الأمصار والآفاق بمختلف أنواع السلع، فازدادت رفاهية الناس، فأبتنوا القصور، والضياع خارج

898 - الإدريسي: المصدر نفسه، ص179-180.

899 - نفسه، ص199-200.

900- مجهول: الاستبصار، ص144.

901 - أخبارالأئمة الرستميين، ص36-37.

902 - الباروني: الأزهار، ص189.

تاهرت [903] وانتشرت القبائل حول المدينة، وكثُرت الأموال بأيديهم. ويرجع سبب هذا الرخاء كما ذكرنا إلى الاهتمام بطرق القوافل، وتوفير الأمن لها، وتأديب قطاع الطرق، رغم صعوبة تحقيق مثل هذا الأمر. فقد خرج الإمام أبي حاتم على رأس حاميته لحماية قوافل قدمت من المشرق فيها أموال لا تحصى خشية أن ينالها قطاع الطرق من قبائل زناتة.[904]

كما اهتم الأغالبة هم الآخرون بالطرق التجارية، فاعتنوا بها، وأقروا الأمن فيها بإقامة محارس ومخافز على طول الساحل. وقد أدى هذا إلى ارتباط المدن المغربية بقوافل التجارة. فكان التجار الإباضية في الحدود الشرقية للدولة الرستمية يقومون بدور كبير في نقل السلع القادمة من مصر إلى المدن الرستمية بالمغرب الأوسط.[905]

ولم يهمل خلفاء بني عبيد كذلك هذه الطرق، بل أعطوها عناية كبيرة، حيث أنشأوا أماكن الاستراحة على طول الطرق، وحفروا الآبار، وأنشأوا الأساطيل لحماية سواحلهم من أعمال القرصنة. ولعل أهم طريق حظي باهتماماتهم هو الطريق المؤدي إلى مصر. فقد أمر الخليفة المعز لدين الله سنة 355هـ (965م) عمال برقة بحفر الآبار، لتوفير المياه على طول الطريق. كما وضعوا الحاميات العسكرية في الحصون والقلاع الممتدة على طول الساحل.[906] وقد سبقت الإشارة إلى أن المراكشي قد ذكر أن العمارة كانت متصلة من الإسكندرية إلى القيروان، وأن القوافل كانت تمشي ليلا ونهارا في هذا الطريق في مأمن، وأن حصونا كثيرة متقاربة موجودة بين الإسكندرية وطرابلس.[907] وقد ذكر اليعقوبي بعض أسماء هذه الحصون مثل: حصن وادي مخيل، وحصن بلبدة، وحصن بأجدابية، ومحارس بمدينة يقال لها أجية.[908] وانتشرت الأربطة، والحصون، والقصور، فقد بلغ عدد القصور الموجودة بين قابس وطرابلس خمسة وعشرون قصرا،[909] وبين طرابلس وسلوق ثمانية وثلاثون قصرا. فلا مندوحة إذن أن يقول القاضي النعمان في وصف الأمن والاستقرار والطمأنينة على هذا الطريق: «إن التجار يسافرون بالأموال الصامتة، والنعم الظاهرة، يمر بها الواحد والإثنان في الجبال، والشعارى، بالفلوات، والبراري، فيبيت حيث

903 - ابن الصغير: المصدر السابق، ص61-62؛ جودت عبد الكريم: الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين (9-10م)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992، ص196.

904 - ابن الصغير: المصدر نفسه، ص104؛ سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج2، ص500.

905 - صالح مصطفى: ليبيا منذ الفتح، ص222.

906 - صالح مصطفى: المرجع نفسه، ص223.

907 - المعجب، ص196.

908 - صفة المغرب، ص2-3-4-6.

909 - صالح مصطفى: ليبيا منذ الفتح، ص224.

أمسى، ويسير حيث أحب واشتهى، كأنما في سوقه يبيت آمنا ويصبح سالما».[910]

ورغم حدوث ثورات وحروب كثيرة في العهد الفاطمي، إلا أن ذلك لم يكن عائقا يشل حركة التجارة إذ ظل الخلفاء حريصين على تأمين الطرق لأنهم كانوا في أمس الحاجة لذهب السودان، ورقيقه ليتمكنوا من تحقيق أغراضهم السياسية البعيدة المدى.[911]

وظلت أوضاع هذه الطرق على هذه الحال حتى بعد انتقال الفاطميين إلى مصر، وقيام الدولة الزيرية، ولكن بعد الغزو الهلالي أضحت المسالك التجارية صعبة وخطيرة خاصة الطريق الساحلي الذي يربط بين إفريقية والإسكندرية. فقد كانت المدن الليبية مثل برقة، أجدابية، سرت، وطرابلس، أول متضرر من هذا النزوح حيث عمت الفوضى، وانتشرت أعمال السلب، والنهب، لكثرة قطاع الطرق، وقد تضرر جبل نفوسة هو الآخر من انتشار البدو الهلاليين حوله.[912]

وقد حرص إباضية جبل نفوسة قبل قدوم الهلاليين على حماية الطرق التجارية والضرب بقوة قطاع الطرق، وقد مر بنا أن أبا الفضل سهل جهز حملة عسكرية إلى غدامس لوقوع فساد فيها.

كما رتب على جهة من الجهات المعرضة للسلب والنهب حامية لضرب اللصوص.[913] كما حافظوا على صيانتها دوريا، فالشماخي يخبرنا بأن أبا محمد القنطراري - وهو أحد مستجابي الدعاء - كان عندما ينتقل إلى جادو يصلح طريق جبل تالكيت بقنطرارة، والمسافة بين قنطرارة وجادو أربعة وعشرين ميلا.[914]

ي - مسالك الجبل:

ومن نافلة القول أن نتعرض للمسالك التي تربط بين المدن والقرى النفوسية، بعد أن تناولنا الطرق التجارية المعروفة التي تربط الجبل بمختلف المدن المغربية ومصر وبلاد السودان. لقد ارتبطت هذه القرى بشبكة من الطرقات سهلت السفر للتجار وللعلماء والطلبة، خاصة الطرق المؤدية إلى حواضر الجبل المشهورة مثل جادو، شروس، ميري، إجناون، وغيرها. فحاضرة شروس وحدها توجد في أرباضها حوالي ثلاثمائة قرية. وقد امتدت هذه الطرق إلى سفح الجبل، وهي المنطقة المعروفة بالجفارة المحاذية لإقليم

910 - جودت عبد الكريم: الأوضاع الاقتصادية، ص195.
911 - جودت عبد الكريم: المرجع نفسه، ص195.
912 - صالح مصطفى: ليبيا منذ الفتح، ص225.
913 - علي يحي معمر: الإباضية في ليبيا، ص169-170.
914 - ينظر: السير، ص255.

طرابلس. وتعد هذه الطرق طرقا محلية حيث لم نجد في مصدر من المصادر الجغرافية ذكرا لأي جادة تعبر الجبل. فالطريق الساحلي الذي يربط المشرق بالمغرب يمر شمال الجبل، والطريق الصحراوي يسلك إلى جنوبه. وهكذا نلاحظ أن موقع الجبل يتوسط الجادتين. أما عن الطرق الداخلية فهناك طريق يربط مدينتي شروس وجادو بلالوت الواقعة على ضفاف الوادي الذي تحمل اسمه وهو وادي عميق، غزير المياه كثير الأشجار حتى إن البساتين الموجودة على طرفيه تمتد إلى مسافة أربعين ميلا تقريبا نحو الغرب، حتى تتصل بقرية تسمى «وازّن» والتي تبعد بمرحلة عن لالوت.[915] أما المسافة بين «ويغو» وتنورزيرف فهي نيف وعشرون ميلا.[916] وبين كباو وقنطرارة خمسة عشرة ميلا.[917] وبين إجناون و «أوملن» أربعون ميلا.[918] وبين قنطرارة وجادوعن طريق جبل «تالكيت» أربعة وعشرون ميلا.[919] وإلى الجنوب من جادو تقع قرية «أرجان»، وإلى شمالها تقع مجموعة من القرى مثل: القصير، اشبارى، ويوجلين. وإلى الشمال الشرقي من هذه القرى تقع قرية «طرميسة» التي تبعد عنها نحو أربعة أميال.[920] أما الطريق بين جادو وميري فمسافته مسير نصف ميل.[921] وإلى الجنوب من ميري بنحو ميلين تقع أدرف.[922] والتي تبعد عن جادو مسير ساعتين،[923] ومن أرجان إلى إيجيطال ستة أميال، فمن أرجان إلى إمرساون ثم تيمجار ثم إدوناط، ومن هذه الأخيرة إلى إيجيطال.[924] أما المسافة بين «سنتوت» و«تدينة» فتزيد عن أربعة وعشرين ميلا،[925] والمسافة بين «تندوزيغ» واجناون عشرة أميال.[926] ونلاحظ أن المسافة بين مدن وقرى الجبل غير بعيدة، تربطها مسالك جبلية وعرة. وقد صعب على الباحث معرفة المسافات لأن المصادر الجغرافية - كما قلنا - لم تفصل لنا ذلك وحتى المصادر الإباضية أهملت هذا الجانب.

915 - الباروني: رسالة سلم العامة، ص33؛ علي يحي معمر: الإباضية في ليبيا، ص171-172.
916 - الشماخي: السير، ص218.
917 - علي يحي معمر: المرجع السابق، ص180.
918- الشماخي: المصدر السابق، ص319.
919- المصدر نفسه، ص255.
920 - علي يحي معمر: الإباضية في ليبيا، ص201-202.
921 - الباروني: الأزهار، ج2، ص192.
922 - علي يحي معمر: المرجع السابق، ص211-213.
923- الباروني: رسالة سلم العامة، هامش ص34.
924 - الشماخي: السير، ص241.
925 - المصدر نفسه، ص247.
926 - نفسه، ص317.

2 - الطرق البحرية:

كانت هناك بعض الخطوط المنتظمة بين الموانئ المصرية والموانئ المغربية. ومن أهم هذه الخطوط الخط الذي يربط مدينة الإسكندرية بمدينة سبتة. ونظرا لأهمية النقل البحري اهتم الأغالبة والرستميون والفاطميون والأدارسة بالموانئ وبصناعة السفن، فأقاموا المراسي، وبنوا السفن بها. ولا نريد أن نتناول كل الموانئ المغربية وإنما سنكتفي بالحديث عن الموانئ القريبة من جبل نفوسة والتي كان النفوسيون يصدرون منها منتجاتهم.

ولعل أكبر ميناء في المنطقة هو ميناء طرابلس. ففي عصر ابن حوقل (القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي) كانت ترسوا به المراكب ليلا ونهارا قادمة من بلد الروم والمدن الساحلية المغربية بمختلف أنواع السلع.[927] فلا غرابة إذن أن يكون أكثر سكانها تجار يسافرون برا وبحرا.[928] أما ميناء صبراتة فقد كان هو الآخر مركزا تجاريا كبيرا إذ يعد منفذا إلى الجبل وداخل إفريقيا، مما ساعد المدينة على التبادل التجاري. ومما يدل على أهمية المدينة أن اسم طرابلس القديمة لازال يطلق عليها إلى يومنا هذا. ولا يستبعد أن يكون التجار الإيطاليون هم الذين أطلقوا عليها هذا الاسم.[929] كما كانت ترد على ميناء أجدابية المراكب محملة بالمتاع وتبحر منه مثقلة بضروب الأمتعة من أكسية وغيرها.[930] وكان يصدر من ميناء سرت الشب السرتي، والصوف، ولحوم المعز.[931] أما ميناء طبرقة فقد اشتهر بورود مراكب الأندلسيين،[932] ومنه يحمل الخشب، والقصب الفارسي الجيد إلى تونس.[933]

كما عرفت موانئ إفريقية القريبة من الجبل نشاطا تجاريا كثيفا. فقد ذكر البكري أن مراكب جزيرة جربة كانت تخرج إلى مرسى الأندلسيين.[934] كما ذكر ابن حوقل والبكري أن الزيت المصدر إلى مصر يجلب منها.[935] ويضيف صاحب الاستبصار أن المراكب المحملة بالزيت تخرج منها إلى بلاد الروم لتموين سكان صقلية، وإيطاليا، وانكبوردة، وقلورية،

927 ينظر: صورة الأرض، ص72.

928 - مجهول: الاستبصار، ص110.

929 - روسي أتوري: ليبيا منذ الفتح، ص70.

930 - ابن حوقل: صورة الأرض، ص70.

931 - المصدر نفسه، ص71.

932- نفسه، ص76؛ الإدريسي: القارة الإفريقية، ص190.

933- ابن سعيد: كتاب الجغرافية، ص143.

934- ينظر: المغرب، ص85.

935- ينظر: صورة الأرض، ص73؛ والبكري :المصدر نفسه، ص20.

وغيرها.[936] أما سوسة فقد عرفت بكثرة الأمتعة، وجودة الثياب. فالثياب السوسية مشهورة وكان التجار يحملونها إلى جميع البلاد.[937] وأما ميناء المهدية فقد كان هو الآخر محطة للسفن التجارية القادمة من بلاد المشرق والمغرب، والأندلس والروم،[938] ولكنه فقد مكانته عندما انتقل الفاطميون عن المدينة.[939]

ولاشك أن تجار نفوسة قد استغلوا قرب هذه الموانئ من الجبل لتصدير منتجاتهم والسلع التي يجلبونها من بلاد السودان. ولا يستبعد أن يكون ليهود جادو دور كبير في التجارة البحرية خاصة عبر ميناء طرابلس. فقد ذكرت الوثائق أن أربع سفن أبحرت من الإسكندرية إلى ميناء طرابلس في يوم واحد. وأن العديد من تجار الشمال الإفريقي اهتموا بتجارة الشرق. وامتلأت الموانئ في جنوب الجزيرة العربية، والهند، وسيلان (سرلانكا)، بالتجار القادمين إليها من هذه الجهة سواء من برقة أم من طرابلس أم من جبل نفوسة. ولا يستبعد أن تكون هجرة اليهود من هذه المنطقة إلى الشرق كان بدافع التجارة حيث استقر العديد منهم في مصر، واليمن، والهند. وقد ازدادت هذه الهجرة خاصة مع انتقال الفاطميين إلى مصر.[940] وفي المقابل جاءت وفود التجار الآسيويين من نيسابور وسمرقند وغيرها إلى بلاد المغرب بغية الثراء نظرا لتدفق الذهب إلى هذه البلاد من السودان.[941]

ب - الأسواق:

قامت الأسواق في جبل نفوسة في المدن الكبرى نظرا لتوسعها العمراني ووجود تجمعات سكانية كبيرة فكانت لمدينة جادو مثلا أسواق كثيرة. كما كانت بمدينة شروس أسواق يقصدها التجار من كل ناحية مما يصعب إيجاد مسكن بها. فقد روت السير أن أبا يحي الفرسطائي قدم إلى شروس ليتعلم عند ابن ماطوس فلم يجد له بيتا يسكن فيه فقال: «ما أوسع شروس وما أضيق شروس».[942]

وقد اشتهرت أسواق الجبل بسلع معينة نظرا لوجود فائض كبير في إنتاج بعض المواد

936 - ينظر: ص116.

937 - نفسه، ص119.

938 - الإدريسي: القارة الإفريقية، ص182؛ البكري: المغرب، ص30؛ محمود إبراهيم عبد الله عفيفي: أحوال بلاد المغرب الاقتصادية في ظل االسيادة الفاطمية، (296-442هـ) (909-1058م). رسالة دكتوراه بكلية الآداب جامعة القاهرة، 1977، ص158.

939 - ابن حوقل: صورة الأرض، ص73.

940 - صالح مصطفى: ليبيا منذ الفتح، ص230-231.

941 - المرجع نفسه، ص231

942 - البغطوري: سير نفوسة، و24.

الغذائية كالقمح، والشعير، والتين، والزيتون، والعنب، والتمر. فكانت القوافل تقصدها من قريب ومن بعيد خاصة وأن حكام الجبل قد وفروا الأمن في هذه الأسواق وأشرفوا على تنظيمها. فقد استعمل أبو الربيع سليمان بن هارون أناسا مخصوصين لرقابة الأسواق لمنع ما لا يحل من الأموال فيها بهدف الحيلولة دون دخول الحرام إلى الجبل.[943] وكان الإشراف على سوق جادو موكلا لأبي يوسف وجدليش حيث كان يأذن لمن شاء أن يبيع ويمنع من في ماله شبهة. وقد استحدث نظام مراقبة الأسواق نظرا لدخول الريبة إلى إقليم طرابلس.[944] كما كان الشيوخ يتدخلون في تحديد أسعار السلع. فقد روي أن وكيل يتيم باع زيتونة بأربعة دنانير لرجل مجاملة ومحاباة له، فلما بلغ الخبر الشيخ أبي المهاصر أنكر ذلك.[945] هذا وتجدر الإشارة إلى أن وظيفة المحتسب لم تكن حكرا على شخص ما بل كان يقوم بها العزابة والشيوخ فكلما رأوا منكرا غيّروه.

وحفاظا على الأمن في أسواق جادو قام أبو يحي زكريا الأرجاني بتنظيمها بين القبائل. وقد مر بنا أن سوء تفاهم حدث بين بني زمور وطرميسة أدى في العديد من المرات إلى الاقتتال عندما يلتقون في جادو، فخص أبو زكريا لأهل زمور يوم الخميس من كل أسبوع، ولطرميسة يوم الأحد.[946]

ويبدو أن أسعار المواد الغذائية التي كان ينتجها الجبل كانت رخيصة الثمن لكثرة العرض، فقد كانت القوافل تأتي إلى سوق «درج» لشراء الزيت بأرخص الأثمان.[947] وقد بيعت شجرة زيتون في مدينة شروس بأربعين دينارا،[948] وبيعت شجرة تين بثلاثة أرباع دينار.[949] ويبدو من خلال ذلك أن النفوسيين عرفوا طريقة غرس الأشجار المثمرة. كما عرفت الأغنام أسعارا رخيصة، فقد بيعت الشاة بأربعة دراهم،[950] وبيع جلدها لاستخدامه في المصنوعات الجلدية بخمسة دراهم، وبيع الثور في سوق جادو بأربعة دنانير. ويلاحظ في هذا المضمار أن بعض المزارعين كانوا يلجأون إلى قطف غلاتهم من الثمار قبل أوانها ليكسبوا غلاء الأسعار. وقد مر بنا أن أبا عبيدة عبد الحميد الجناوني قد منع أهل اجناون من خرط زيتونهم قبل نضجه. وتجدر الإشارة إلى أن التعامل في الأسواق كان وفق المذهب الإباضي.

943 - الباروني: مختصر تاريخ الإباضية، ص53.

944 - الشماخي: السير، ص334.

945- المصدر نفسه، ص201.

946- البغطوري: سير نفوسة، و64؛ الشماخي: السير، ص243؛ علي يحي معمر: الإباضية في ليبيا، ص153.

947 - الشماخي: المصدر نفسه، ص315.

948- الدرجيني: طبقات المشائخ، ج2، ص418.

949 - البغطوري: سير نفوسة، و4-5.

950 - الوسياني: السير، و21.

فقد ورد سؤال من نفوسة إلى الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم عن شخص ما يقوم بشراء الطعام من الأندر ليبيعه، هل يعد هذا احتكارا أم لا ؟ وقد أجابهم الإمام بقوله: «إن الاحتكار لا يحل ولا يسع لأحد أن يطلب الضرر للمسلمين».[951]

كانت أسواق جبل نفوسة آهلة بالتجار، قدموا إليها من كل مكان. فقد أشارت المصادر إلى قدوم قوافل مثقلة بأموال التجارة السودانية من التكرور، وأراد أصحابها تقديم أربعمائة دينار لرئيس الجبل أبي عمرو ميمون بن محمد الشروسي فأبى أخذها.[952] ويبدو أن هؤلاء التجار قد تعودوا على دفع الضرائب مقابل السماح لهم بدخول الأسواق للبيع والشراء. ولا نعرف بالضبط هل هذا النظام كان معمولا به أم لا ؟ رغم أن الرواية صريحة. ويبدو أن الضرائب في الجبل لم تخرج عن حد الضرائب الشرعية لأنه لا توجد لدينا معلومات وافية عن ذلك.

ومما يدل على كثرة التبادل التجاري بين بلاد السودان والجبل، وتعامل النفوسيين مع تجار الكانم والتكرور، أنهم كانوا يتقنون اللغة الكانمية، فقد أشارت المصادر إلى أن أبا عبيدة عبد الحميد الجناوني كان يتقن عدة لغات منها اللغة الكانمية.[953]

ويرجع الفضل في ازدهار الأسواق في جبل نفوسة، وازدحام التجار فيها إلى وجود اليهود بكثرة في العديد من المدن خاصة في جادو وفي «تمنكرت». والمعروف أن احتراف اليهود للتجارة قام منذ بدايته على الجماعات اليهودية التي انتشرت في مختلف أنحاء العالم، فكونوا شبكة من العلاقات التجارية تعمل وفق الطرق التقنية المعروفة والشائعة في العالم الإسلامي القديم، خاصة وأنهم كانوا يتقنون بعض الحرف دون غيرهم، مثل صناعة المعادن الثمينة، والدباغة، والزجاج، وغيرها.[954] وكان هؤلاء اليهود المعروفون بـ «الراذانية» يسافرون من المشرق إلى المغرب، ويستوردون من هذه الأخيرة الخدم، والجواري، والديباج، وجلود الخز، وغيرها.[955]

951 - عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم: كتاب مسائل نفوسة، تحقيق: إبراهيم طلاي، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، 1991، ص131.

952 - الشماخي: السير، ص273-274؛ الباروني: مختصر تاريخ الإباضية، ص51-52.

953- الشماخي: المصدر نفسه، ص18؛ T.Lewicki: traits dhistoire du commerce transaharienne marchands et missionnaires ibadites en soudan occidental et central au cours des VIII-XII, Ethnographia Polska Varsovie 1946, vol 8, p309

954- موريس لومبhv: الإسلام في مجده الأول، ص309.

955- Hadj Sadok Mohamed: Description du Maghreb et de l'europe, au 3e S, editions carbonel, alger, 1949, p20.

ونظرا لكثرة اليهود في جادو فقد كان لهم نشاط تجاري كبير في أسواقها، إذ كانت لهم حوانيت كثيرة يمارسون فيها أعمالهم التجارية، إما كمخازن يكدسون فيها مختلف السلع القادمة من المشرق، أو من المغرب، أو من أوروبا، وإما كمحلات يمارسون فيها بعض الأعمال الصناعية كالدباغة، والصياغة، وغيرها. وكان هؤلاء اليهود أثرياء مياسير حاولوا التقرب من شيوخ الجبل للحفاظ على مصالحهم. فقد أهدوا أربعين دينارا لأبي يحي الأرجاني عندما علموا بازدياد صبي له، ولكنه أبى من أخذه.[956]

ولم تقتصر أسواق المدن النفوسية على منتجات الجبل فقط بل كانت تباع فيها السلع المجلوبة من مختلف مدن إفريقية وبلاد السودان ومصر وفزان وجرمة وسجلماسة، فقد قامت - مثلا - تجارة العبيد في مدينة ويغو.[957] ولم تقم الأسواق من أجل بيع السلع فقط بل كانت تؤدي وظيفة ثقافية كذلك. ففيها كانت تعقد حلقات الدروس والمناظرة، وفيها يلتقي العلماء والمشائخ لفض النزاعات بين القبائل. كما كانت للسوق وظيفة أخرى تتمثل في البحث عن المسروقات. فقد ذكر الدرجيني أن يتيما جاء إلى أبي معروف بدران بن جواد وأخبره بأنه رأى سيف أبيه معروضا للبيع في يد دلال في السوق، وأن زوج أخته هو الذي سلمه له، وحقه في السيف باق. فاستحضر أبو معروف الدلال وقال له: «أشهر نصيب الابنة دون نصيب أخيها».[958]

جـ - السلع الصادرة والواردة:

مر بنا أن معيشة سكان الجبل كانت تعتمد على ما ينتجونه من غلات، ومحاصيل زراعية كالقمح والشعير وزيت الزيتون والتين والزبيب، والمواد المصنعة كالمنسوجات والأواني الفخارية وغيرها من المواد. وكانت هذه المواد - ونظرا للفائض الكبير في الإنتاج - تشكل أهم صادرات الجبل إلى مختلف الأصقاع سواء إلى مدن المغرب أو إلى أسواق المشرق وأوروبا وبلاد السودان. فقد كانت قوافل نفوسة تخرج من جادو وشروس وغيرها من المدن محملة بالقمح والشعير وزيت الزيتون والتين. فقد رويت السير أن أبا زكريا يحي بن سفيان اللالوتي حاكم الجبل كان يرسل حماره محملا بالزيت إلى إفريقية ليبيعه.[959] كما كانت القوافل تخرج مثقلة بالثمار لبيعها عند أهل البوادي،[960] وأسواق القيروان.[961]

956 - البغطوري: سير نفوسة، و64

957 - الشماخي: السير، ص218.

958 - الدرجيني: طبقات المشائخ، ج2، ص326؛ جودت عيد الكريم: الأوضاع، ص137.

959 - البغطوري: سير نفوسة (مخ)، و6.

960 - الوسياني: السير، ص32.

961- مجهول: كتاب المعلقات، (مخ)، و18.

وقد لاقت هذه السلع التي تمتاز بقابليتها للتخزين مدة زمنية طويلة رواجا كبيرا في الحركة التجارية. فقد كان التين المجفف والزبيب والحبوب من أهم الصادرات، بالإضافة إلى بعض المصنوعات اليدوية، كالأواني الفخارية والتي اشتهرت بها قرية ويغو، والملابس الصوفية، والأحذية، ومواد الزينة كالكحل النفوسية، التي أشادت بجودتها المصادر.

وقد استفاد النفوسيون من موقع موطنهم الاستراتيجي فهو من جهة قريب من الطريق الساحلي الذي يربط المغرب بالمشرق، وقريب من الموانئ التجارية كميناء طرابلس، وصبراتة، وقابس والتي كانت تغص بالسفن التجارية، ومن جهة أخرى قريب من الطرق الصحراوية المؤدية إلى بلاد السودان، أو إلى صحراء المغرب الأوسط، مرورا ببلاد الجريد والزاب. ولهذا فإننا نعتقد أن التبادل التجاري لم يكن مقتصرا على السلع التي ذكرناها سابقا، وأن تجار نفوسة كانوا يقومون بدور الوسيط، خاصة وأن اليهود قد كونوا طبقة من التجار ربطوا بلاد المشرق بالمغرب، ولم يتخصصوا في سلعة واحدة، بل كانوا يتاجرون في مختلف أنواع السلع التي تعود عليهم بالأرباح الطائلة. وتأتي في المرتبة الأولى الأقمشة، ومنتجات الحرير في العالم الإسلامي، والنسيج المقصب، والديباج المجلوب من بيزنطة، وفي المرتبة الثانية تجارة الحبوب.[962]

ولاشك أن الجالية اليهودية الكبيرة التي كانت تقيم في مدينة «جادو» كانت لها علاقات تجارية وطيدة مع اليهود المقيمين في المدن المغربية، فمدينة «فاس» مثلا كانت: «أكثر بلاد المغرب يهودا يختلفون منها إلى جميع الآفاق».[963]

وقد تحدث ابن خرداذبة عن اليهود الراذانية فقال: «إنهم يسافرون من المشرق إلى المغرب، ومن المغرب إلى المشرق برا، وبحرا، يجلبون من المغرب الخدم، والجواري، والغلمان، والديباج، وجلود الخز، والفراء، والسمور، والسيوف، ويركبون من فرنجة في البحر الغربي، فيخرجون بالفرما، ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلزم... ثم يركبون البحر الشرقي من القلزم إلى الجار وجدة، ثم يمضون إلى السند، والهند، والصين، فيحملون من الصين المسك، والعود، والكافور، والدارصيني وغير ذلك».[964]

وقد كان تجار جبل نفوسة يتاجرون في العديد من السلع ويتجولون في مختلف الأسواق المغربية خاصة في المدن التي يتواجد بها إخوانهم في المذهب، فقد كانوا

962 - موريس لومبار: الإسلام في مجده الأول، ص314-315.

963 - البكري: المغرب، ص115.

964 - Hadj Sadok Mohamed: Description du Maghreb, p20.

يشترون اللباس ومواد الزينة من طرابلس ويبيعونها في سوق الخميس بجربة.[965] كما كانوا ينتقلون إلى تاهرت وهي عاصمة دولتهم لشراء مختلف السلع القادمة من الأندلس، ومن سجلماسة بالمغرب الأقصى، ومن بلاد السودان. فقد أشادت المصادر بكثافة النشاط التجاري فيها. يقول ابن الصغر: «وأتتهم الوفود والرفاق من كل الأمصار وأقاصي الأقطار... واستعملت السبل إلى بلد السودان، وإلى جميع البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة وضروب الأمتعة، فأقاموا على ذلك سنتين، أو أقل من ذلك، أو أكثر، والعمارة زائدة، والناس والتجار من كل الأقطار تاجرون».[966] فلا مندوحة إذن أن تكون أسواق تاهرت مكدسة بالسلع خاصة وأن علاقات بني رستم مع الأندلس ومع بني مدرار كانت تتسم بالمحبة والمودة وحسن الجوار. فهي أحد معادن الدواب والبغال والبرازين والأغنام، ويكثر عند سكانها العسل والسمن،[967] وبها المصنوعات النسيجية بمختلف أنواعها من وصفية وكتانية وحريرية، وبها من المعادن الحديد والزئبق وغيرهما.[968] وكان تجار نفوسة يسافرون دوما إلى عاصمة دولتهم، خاصة وأن جالية كبيرة من النفوسيين كانت تقيم فيها. وقد تحدثت المصادر كثيرا عن تلك الأسفار. يقول الوسياني: «إذا أراد الزيارة للولاة (يقصد أبا مرداس مهاصر)أخذ الوصايا من أهل الدعوة أهل الجبل... فيرفعها لتاهرت لنفع بيت مال المسلمين، ولنفع أرباب الوصايا بالرخص، فإذا وصلها وهيأها ويجمعها جميعا في موضع عرمة واحدة يؤذن للمساكين فيرفعون ما قدر لهم وهن مختلطات بغير دليل».[969]

ولا شك أن تجار نفوسة كانوا يحملون الى تاهرت بعض السلع القادمة من المشرق أو من بلاد السودان عن طريق زويلة وغدامس. ذلك أن زويلة وغدامس اشتهرتا بغزارة ثروتهما الحيوانية، وبصناعة الجلود التى فاقت غيرها فى الجودة، كأنها ثياب الخز فى النعمة والإشراق.[970] كما انتفع تجار نفوسة من السلع التى تنفرد بها مثل القطران وما

965 - الوسياني: السير، (مخ)، و55.

966 ينظر: أخبار الأئمة الرستميين، ص36-37.

967- ابن حوقل: صورة الأرض، ص86؛ الإدريسي: القارة الإفريقية، ص157.

968 - محمود إسماعيل: الخوارج في المغرب الإسلامي، ص206؛ الحريري: الدولة الرستمية، ص232.

969 - السير (مخ) ورقة7

970 - ياقوت الحموي: معجم البلدان،مج4،ص187 ؛ أبو الفدا: كتاب تقويم البلدان، صححه رينود والبارون ماك كوكين دوسلان، دار الطباعة السلطانية ، باريس 1830 ،ص137 ؛ مجهول : كتاب الإستبصار، ص145؛ القلقشندي: صبح الأعشى فى صناعة الانشا، عرض وتحليل عبد اللطيف حمزة، المؤسسة العامة للطباعة والنشر القاهرة (د.ت)ج5،ص105 ؛محمد سليمان أيوب: تاريخ مختصر فزان، ص85-86 ؛صالح مصطفى: ليبيا منذ الفتح، ص 208 CH :solvet :déscription des pays du maghreb,p130

يباع فى أسواقها من صوف وفلفل وعسل وشمع، ومختلف السلع، خاصة وأن أسعارها رخيصة، ويبيعونها فى الأسواق البعيدة التى تفتقر لمثل هذه السلع.[971]

ومن المحتمل أن تكون لنفوسة علاقات تجارية كثيفة مع بلاد الجريد نظرا لوجود أعداد هائلة من الإباضية ترتبط روحيا بالجبل. فقد اشتهرت مدينة قفصة بالفستق الذي تنفرد بإنتاجه. كما اشتهرت بدهن البنفسج، وخل العنصل الذي يجلب منها إلى مختلف الأمصار،[972] وبإنتاج التفاح المسمى بـ «السدسى»، وبالرمان، والأترج، والموز، والتمر المسمى بـ «الكسبا»، وبصناعة الأردية، والعمائم الصوفية، والأواني الخزفية، والزجاج.[973] أما درجين فقد عرفت بصناعة الكسى المعروف باسمها، وهو شبيه بالكسى السجلماسي، ولكنه أقل جودة.[974] واشتهرت قابس بكثرة الثمار. فالموز الذي تنتجه حقولها ليس له شبيه بإفريقية. كما عرفت بإنتاجها الوفير من الحرير،[975] وبصناعة دبغ الجلود بالقرظ والذي صدرته إلى مختلف المدن المغربية.[976] وكان تجار نفوسة يسافرون إلى القيروان للانتفاع بضروب الأمتعة المتوفرة في أسواقها. وقد روى أبو زكرياء أن أبا القاسم يزيد بن مخلد كان له عشرون جملا يسافر بها إلى القيروان.[977] ولاشك أن هذه الجمال كانت محملة بالسلع. كما أشار صاحب كتاب المعلقات إلى خروج قافلة من الجبل محملة بالثمر يريد بها صاحبها القيروان.[978]

كما اتصل تجار نفوسة بأسواق ريغة، ووارجلان في المغرب الأوسط، خاصة وأن هذه الأخيرة كانت بوابة لولوج كل مسافر إلى بلاد السودان. ففي ريغة (أريغ) أسواق عامرة بالتجار، منها سوق تعقد يوم الجمعة يقصدها التجار.[979] أما وارجلان فقد تخصص سكانها في قيادة القوافل التجارية إلى بلاد السودان. وقد حافظت على نشاطها التجاري حتى بعد سقوط الدولة الرستمية. فمن وارجلان يدخل العبيد إلى المغرب

971 - ابن حوقل: صورة الأرض ص 86

972 - ابن سعيد: كتاب الجغرافية، ص126؛ نجاة باشا: التجارة في المغرب الإسلامي من القرن الرابع إلى القرن الثامن للهجرة، منشورات الجامعة التونسية، تونس، 1976، ص60.

973 - مجهول: كتاب الاستبصار، ص157-158.

974 - المصدر نفسه، ص159.

975 - نفسه، ص113

976 - الإدريسي: القارة الإفريقية، ص180؛ الحريري: الدولة الرستمية، ص232؛ مرمول: السياسة الداخلية، ص256.

977 - ينظر: كتاب السيرة، ص196.

978 - ينظر: ورقة 9.

979 - الإدريسي: القارة الإفريقية، ص155.

الأوسط وإفريقية، ومنها تصدر مختلف أنواع السلع إلى بلاد السودان. وقد كان لتجار نفوسة علاقات تجارية ودينية مع سكان وارجلان. فإذا عدنا إلى كتب السير فإننا نجدها تتحدث كثيرا عن تنقل التجار والعلماء من الجبل إلى وارجلان. ومما يدل على كثرة الوافدين إلى هذه الأخيرة ما رواه أبو الربيع سليمان بن يخلف حيث قال: «طلعنا مع أبي عبد الله (أبو عبد الله محمد بن بكر النفوسي) إلى وارجلان زائرين في جماعة كثيرة، وفينا قبائل أهل الدعوة بأجمالهم حتى جعل ببعض الطريق أبو عبد الله على كل قبيلة منهم عريفا وسفيرا يرعاهم ويتفقدهم».[980]

وتجدر الإشارة إلى أن هناك من التجار من يتوقف في وارجلان، ومنهم من يواصل الطريق إلى سجلماسة، أو إلى بلاد السودان بتجارته، والعودة بالتبر. يروي الشماخي في سيره أن أبا يحي زكريا بن صالح اليراسني وصل ذات مرة من سجلماسة إلى وارجلان وخرج يريد جربة رفقة أصحابه ومعهم نحو مائتي ألف وخمسين ألفا ذهبا تبرا.[981] ويحتمل أن هذه القافلة جاءت من غانة مرورا بأودغست وسجلماسة.

وفي مقابل السلع التي كان تجار نفوسة يصدرونها، كانوا يستوردون العديد من ضروب الأمتعة لسد إحتياجاتهم، ولإعادة بيعها. فقد كانوا يستوردون الكسوة من أسواق سجلماسة.[982] كما كانوا يستوردون التمر من فزان، لجودته وشهرته بالمنطقة، حيث كان الإقبال عليه من مختلف مدن إفريقية رغم أن بلاد الجريد والزاب معروفة بإنتاجها للتمور. وقد ذكر الدرجيني أن أبا زكريا بن أبي مسور اليراسني الساكن بجربة أرسله أبوه إلى قرى «يزمرتين» بنفزاوة لشراء التمر.[983] كما تجار نفوسة يستوردون التمر من جرمة،[984] لأن أشجار النخيل في الجبل لا تنتج أنواعا جيدة. ورغم أن النفوسيين اهتموا بتربية الماشية إلا أن المصادر تذكر بأنهم كانوا يشترون الخرفان من إفريقية، ربما لرخص أسعارها.[985]

أما عن السلع الصادرة إلى المشرق الإسلامي فهي كثيرة ومتنوعة، منها الأكسية الصوفية الرفيعة، والحرير، والعنبر، والزئبق، والرصاص، والمولدات الحسان، والغلمان، والزيت، والفستق، والزعفران، واللوز، والبرقوق، واللبود المغربية، والبغال، والمرجان،

980 - أبو زكريا: كتاب السيرة، ص321-322.
981 - الشماخي: السير، ص449.
982 - المصدر السابق، ص334.
983 - طبقات المشائخ، ج1، ص160.
984- الشماخي: المصدر السابق، ص288و 335.
985 - الوسياني: سير مشائخ المغرب، ص27.

والذهب، والعسل، وزيت الزيتون، والخدم المجلوبين من السودان، والدرق اللمطية، وغيرها من السلع.[986]

وقد ساهم التجار الإباضية بدور كبير في نقل هذه السلع إلى مصر، ومنها إلى مختلف الحواضر الإسلامية، فكانت قوافل هوارة تخرج من نفوسة وطرابلس مثقلة بالسلع المغربية وتعود محملة بالسلع المصرية.[987] وكانت القوافل تحمل المنسوجات القطنية والصوفية والجلود الغدامسية والعبيد من زويلة، والقطران والعسل والشمع من برقة.[988] ويبدو أن القوافل النفوسية كانت تسلك طريق الواحات الذي يربط بلاد المغرب بمصر، بالإضافة إلى الطريق الساحلي. فقد أشار الوسياني إلى قافلة خرجت من الجبل ومات أفرادها عطشا في طريق القبلة، فلم ينج منهم إلا عبد حبشي،[989] ذلك أن هذا الطريق محفوف بالمخاطر كما أشرنا سابقا.

وكان موسم الحج فرصة إضافية للتبادل التجاري، خاصة وأن النفوسيين كانوا يحجون بأعداد هائلة، فقد كانوا أكثر الناس حجا، يحجون بنسائهم وأولادهم، حتى إنه ولد لهم في قافلة واحدة ثلاثمائة مولود ذكر عدا البنات.[990] وكان الحجاج يجتمعون بعد عودتهم في مكان يدعى «تمصرون»، حتى يتفقوا على السير إلى الحج في الموسم القادم. ولما سقطت الإمامة الرستمية أصبح «أهل الدعوة والاستقامة» من طرابلس وجربة وإفريقية يجتمعون في موضع يقال له «اماسن».[991] ذلك أنه من عادة نفوسة إذا خرجوا مسافرين أمروا عليهم رجلا يشاورونه في مصالح سفرهم يدعى «النقيب».[992]

د - تجارة السودان:

اتصلت الدولة الرستمية اتصالا تجاريا كثيفا بالسودان، فقد أولى الأئمة الرستميون عناية فائقة بتجارة السودان حتى أن الإمام أفلح بن عبد الوهاب كاد يسافر إلى «كوكو»[993]

986 - ابن حوقل: صورة الأرض، ص94-95؛ جودت عبد الكريم: الأوضاع الاقتصادية، ص220-221؛ نجاة باشا: التجارة في المغرب الإسلامي، ص60.
987- السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب، ص486.
988 - عفيفي: أحوال بلاد المغرب، ص132-162.
989 - الوسياني: السير (مخ)، ج2، و10.
990 - الوسياني: المصدر نفسه، و3؛ الدرجيني: طبقات المشائخ، ج2، ص325.
991 - البغطوري: مشائخ نفوسة (مخ)، ورقة 2-3.
992 - أبو زكريا: كتاب السيرة، ص332؛ الوسياني: سير مشائخ المغرب، ص48.
993 - هي مدينة من مدن السودان، تقع على ضفة نهر، تبعد عن غانة مسير شهر ونصف وعن مدينة تملمة شرقا أربع عشرة مرحلة، وعن تمبكتو مسافة أربعمائة وخمسين كلم، وقد أصبحت كوكو عاصمة لإمبراطورية صنغاي في القرن الحادي عشر الميلادي. ينظر: الإدريسي: القارة الإفريقية، ص44-45 وهامش ص44.

للتجارة لولا أن منعه والده لعجزه عن إيجاد إجابة لمسألة من مسائل الربا.[994] ولما تولى الإمامة أقام علاقات حسنة مع ملك «كوكو» الذي لا تذكر المصادر اسمه، حيث أرسل هذا الأخير هدية نفيسة لتوثيق الصداقة والاعتراف له بالجميل، لما كان يلقاه التجار الإباضية في مملكته من معاملة حسنة.[995] ومما يدل كذلك على اهتمام النفوسيين بالتجارة، أن أبا معروف ويدران بن جواد - وكان ضريرا - كان يمارس التجارة.[996]

وهكذا نلاحظ أن العلاقات التجارية بين الدولة الرستمية وبلاد السودان كانت متينة، وكان من نتيجة ذلك أن أضحت وارجلان أهم قاعدة تجارية جنوب العاصمة تاهرت، فمنها كانت تخرج القوافل المتجهة إلى بلاد السودان، كما يمكن للتجار السفر إلى غانة مرورا بسجلماسة وأودغست. أما تجار نفوسة فكانوا يمرون بمدينة زويلة للوصول إلى بلاد كانم، والتي تبعد عنها بأربعين مرحلة، وزويلة هذه هي أول حد بلاد السودان، بها أسواق يجتمع فيها الرفاق من كل جهة ومنها يفترقون.[997] ونعتقد أن القافلة التي قدمت إلى الجبل من التكرور قد سلكت هذا الطريق.

ويبدو أن الطريق الذي يربط طرابلس بفزان يمر بجادو أهم مركز تجاري في الجبل، وهو الطريق الذي استعمله تجار نفوسة وفزان بدليل أن طبيبا من فزان يدعى عبد الحميد الفزاني عاش في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري أقام مدة في بلاد السودان الذي يبعد مسير شهرين عن الجبل.[998] كما أن المصادر أشارت إلى خروج قافلة من فزان في اتجاه بلاد السودان قدرت ركاب أصحابها باثنتي عشر ألف راحلة.[999]

ومهما يكن من أمر فإن تجار نفوسة أولوا عناية كبيرة للتجار السودانية، وقد وردت العديد من الإشارات في المصادر والتي توحي بأن حجم المبادلات التجارية بين بلاد السودان (غانة - كانم - كوار - التكرور - تادمكت -غيارو) وبين جبل نفوسة ووارجلان كان كبيرا، والدليل على ذلك وجود جالية كبيرة من الإباضية تقيم في تادمكت وإليها يعود الفضل

994 - الوسياني: السير (مخ)، ج2، و24؛ الدرجيني: طبقات المشائخ، ج2، ص320؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب، ص487؛ بحاز: الدولة الرستمية، ص210؛ T. Lewicki: etudes maghrebines, p13
T. Lewicki: Traits d>histoire, p303

995 - ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، ص71؛ سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج2، ص499؛ دبوز: تاريخ المغرب الكبير، ج3، ص346؛ محمود إسماعيل: الخوارج في المغرب الإسلامي، ص21؛ T. Lewicki: Traits d>histoire, p302.؛ الحارثي: العقود الفضية، ص244.

996 - الدرجيني: المصدر السابق، ج2، ص328؛ بحاز: المرجع السابق، ص177.

997 - البكري: المغرب، ص10-11؛ عفيفي: أحوال بلاد المغرب، ص165.

998 - T. Lewicki: Traits d>histoire, p310.

999- ابن خلدون: كتاب العبر، مج7، ص108؛ بحاز: الدولة الرستمية، ص223.

في نشر الإسلام هناك. وفي المقابل نلاحظ وجود جالية سودانية بالجبل في القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) بحجة أن الكثيرين من سكانه أجادوا لغة الكانم.[1000]

أما عن السلع التي كان يصدرها التجار فهي كثيرة ومتنوعة، وعلى الرغم من عدم إشارة المصادر إلى سلع معينة تصدرها الدولة الرستمية، إلا أن المصادر الجغرافية أشارت إلى مختلف أنواع السلع التي يحتاجها السودان. يقول الإدريسي: «وليس في بلاد السودان شيء من الفواكه الرطبة إلا ما يجلب إليها من التمر من بلاد سجلماسة أو من بلاد الزاب يجلبه إليهم أهل وارجلان».[1001] وقد لعب تجار نفوسة وهوارة دورا كبيرا في تجارة السودان، فلاشك أنهم كانوا يزودون السودان بالحبوب فابن حوقل يذكر أن القبائل الساكنة بين سجلماسة وأودغست لا يعرفون القمح والشعير.[1002] وعند حديثه عن أودغست ذكر البكري بأنه يجلب إليها القمح والتمر والزبيب من بلاد الإسلام، وأشار إلى أن سكانها من أهل إفريقية، وبرقجانة، ونفوسة، ولواتة، ونفزاوة. وقد كان أحد رواته تاجر نفوسي يدعى «أبو رستم النفوسي».[1003]

كما كان التجار يصدرون إلى بلاد السودان زيت الزيتون، والفواكه المجففة، كالزبيب، والتين، وعسل التمر، وقد عثر في بلاد السودان على بعض القلل التي كانت تستعمل في جمع العسل.[1004] وتعد المنسوجات والألبسة بمختلف أنواعها، والمصنوعات الجلدية، وربما حتى الأواني الزجاجية إلى جانب الأواني الفخارية من أهم الصادرات. وقد أكدت المصادر تصدير الثياب، فذكرت أن أبا صالح الياجراني (ق 3هـ/9م) من بني غريست ساق جمالا له من القبلة ليبيعهم في وارجلان، فاشترى منها رجلان جمل، وعندما طلب منه ثمنه قال له: «ثمن جملك في تادمكت». وعندما جهز ابو صالح جملا ليركبه قال له رجل آخر: «احمل لي على جملك حمل ثياب».[1005] ومن السلع الصادرة كذلك التوابل والعطور الواردة من المشرق الإسلامي، والنحاس الأحمر والملون، والأصداف والأحجار.[1006]

1000 - محمود إسماعيل: الخوارج في المغرب الإسلامي، ص211.

1001 - الإدريسي: القارة الإفريقية، ص34.

1002 - ينظر: صورة الأرض، ص98.

1003 - البكري: المغرب، ص158-159.

1004 - Jean Lethilleux: Ouargla cite saharienne des origines, au début du XX, Paul Geuthner, Paris, 1983, p54.

1005- أبو زكريا: كتاب السيرة، ص313؛ الوسياني: سير مشائخ المغرب، ص30؛ جودت عبد الكريم: الأوضاع الاقتصادية، ص218؛ ص274.

1006 - الباروني: الأزهار، ص241؛ بحاز: الدولة الرستمية، ص224؛ الحريري: الدولة الرستمية، ص234؛ دبوز: تاريخ المغرب الكبير، ج3، ص346-347؛ عفيفي:أحوال بلاد المغرب، ص177؛ جودت عبد الكريم: العلاقات، ص274؛ إبراهيم طرخان: إمبراطورية غانة الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة 1970، ص65.

كما كان التجار يصدرون إلى بلاد السودان الإبل، وكانت بمدينة تادمكة سوقا رائجة لبيع الجمال. فأبو زكريا يذكر بأنه تباع فيها بكثرة واندهش عن عدم تمكن تاجر من بيع جماله قائلا: «ما سمعنا بجمل رجع من تادمكت قط إلى وارجلان».[1007]

ولا يستبعد أن يكون التجار الإباضية قد حملوا معهم الحجارة الشبيهة بالعقيق من معدن يقع بين وارجلان وغدامس نظرا لغلاء سعره في السودان. يقول الحميري: «وفي هذه الصحراء معدن حجارة يشبه العقيق وربما كان في الحجر الواحد منها ألوان من الحمرة، والصفرة، والبياض، وهو أنفق شيء ببلاد السودان عامة، وغيرها، وهو عندهم أجَلُّ من الياقوت».[1008]

ويعد الملح من أهم صادرات بلاد المغرب إلى بلاد السودان، إذ كان يكثر عليه الطلب حتى إن أهل كوكو جعلوه نقدهم.[1009] ونعتقد أن تجار نفوسة استغلوا غلاء هذه المادة فصدروا منها الكثير خاصة وأن السبخة الكبيرة موجودة قرب طرابلس، قال عنها البكري بأنه يرفع منها الملح الكثير.[1010] كما أن هذه المادة متوفرة بكثرة في أوليل، فمنها يحمل الملح إلى التكرور، وبريسى، وغانة، وسائر بلاد ونقارة، وكوغة، وعامة السودان.[1011] وتوجد كذلك في «توتك» الواقعة في الطريق الأوسط. ولا يستبعد أن يكون تجار نفوسة يسافرون إلى سجلماسة مثقلون بمختلف ضروب الأمتعة، فيبيعونها هناك، ثم يشترون الملح ،ويتوغلون إلى بلاد السودان.[1012]

وقد عادت تجارة الملح بالثراء الواسع على التجار، ذلك أن العبد كان يباع بحذائه أي نعله، ذلك أنه يجعل تحت قدم العبد منه مقدار نعل فيكون ثمنا له.[1013] كما أن حمل الملح كان يباع بحوالي مائتين إلى ثلاثمائة دينار.[1014] وكان التجار يبادلونه بوزن أو وزنين من الذهب، ويذكر جودت عبد الكريم - نقلا عن Devisse - أن حمل الجمل الذي يتراوح بين 125

1007 - ينظر: كتاب السيرة، ص313؛ والرواية نفسها أوردها الوسياني، ص30.

1008 - ينظر: الروض المعطار، ص600؛ والرواية نفسها أوردها صاحب الاستبصار، ص224.

1009 - البكري: المغرب، ص183.

1010- المصدر السابق، ص8.

1011 - الإدريسي: القارة الإفريقية، ص32.

1012 - بحاز: الدولة الرستمية، ص225.

1013 - جودت عبد الكريم: العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، ص273؛ أحمد بن الأمين الشنقيطي: الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، مطبعة السنة المحمدية، ط2، القاهرة، 1958، ص521-522.

1014 - ابن حوقل: صورة الأرض، ص98؛ جودت عبد الكريم: المرجع نفسه، ص273؛ إبراهيم طرخان: إمبراطورية غانة، ص636؛ الحبيب الجنحاني: المغرب الإسلامي، ص183.

و150 كلغ يعود بكمية من الذهب يتراوح وزنها بين 760 و1140غ من الذهب على أساس أن القيمة المتوسطية للدينار تعادل 3.8غرام ذهب.[1015]

وتجدر الإشارة إلى أن سعر الملح قد انخفض فيما بعد لكثرة العرض، وأصبح حمل جمل يعادل ثمن عبد. وقد فرضت غانة الضرائب على هذه التجارة الرابحة قدرها ديناران ذهب على كل حمولة حمار من الملح يدخل البلاد، وديناران على كل حمولة تخرج من مملكته. كما قرر ملوك غانة ضريبة مقدارها خمسة مثاقيل على حمل من النحاس وعشرة مثاقيل على حمل من المتاع.[1016]

وتعد مدينة «تادمكة» إحدى الحواضر السودانية التي كانت تضم جالية كبيرة من التجار الإباضية. فقد أشارت المصادر إلى أسماء تجار كانوا يرحلون كثيرا إلى بلاد السودان منهم: أبو نوح الصغير، وأبو نوح سعيد بن يخلف المزاتي، وأبو القاسم يونس الفرسطائي، وأبو موسى هارون بن أبي عمران،[1017]* وأغلب هؤلاء عاش في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)،[1018] ومنهم من توغل إلى «غياروا» أمثال: هارون بن أبي عمران وموسى بن سدرين،[1019] وأبي الربيع بن أبي هارون،[1020] وأبي طاهر إسماعيل بن علي النفزاوي الذي وصل إلى غانة،[1021] وفلحون بن إسحاق النفوسي (ق 4هـ/10م).[1022]

ولعل أشهر أثرياء التجار الإباضية هو تملى الوسياني. فقد كان هذا الأخير يسافر كثيرا إلى تادمكت مما مكنه من جمع ثروة هائلة حتى إنه كان يرسل كل سنة ستة عشر كيس، كل كيس فيه خمسمائة دينار، وقيل ذهبا إلى أبي عمران موسى بن سدرين ليوزعها على الفقراء والمحتاجي.[1023]

1015 - جودت عبد الكريم: المرجع نفسه، ص273.

1016 - البكري: المغرب، ص176؛ إبراهيم طرخان: المرجع السابق، ص67.

1017 - تذكر المصادر أن أبا موسى خرج إلى وارجلان فطلب منه سكانها الجلوس للحلقة فأبى وعزم على السفر إلى غانة. ينظر: الشماخي: السير، ص472. .T. Lewicki: Etudes Maghrébines et soudanaises, p43 .20-T. Lewicki: Quelques extraits, p19

1018 - جودت عبد الكريم: المرجع السابق، ص282-283.

1019 - الشماخي: المصدر نفسه، ص472-473.

1020 - البغطوري: سير نفوسة، (مخ)، و14.

1021 - الشماخي: المصدر السابق، ص484.

1022 - T. Lewicki: Traits d>histoire, p304.

1023 - الوسياني: السير، (مخ)، ج2، و22؛ مجهول: كتاب المعلقات، (مخ)، و9؛ الشماخي: المصدر السابق، ص411؛ أحمد إلياس: الطرق التجارية عبر الصحراء، ص176؛

T. Lewicki: Quelques extraits, p18. T. Lewicki: Les origines et l'islamisation de Tadmekka, d'après les .P440. T. Lewicki: op. cit, p308 ,6-sources arabes, bibliothèque d'outre mer, Paris, 1981, N° 5

أما عن السلع الواردة من بلاد السودان فأهمها على الإطلاق الذهب الذي اشتهرت به بلاد غانة، خاصة ذهب منطقة ونقارة. فبلاد ونقارة هذه هي «بلاد التبر المشهورة بالطيب والكثرة».[1024] كما يوجد الذهب في مدينة «غياروا» التي تبعد عن غانة مسير عشرين يوما.[1025] فقد كان نهر النيجر يجرف معه أثناء فيضانه المعادن، وعند وصوله إلى جاو وتمبكتو يتسع مجراه، وبعد أن تنحصر المياه بانتهاء موسم الفيضانات تترسب المعادن على جانبي النهر فيبقى الذهب من دونها مميزا بلمعانه فيجمعونه ويبيعونه.[1026]

وتتفق المصادر على أن غانة كانت أكثر بلاد السودان ذهبا. فقد روى البكري هو الآخر أن أجود أنواعه بغانة هو ذهب غياروا.[1027] أضف إلى ذلك معادن التبر الموجودة قرب مدينة كوغة.[1028] ويضيف أبو حامد الغرناطي أنه يظهر في رمال غانة الذهب والتبر وهو متوفر عندهم بكثرة.[1029]

أما السلعة التي تأتي في المقام الثاني فهي العبيد المجلوبون من بلاد «لملم»، حيث كان أهل سلى، وتكرور، يغيرون عليها فيسلبون أهلها، ويبيعونهم للتجار الداخلين إليهم.[1030] وبلاد لملم هذه تبعد عن غيارو (غيارة) بثلاثة عشر مرحلة، ومن غيارو إلى غانة إحدى عشر مرحلة.[1031]

وقد اهتم التجار الإباضية بتسويق هذه السلعة في بلاد المغرب. فقد كانت تجارة العبيد تجارة رائجة خاصة في العصر الفاطمي، حيث كانوا يستخدمون في الجيش والأعمال الأخرى. فقد ذكر المراكشي بأن الفاطميين عندما بنو مدينة زويلة أستوطنوها سائر الناس من الرعية والسودان.[1032] كما استخدم بنو زيري العبيد في الجيش.[1033] ومر بنا أن النفوسيين استعملوهم في الزراعة والعمل في المنازل. وكانت مدينة وارجلان وزويلة وسجلماسة من أكبر المراكز المورّدة للعبيد. كما كان يجلب الرقيق من أودغست، فقد

1024 - الإدريسي: القارة الإفريقية، ص39.

1025 - مجهول: الاستبصار، ص221.

1026 - الإدريسي: المصدر السابق، ص39؛ دريدي عبد القادر نوري: ازدهار الصناعة والزراعة في بلاد السودان الغربي بعد القرن 5هـ- 11م كما وصفته المراجع العربية الإسلامية، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت 1986، مج6 عدد21، ص26.

1027 - ينظر: المغرب، ص176-177.

1028 - البكري: المصدر نفسه، ص179.

1029 - أبو حامد الغرناطي: كتاب تحفة الألباب، نشر ضمن Journal asiatique, TCC XII, p41.

1030 - الحميري: الروض المعطار، ص511؛ إبراهيم طرخان: إمبراطورية غانة، ص72.

1031 - الإدريسي: القارة الإفريقية، ص41.

1032 - المراكشي: المعجب، ص197.

1033- ابن عذارى: البيان المغرب، ج1، ص238؛ إسماعيل العربي: عواصم بن زيري، بيروت، 1984، ص141.

تحدث البكري عن سودانيات أودغست، ووصفهن بأنهن طباخات تحسن عمل الأطعمة الطيبة، وأصناف الحلويات، وغير ذلك.[1034]

وبما أن أسعار العبيد كانت زهيدة فقد اشترى التجار أعدادا كبيرة منهم لتصديرهم إلى مختلف الأصقاع. وقد ذكر ابن حوقل أن من بين ما يصدر إلى المشرق الخدم المجلوبون من السودان.[1035] وقد اهتم الإباضية بهذه التجارة التي تعود عليهم بالأرباح الطائلة، فقد روى الشماخي أن أبا محمد عبد الله بن محمد السدراتي سافر رفقة حضرى إلى بلاد السودان جعل تجارته عبيدا.[1036] وتتحدث المصادر عن جارية سودانية اشتراها رجل من أهل ويغو تسمى غزالة، أخذت بالمذهب الإباضي وأصبحت من العالمات الشهيرات في الجبل. فقد كانت في كل ليلة بعد نهاية العمل تقطع مسافة عشرين ميلا لكي تحضر مجلس الشيخ عبد الله محمد بن الخير في «تنور زيرف»، فإذا انقضى المجلس تعود فتأتي مصلى لها في كهف معلوم فتصلي. كما تذكر المصادر أن أم عبد الله بن الأمير كانت آمة سوداء،[1037] وأن أم الخطاب - وهي إحدى العالمات بالجبل - كانت تملك ثلاثة عشر جارية.[1038] كما أن الشماخي استعمل في العديد من المرات عبارة «جالب الخدم».[1039]

وإلى جانب الذهب والعبيد، استورد التجار العاج، وريش النعام، وجلود الحيوانات، خاصة جلود النمور، والسباع.[1040] وقد ذكرت المصادر أن لباس سكان كوكو من الجلود،[1041] ولباس سكان غانة من جلود النمور،[1042] ما يدل على أن إنتاجها كان وفيرا عندهم. كما استوردوا الدرق اللمطية، التي تصنع من جلد حيوان اللمط، وميزتها أنها خفيفة لينة لا ينفذ منها النشاب ولا يؤثر فيها السيف.[1043] ولاشك أن تجار نفوسة قد استوردوها لحاجتهم إليها في معاركهم. كما كان يجلب من كوار الشب وربما اشتروه من وارجلان.[1044]

1034 - البكري: المغرب، ص158؛ وينظر كذلك: الجنحاني: المغرب الإسلامي، ص186.

1035 - ينظر: صورة الأرض، ص95.

1036 - ينظر: السير، ص509.

- المصدر نفسه، ص218؛ R. Basset: Les Sanctuaires Du Djebel Nafussa, p391.

1037- الشماخي: المصدر نفسه، ص405.

1038 - علي يحي معمر: الإباضية في ليبيا، ص210.

1039 - ينظر: السير، ص295.

1040 - الحريري: الدولة الرستمية، ص234؛ دبوز: تاريخ المغرب الكبير، ج3، ص347؛ جودت عبد الكريم، العلاقات الخارجية، ص267؛ بحاز: الدولة الرستمية، ص225-226.

1041 - الإدريسي: القارة الإفريقية، ص45.

1042 - Solvet: Description du Maghreb, p50.

1043 - الإدريسي: القارة الإفريقية، ص59؛ أبو حامد الغرناطي: تحفة الألباب، ص43؛ جودت عبد الكريم، العلاقات الخارجية، ص280؛ الحبيب الجنحاني: المغرب الإسلامي، ص210-211.

1044- الإدريسي: المصدر نفسه، ص39-40.

فالإدريسي يذكر أن تجار مدينة «أنكلاس» الواقعة قرب كوار كانوا يصلون إلى وارجلان. كما كان تجار نفوسة يستوردون بعض الأدوية. فالمصادر تذكر أنه لما أصيب أبو معروف ويدرن بن جواد في بصره أرسل كتابا إلى الشيخ عبد الحميد الفزاني المقيم بالسودان يطلب منه تزويده بدواء للعيون.[1045]

ولم يكتف التجار الإباضية بعمليات التصدير والاستيراد، بل ساهموا في نشر الإسلام كذلك. فالشماخي يذكر أن أبا يحي زكريا بن أبي القاسم يونس الفرسطائي تمكن بفضل دعوته أن يعتنق ملك السودان الإسلام.[1046] وهي الرواية نفسها التي أشار إليها البكري دون أن يذكر اسم الداعية.[1047] وقد أثبتت الدراسات المعمارية من خلال مقارنة الطراز المعماري للمساجد في بلاد المغرب والسودان وجود تشابه كبير في المآذن المستطيلة.[1048] كما أن الباروني يذكر أن أقواما في بلاد السودان كانوا لا يرفعون أيديهم في الصلاة عند تكبيرة الإحرام كالإباضية.[1049]

6 - المكاييل والموازين:

لا تعطينا المصادر التي عنيت بالحياة الاقتصادية في بلاد المغرب معلومات وافية عن المكاييل المستعملة في جبل نفوسة، غير ما ذكره الدرجيني في حديثه عن أبي معروف ويدران بن جواد الذي كان له دكان في الجبل حيث قال إن هذا الأخير كان «إذا وزن لأحد من الناس زاده من نفسه خروبة، وإذا أراد أن يأخذ لنفسه من أحد نقص خروبة».[1050] ويضيف الشماخي في سيره أن أبا هارون الجلالي كان يجني من أشجار التين ثلاثمائة مديا، أي مائة وخمسون وسقا، والمد بالجبل ثلثي الوسق.[1051] أما في يفرن فإن المد كان يعرف بـ «يفرن» إثنا عشر ويبة.[1052] والويبة هي وحدة لكيل الحبوب تسوي أربعة أثمان - أي 24 مدا

1045- الوسياني: السير، (مخ)، ج2، و4؛ الدرجيني: الطبقات، ج2، ص327.

1046 - الشماخي: السير، (مخ)، ص312؛ وينظر كذلك: J. Schacht: Sur la diffusion des formes d>architecture religieuse musulmane à travers le Sahara, Travaux de l'institut de recherches sahariennes, T 11, 1954, p73.

1047 - ينظر: المغرب، ص178.

1048 -Marcel Mercier: Notes sur une architecture berbère saharienne Hespreris, T8, 1928, P422-424.

1049 - ينظر: رسالة سلم العامة، ص23.

1050 - الدرجيني: طبقات المشائخ، ج2، ص328؛ وينظر كذلك: الوسياني: السير، (مخ)، ج2، و4؛ الشماخي: السير، ص264؛ بحاز: الدولة الرستمية، ص177.

1051 - الشماخي: المصدر نفسه، ص278.

1052 - نفسه، ص323.

قرويا - وتساوي 25.5 مدا بمد النبي.[1053] والكر عند أهل الجبل مثل مد النبي وهو المن عند أهل عمان.[1054] ويبدو أنه مكيال لكيل الحبوب مقداره ستين قفيزا.[1055] وإذا كان الأستاذ بحاز يرى بأن الاختلاف في المكاييل والموازين بين المدن الرستمية اختلاف في الكم والعدد وليس في الأسماء.[1056] إلا أنه يبدو أن هناك اختلافا حتى في الأسماء فالمد مثلا يسمى في الجبل «المودي».[1057]

ومهما يكن من أمر فإن المقدسي قد تحدث بإسهاب عن مكاييل وموازين بلاد المغرب، فذكر أن أرطاله كانت بغدادية، ماعدا الذي يوزن به الفلفل فإنه ينقص على البغدادي بعشرة دراهم، وأن القفيز في القيروان كان يساوي إثنان وثلاثون ثمنا أي 192 مدا بمد النبي. وأما الدوار - وهو مكيال فاطمي - فهي التي تشف على ويبة مصر بشيء بسيط قد ألجم رأسها بعارضة من حديد وأقيم عمود من قاعها إلى العارضة فوقه حديد يدور على رأس الويبة فإذا أترعها أدار الحديد فمسحت الويبة وصح الكيل.[1058] وكان هذا الكيل يستخدم فقط في كيل الحنطة.[1059]

وبالإضافة إلى المكاييل التي ذكرناها هناك المد، والمطر، والصحفة، والقادوس، والعمورة، والقليلة، واللوح، والقنفل، والزلاقة. وتجدر الإشارة في هذا المضمار إلى أن هذه المكاييل لم تكن موحدة القيمة في سائر بلاد المغرب. فلذلك فهي تختلف من موضع إلى آخر. فأما مكاييل سكان تاهرت فهي حسب المكاييل القرطبية، فمدهم الذي يكتالون به يساوي خمسة أقفزة ونصف قرطبية، أما قنطار الزيت وغيره فإنه يساوي عندهم خمسة أرطال.[1060] وأما المد فهو كيل مدينة «مليلة»، وهو خمسة وعشرون مدا بمد النبي، ورطلهم إثنتان وعشرون أوقية، والأوقية خمسة عشر درهما، وقنطارهم من جميع الأشياء بهذا الرطل.[1061] وأما المطر فهو كيل يسع خمسة أقفزة من الزيت،[1062] في حين أن الصحفة تساوي ثمانية وأربعين قادوسا، والقادوس ثلاثة أمداد

1053- البكري: المغرب، ص26؛ جودت عبد الكريم: الأوضاع الاقتصادية، ص187.

1054 - الوسياني، السير، (مخ)، ج2، و24.

1055 - جودت عبد الكريم: المرجع السابق، ص189.

1056 - ينظر: الدولة الرستمية، ص181.

1057 - الشماخي: السير، ص313.

1058 - المقدسي: أحسن التقاسيم، ص220؛ وينظر كذلك: Golvin: Le Maghreb central, p83.

1059 - عفيفي: أحوال بلاد المغرب الاقتصادية، ص152.

1060 - البكري: المغرب، ص69؛ الحريري: الدولة الرستمية، ص235؛ الحبيب الجنحاني: المغرب الإسلامي، ص135.

1061 - البكري: المرجع نفسه، ص89.

1062 - البكري: المرجع نفسه، ص27؛ جودت عبد الكريم: الأوضاع الاقتصادية، ص189؛ الجنحاني: المغرب الإسلامي، ص69.

بمد النبي وهو كيل مدينة تنس.[1063] أما العمورة فهي كيل مدينة أرشقول وتساوي ستين مدا بمد النبي.[1064] في حين أن القليلة هي مكيال للزيت في مدينة أصيلة يساوي مائة وإثنتاعشرة أوقية. وفي القنطار عشرون قليلة.[1065] واللوح هو مد مدينة «فاس» يسع ثمانين أوقية من الطعام.[1066] أما القنفل فيساوي ثماني زلاقات. والزلاقة تساوي ثمانية أمداد بمد النبي.[1067] كما عرفت الصاع كأداة للكيل. فقد أجاب الإمام عبد الوهاب ردا على سؤال رجل نفوسي حول العشر قائلا: «إن العشر يجب من ثلاثمائة صاع. وهي خمسة أوساق. والوسق ستون صاعا. فيجب فيه نصف الوسق».[1068]

أما الموازين في بلاد المغرب فهي القنطار. والرطل. والأوقية. والدرهم. أما الرطل فإن قيمته تختلف من سلعة إلى أخرى. فالرطل المستعمل في وزن الفلفل. يختلف عن الرطل المستعمل في وزن اللحم. وذلك يعود إلى سعر السلعة نفسها. كما أن هذه الأوزان تختلف من مكان إلى آخر. ومن الأمثلة على ذلك أن رطل مدينة تونس يساوي 12 أوقية. في حين أن رطل مدينة تنس مثلا يساوي 67 أوقية. وهو رطل خاص بوزن اللحم. وقد نجم عن ذلك أن اختلفت قيمة القنطار من منطقة إلى أخرى. فقنطار مدينة مليلة مثلا يساوي 100 رطل. أي 2200 أوقية. في حين أن قنطار مدينة أصيلة يساوي 2240 أوقية.[1069] ونلاحظ هذا الاختلاف في حاضرة الرستميين تاهرت حيث إن قنطار الزيت فيها كان قنطارين وثلثا. أما الفلفل وغيره من السلع فقنطار عدل. أما الرطل فكان رطلا بغداديا.[1070] كما استعمل المغاربة أوزانا أخرى منها الأوقية. الدرهم. القيراط. والمن.[1071] كما استعمل المغاربة في العصر الفاطمي وزنا يسمى «الصنوج». وهو قطعة مستديرة مصنوعة من زجاج مطبوع رسم على إحد وجهيها مقدار ما تساويه كتابة. وكانت تضرب في دار الضرب مثل السكة وتوزع على التجار والصيارفة حتى يتأكدوا من وزن النقد.[1072]

1063 - البكري: المرجع نفسه. ص69؛ جودت: المرجع نفسه. ص188؛ Golvin: le Maghreb, p83.

1064 - نفسه. ص78؛ Golvin: ibid, p84.

1065 - المرجع نفسه. ص112.

1066 - البكري: المرجع نفسه. ص117.

1067 - عفيفي: أحوال بلاد المغرب الاقتصادية. ص1.

1068 - عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم: كتاب مسائل نفوسة. ص73.

1069 - البكري: المغرب. ص62-89-113؛ عفيفي: المرجع السابق. ص147-148.

1070 - البكري: المرجع نفسه. ص69؛ جودت عبد الكريم: الأوضاع الاقتصادية. ص179-183؛ الحريري: الدولة الرستمية. ص235.

1071 - للمزيد من التفاصيل ينظر: جودت عبد الكريم: المرجع نفسه. ص181-182.

1072 - عفيفي: أحوال بلاد المغرب الاقتصادية. ص149.

7 - العمـــلة:

لم تذكر المصادر المتوفرة لدينا عن عملة معينة كان يتعامل بها سكان الجبل. في حين تذكر المراجع أنه كانت للرستميين عملة تعاملوا بها. وقد أكد ذلك الأثريان الفرنسيان D. Lammartg G. Marcais اللذان قاما بتنقيبات في تاهرت وعثرا على مجموعة من النقود الرستمية. ولا يستبعد الأستاذ بحاز أن تكون دنانير ذهبية وفضية ذلك أن الرستميين يكونون قد ضربوا سكتهم منذ إمامة عبد الرحمن بن رستم على القيروان. فقد سك فلوسا من النحاس كتب على أحد وجهيها: «ضرب هذا الفلس بإفريقية (كذا)». وفي الوجه الثاني كتب: «سنة إثنتين وأربعين ومائة».[1073] كما أن الإمام أفلح بن عبد الوهاب قد ضرب دنانير ودراهم تعامل بها الناس في سائر المغرب. وهي مدورة الكتابة.[1074] فأما الدرهم فكان له نصف يسمى «القيراط» وربع ثمن يسمى «الخرنوبة».[1075]

ويبدو أن هناك قيراطا من الذهب. فقد ذكر الدرجيني والشماخي أن رجلين اختصما إلى أبي بكر صالح بن بكر بن قاسم - وهو أحد علماء جزيرة جربة - باع أحدهما للآخر سلعة بستين قيراطا. ولم يبين له من أي جنس. فقال المشتري بأنه اشتراها بقراريط الخندوس. وقال البائع إنما له عليه بالذهب. وكان المشتري لا يعرف الذهب. فطلب أبو صالح من البائع أن يأخذ منه ما ذكر لأن أهل جربة - وهم إباضية - كانوا يتعاملون بالخندوس. ولا يعرفون الذهب.[1076] ولذلك أفتى سليمان بن ماطوس - وهو أحد العلماء المعروفين - «من باع شيئا بقراريط وهو يعني دراهم الخندس (الخندوس). إن ذلك جائز لأن القيراط في أوزان الذهب. والدرهم من أوزان الفضة».[1077]

ومهما يكن من أمر. فمما لاشك فيه أنه كانت للرستميين عملة خاصة بهم. وعلى الأرجح أنها ذهبية. نظرا للتدفق الهائل للذهب القادم إليها من بلاد السودان. ففي حديثه عن سكان وارجلان ذكر الإدريسي بأنهم كانوا يشترون الذهب من بلاد ونقارة. ويخرجوه إلى دور ضرب السكة في بلادهم «فيضربونه دنانير ويتصرفون بها في التجارات والبضائع».[1078] والشيء نفسه بالنسبة لإمارة بني الخطاب الإباضية بزويلة. فقد ضربت

1073 - ينظر: الدولة الرستمية. ص183.

1074 - الحريري: الدولة الرستمية. ص235.

1075 - عفيفي: أحوال بلاد المغرب الاقتصادية. ص153؛ Golvin: Le Maghreb central, p84.

1076 - الدرجيني: الطبقات. ج2. ص354-355؛ الشماخي: السير. ص367.

1077 - الوسياني: السير (مخ). ورقة 16؛ الدرجيني: المصدر نفسه والجزء ذاته. ص358؛الشماخي: المصدر نفسه. ص369؛ بحاز: الدولة الرستمية. ص187.

1078 - الإدريسي: القارة الإفريقية. ص39.

دنانير ذهبية عثر مؤخرا على عدد منها في الحفريات التي أجريت بالمدينة.[1079] وقد مر بنا أن تجار زويلة كانوا من الأثرياء يمتلكون قوافل كبيرة من الجمال لعبت دورا كبيرا في تجارة السودان.

وبعد سقوط الدولة الرستمية وقيام الدولة الفاطمية ضرب الفاطميون الدينار الذهبي، واشتهرت النقود التي ضربها الخليفة المعز لدين الله الفاطمي سنة 342هـ (954م)، حيث تعامل بها الناس في كافة أرجاء بلاد المغرب. وقد ضرب هذا الدينار في صقلية ونقش عليه:

«ضرب هذا الدينار بصقلية سنة ثلث وأربعين وثلثمائة

لا إله إلا الله محمد رسول الله وعلى أفضل الوصيين

المعز لدين الله أمير المؤمنين.

دعا الإمام معد لتوحيد الإله الصمد».[1080]

وظل التعامل بهذا الدينار إلى أن أعلن المعز بن باديس الانفصال عن الفاطميين وضرب السكة باسمه سنة 441هـ. فنقش على الوجه الأول: « وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (الآية)» وعلى الوجه الثاني « لا إله إلا الله محمد رسول الله».[1081]

ولا ندري إذا كان النفوسيون قد تعاملوا بالدينار الذي ضربه أبو يزيد مخلد بن كيداد بعد استلائه على القيروان سنة 333هـ. فقد أصدر هذا الثائر عملة نقدية مكتوب على أحد وجهيها: «ربنا الله لا حكم إلا الله، لا إله إلا الله وحده لا شريك له الحق المبين» وعلى الهامش: «بسم الله الرحمن الرحيم ضرب هذا الدينار بالقيروان سنة ثلث وثلاثين وثلثمائة» أما عن الظهر ففي المركز: «العزة لله محمد رسول الله خاتم النبيين» والهامش الداخلي: «الذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون» أما الهامش الخارجي: «محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون».[1082]

1079 - محمد سليمان أيوب: مختصر تاريخ فزان، ص90.

1080 - Henri la voix: Catalogue des monnaies musulmanes de la bibliothèque nationale de Paris, V2,(Espagne et Afrique) Paris, 1891, p40.

1081 - ابن عذارى: البيان المغرب، ج1، ص278.

1082 - محمد باقر الحسيني: دراسات عن نقود الثوار والشعارات والمناسبات المضروبة في إفريقية، مجلة المسكوكات، عدد7، بغداد، 1976، ص36.

وبالإضافة إلى الدينار الذهبي، والدرهم، تعامل المغاربة بالسفاتج وهي عبارة عن أوراق مالية تعوض التسديد نقدا، فهي بمثابة خطابات يتعامل بها التجار خوفا من قطاع الطرق.[1083] كما استعملت الصكوك كذلك في المعاملات فقد ذكر ابن حوقل أنه رأي صكا بأودغست بإثنين وأربعين ألف دينار.[1084] كما كانت المقايضة وسيلة هي الأخرى في المعاملات التجارية، فقد روى البكري أن تجار زويلة كانت مبايعاتهم بثياب قصر حمر.[1085]

8 - الحسبـــة:

تعد الحسبة من الوظائف الدينية التي أولى لها العلماء والفقهاء أهمية قصوى لأن المحتسب يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولذلك كان لزاما على من يتولى هذه المهمة أن تتوفر فيه شروط معينة ليكون أهلا لها، منها أن يكون فقيها عارفا بأحكام الشريعة ليعلم ما يأمر به وينهي، وأن يكون مسلما، ذكرا، بالغا، عدلا، لا يخاف في الله لومة لائم. وأن يكون ورعا، عفيفا، غنيا حتى لا يأكل أموال الناس بالباطل.[1086]

وقد أولى شيوخ الإباضية اهتماما كبيرا للحسبة، فأول من خرج محتسبا هو أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري، عندما بلغته أخبار المناكر التي اقترفتها قبيلة ورفجومة بالقيروان.[1087] وعندما قامت الدولة الرستمية كانت نفوسة في تاهرت هي التي تلي عقد تقديم القضاة وإنكار المنكر في الأسواق، والاحتساب على الفساق.[1088] وكان النفوسيون في عهد الإمام أبي اليقظان إذا رأوا قصابا ينفخ في شاة عاقبوه، وإن رأوا دابة تحمل فوق طاقتها أمروا صاحبها بالتخفيف عنها، وإن لاحظوا تراكم الأوساخ في الطرقات أمروا سكان الموضع بكنسه.[1089]

1083 - عفيفي: أحوال بلاد المغرب الاقتصادية، ص154؛ مصطفى: ليبيا منذ الفتح، ص242.

1084 - ينظر: صورة الأرض، ص65.

1085 - المغرب، ص11.

1086 - للمزيد من التفاصيل حول شروط القيام بالحسبة ينظر: عبد الرحمن بن نصر الشيزري: كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق السيد الباز العريني، دار الثقافة، ط2، بيروت، 1981، ص6 وما بعدها؛ ابن عبدون: رسالة في القضاء والحسبة، نشرها ليفي بروفنسال ضمن Journal Asiatique, Avril- Juin 1934, p18.؛ أحمد سعيد المجيلدي: كتاب التيسير في أحكام التسعير، تحقيق: موسى لقبال، ش و ن ت، ط2، الجزائر، 1981، ص42-43.؛ عبد الرحمن الفاسي: خطة الحسبة في النظر والتطبيق والتدوين، دار الثقافة، ط1، الدار البيضاء، 1984، ص46-47؛ موسى لقبال: المغرب الإسلامي: ص182 وما بعدها.

1087 - الشماخي: السير، ص127-129.

1088 - ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، ص63؛ الشماخي: المصدر نفسه، ص192؛ الحارثي: العقود الفضية، ص243.

1089 - ابن الصغير: المصدر نفسه، ص8؛ البرادي: الجواهر المنتقاة، ص177؛ الحريري: الدولة الرستمية، ص230؛ الحارثي: المرجع نفسه، ص244-245.

ولا تعطينا المصادر المعلومات الكافية حول ولاية الحسبة في الجبل، إلا ما ورد من إشارات متناثرة. فقد ذكر الشماخي مثلا أن أبا يوسف وجدليش الذي كان يشرف على سوق جادو كان «يأذن لمن شاء أن يبيع، ويمنع من في ماله شبهة» فقد منع رجلا من قرية «أغل» الدخول إلى سوق جادو قائلا له: «أفي سوق جادو تبيع حرام أبيك».[1090] وحسب المصادر فإن ولاية الحسبة لم يكن مكلفا بها شخص ما - باستثناء الإشراف على سوق جادو - بل كان يقوم بها كل الشيوخ المشهود لهم بالعلم والورع. فقد عرف كل من ابن مغطير النفوسي وأبي مرداس مهاصر السدراتي بأنهما كانا شديدي الشكيمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.[1091] ورويت المصادر أن أبا عمر وميمون بن محمد الشروسي لما سمع بمجلس خمر في الفحص، وهو موقع يبعد عن شروس ستة أميال، انتقل إليهم، وكسر آنيتهم، وأراق خمرهم.[1092]

ولما وقع فساد بمدينة غدامس خرج إليهم أبو الفضل سهل لتأديبهم.[1093] وعندما رأى أبو محمد جمال المزاتي تاجرا يطفف الكيل لطمه، وأمره بأن يفي الكيل.[1094] كما حارب الشيوخ كل عمل مخل بالآداب العامة، فقد خرج أبو هارون التملوشائي إلى «تندميرت» - إحدى قرى الجبل - عندما علم بأن أهلها يلعبون بالدف في عرس فأنزلهم السجن.[1095]

كما كان الشيوخ يأمرون الناس بالمحافظة على الطرقات العامة، فعندما أضاف أبناء الشيخ ماكسن أرضا من الطريق إلى عتبة الباب أرغمهم على هدم ما بنوه.[1096] وإذا وجدت أغصان أشجار تعيق المارة فإنها تكسر.[1097] وكان أبو المنيب محمد بن يانس يتفقد المزارع والحقول والطرقات محتسبا، فمتى وجد شخصا أفسد شيئا ما، وأقام بعمل يضر الآخرين منعه.[1098]

وكانت العقوبة تتفاوت بين الجلد بالسياط، أو بالحبس في المسجد، أو في منزل الحاكم، أو العزابي. فالشماخي يذكر أبا محمد التغرميني سجن شخصا يسمى «أبازكار»

1090 - الشماخي: المصدر السابق، ص334.
1091 - الشماخي: المصدر نفسه، ص144-173.
1092 - نفسه، ص273.
1093 - نفسه، ص275؛ علي يحي معمر: الإباضية في ليبيا، ص169.
1094 - نفسه، ص291.
1095 - نفسه، ص305.
1096- الوسياني: سير المشائخ، (مخ)، ج2، و37.
1097 - المصدر نفسه والجزء ذاته، و4.
1098 - الشماخي، السير، ص248.

من «أغرم اينان» بمسجد «ايمسراتن» تأديبا له عن رعي غنمه في مكان غير مخصص للرعي.

ويروي البغطوري أن أبا مسور كان يضرب رجلا مغلولا بالسياط أمام مسجد منزله، ولما رأى رجلا يمشي في المقبرة قال: «لا أخرج حق الأحياء حتى أخرج حق الأموات».[1099] فأمسك عن الأول وطلب إحضار الثاني فأدبه.

وظل الاحتساب في جبل نفوسة يقوم به ولاة الجبل وشيوخه من العلماء، وفقهاء المذهب، إلى أن قام نظام العزابة، فأصبح لهؤلاء دور كبير في الأمر بالمعروف والنهي عن أي منكر يظهر في قرى الجبل ومدنه.

9 - مستوى المعيشة:

عم الرخاء جبل نفوسة مثل سائر المدن والمناطق التابعة للدولة الرستمية خاصة قبل موقعة مانو سنة 283هـ إذ كان ذهب السودان يتدفق باستمرار على الدولة. وعادت التجارة بالثراء على سكان الجبل خاصة الذين كانوا يسافرون إلى بلاد السودان. وقد مر بنا أن تملي الوسياني اجتمع عنده ستة عشرة كيسا مملوءة بالذهب، وأضحت بذلك مظاهر الثراء من ترف وبذخ تظهر في الجبل، فقد كان أبو القاسم يزيد بن مخلد يركب دابة لها سرج محلى بالذهب.[1100] حتى إن رجلا من نفوسة لما رآه قال له: «يا شيخ ليس هذا من سيرة أهل الدعوة».[1101] كما توصف المصادر أبا ذر ابان بن وسيم النفوسي بأنه كان ذا سعة في المال والعلم.[1102] وتذكر المصادر كذلك أنه لما انتقل الإمام عبد الوهاب إلى الجبل في طريقه إلى الحج، نزل ضيفا عند مهدي النفوسي الويغوي فوجد داره «دار مترف في نعمة قد انبسطت عليه الدنيا».[1103] وأخرج مهدي للإمام ورفقائه ثيابا جديدة وفراشا وأوسع عليهم في الخير.[1104]

واهتم سكان الجبل بالدنيا وبترفها إلى درجة تعاطي الخمر في «الفحص».[1105] ورغم هذا الرخاء إلا أن الجبل شهد - كما سبق الذكر - في العديد من المرات مجاعات اضطر

1099 - ينظر: سير مشائخ نفوسة، (مخ)، و57.
1100- أبو زكريا: كتاب السيرة، ص196.
1101 - الدرجيني: الطبقات، ج1، ص122.
1102 - المصدر نفسه، ج2، ص301-302.
1103 - أبو زكريا: كتاب السيرة، ص114.
1104 - المصدر نفسه والصفحة ذاتها، دبوز: تاريخ المغرب الكبير، ج3، ص503.
1105 - الشماخي: السير، ص273؛ بحاز: الدولة الرستمية، ص257.

فيها السكان إلى الهجرة إلى إفريقية. ويمكن القول في الأخير ومن خلال النصوص، أنه كان هناك ثراء واسع. يقابله زهد بعض الشيوخ والعلماء، الذي لم تغوهم الدنيا وملذاتها.

الفصل الثاني

الحياة الفكرية والاجتماعية في جبل نفوسة.

أولا - الحياة الفكرية:

1 - تاهرت عاصمة الإشعاع الفكري.

2 - النهضة العلمية بالجبل.

أ - حلقات العلم.

ب - تمويل طلبة العلم والإنفاق عليهم.

جـ - التنافس العلمي.

د - إرساء تقاليد الحلقة.

3 - العلوم والعلماء.

أ - العلوم.

ب - العلماء.

4 - حركة التأليف.

5 - المكتبات.

6 - العلاقات الثقافية بين جبل نفوسة وإباضية المشرق والمغرب.

أ - مع إباضية المشرق.

ب - مع إباضية المغرب.

ثانيا - الحياة الاجتماعية.

1 - نظام العزابة.

2 - التنظيم الطبقي في المجتمع النفوسي.

3 - المرأة.

أولا - الحياة الفكرية:

تعد الحياة الفكرية والثقافية من الجوانب التي أولاها النفوسيون والإباضية عامة اهتماما بالغا. ولا نبالغ إذا قلنا إن علماءهم أبدعوا في هذا الميدان خاصة في العلوم الدينية. ومما يدعم كلامنا ذلك التراث الضخم الموزع بين المكتبات والذي يعد نشره والتعريف به فريضة على كل باحث. وسنقتصر الحديث في هذا المجال عن دور الأئمة الرستميين في النهضة العلمية، وعن الحركة العلمية بالجبل بما في ذلك حلقات الدرس والعلوم والعلماء، وحركة التأليف والمكتبات وعن العلاقات الثقافية بين إباضية جبل نفوسة وإباضية المشرق والمغرب.

1 - تاهرت عاصمة الإشعاع الفكري:

كان الأئمة الرستميون تواقين إلى العلوم والمعرفة فكرسوا حياتهم لدراسة الكتب والتأليف، وتشجيع الناس على طلب العلم بمختلف فنونه، وإقامة الحلقات العلمية في المساجد والبيوت. وكانت للأئمة أنفسهم حلقات علمية أقاموها في المساجد أمها الطلبة من كل حدب وصوب، ومن مختلف المذاهب والنحل خاصة وأنهم كانوا متسامحين مع مختلف الآراء. فلا غرابة إذن أن يعبر الباروني عن ذلك بقوله: «بلغت هذه الأمة بمدينة تاهرت من العلم والأدب والفضل والعدل المقام السامي حتى قال البعض منهم: «معاذ الله أن تكون عندنا أمة لا تعرف القمر في أية منزلة هو في كل ليلة».[1106] وقد اشتهر مؤسس الدولة الإمام عبد الرحمن بن رستم (160-171هـ) (776-787م) ببراعته في علوم الدين واللغة والفلك مما جعله يقبل على تأليف كتاب يفسر فيه القرآن الكريم.[1107] كما أنه ترك ديوانا يحتوي على خطب ورسائل وأجوبة كثيرة في مختلف فنون العلم.[1108] ويبدو أن ابن الصغير لم يطلع على هذه المؤلفات إذ قال في حديثه عن عبد الوهاب: «لم يكن لأبيه عبد الرحمن كتاب معروف من تأليفه».[1109]

ولم يختلف عنه ابنه وخليفته من بعده الإمام عبد الوهاب (171-211هـ) (787-826م). فقد كان له هو الآخر باع طويل في دفع الحركة الثقافية في تاهرت إذ ألف كتابا

1106- الباروني: رسالة سلم العامة، ص15؛ وينظر كذلك: الشماخي: السير، ص162.
1107- الشماخي: المصدر نفسه، ص193؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب، ص488.
1108 - الباروني: الأزهار، ج2، ص147.
1109 - ينظر: أخبار الأئمة الرستميين، ص45.

يعرف بـ «مسائل نفوسة» عبارة عن أجوبة لأسئلة بعثت بها إلى الإمام فأجاب عنها.[1110]

وبغية تعميم الثقافة والاستفادة من مؤلفات علماء المذهب المشارقة أرسل الإمام عبد الوهاب ألف دينار إلى إخوانه ليشتروا بها الكتب. ولما وصلهم المال اشتروا بها ورقا ونسخوا له الكتب مقدار أربعين حملا وأرسلوها إليه. فلما وصلته عكف على قراءتها حتى ختمها.[1111] ونظرا لاتساع معارفه في فنون العلم وقوة فهمه قال: «الحمد لله إذ وجدت جميع ما فيها محفوظا عندي، ولم أستفد منها إلا مسألتين، ولو سئلت عنها أجبت فيها قياسا».[1112] ولاشك أن هذه الكتب كانت النواة الأولى التي تشكلت منها مكتبة المعصومة الشهيرة التي أشادت بها المصادر، والتي كانت تضم نحوا من ثلاثمائة ألف مجلد في مختلف أنواع العلوم والفنون من رياضيات وفلك وهندسة وطب وغيرها.[1113]

ومما يدل على اهتمام البيت الرستمي بالعلم وتضلعه فيه أن الإمام عبد الوهاب بات مع أخته يقرآن مسائل الفرائض حتى تعلماها جميعا قبل طلوع الفجر.[1114] وقد حرص الإمام على تحصيل أبنائه العلوم خاصة العلوم الدينية حتى يكونوا قدوة لغيرهم فقد مر بنا أنه منع ابنه أفلح من السفر إلى كوكو ببلاد السودان للتجارة عندما عجز هذا الأخير عن الإجابة عن مسألة من مسائل الربا.[1115]

وتتحدث المصادر كثيرا عن الإمام أفلح (211-258هـ) (826-871م) وما اشتهر به من شجاعة وإطلاع كبير على فنون العلم من فقه ونحو وأصول وغير ذلك. وذكرت كتب السير أنه تولى شخصيا التدريس في مساجد تاهرت. فقد كانت تجلس بين يديه سبع حلقات،[1116] وقيل أربع حلقات من الطلبة يأخذون عنه العلوم التي برز فيها كعلم الغبار

1110 - ابن الصغير: المصدر نفسه، ص45-46؛ الباروني: المرجع السابق، ص218؛ الحريري: الدولة الرستمية، ص237.

1111 - الشماخي: السير، ص162؛ الحارثي: العقود الفضية، ص275.

عثر الباحث أثناء زيارته للمكتبة البارونية بجزيرة جربة التونسية على مخطوط يحتوي على مراسلات تمت بين الإمام عبد الوهاب وبين نفاث بن نصر.

1112 - الشماخي: المصدر نفسه، والصفحة ذاتها؛ الباروني: الأزهار، ج2، ص219؛ الباروني: رسالة سلم العامة، ص15.

1113 - السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب، ص490؛ الحريري: الدولة الرستمية، ص237.

1114 - الشماخي: المصدر السابق، ص162.

1115 - الوسياني: السير، (مخ)، ج2، و24؛ الدرجيني: الطبقات، ج2، ص320؛ سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج2، ص526.

1116 - الباروني: رسالة سلم العامة، ص16.

والنجامة وعلم الكلام واللغة والفقه.[1117] كما كان أديبا شاعرا ينظم الشعر. وقد حفظت لنا المصادر قصيدة يحث فيها الطلبة على العلم واستهلها بقوله:

العلم أبقى لأهـل العلم آثارا ... وليلهم بشموس العلم قد نارا
يحي به ذكرهم طول الزمان وقد ... يريك أشخاصهم روحا وأبكارا
حتى وإن مات ذو علم وذو ورع ... إن كان في منهج الأبرار ما مارا [1]

ومن نبغ في العلوم في البيت الرستمي أخت الإمام أفلح التي عرفت ببراعتها في علم الحساب والفلك والتنجيم.[1118] كما كان الإمام أبو بكر بن أفلح (258-261هـ) (871-874م) محبا للأدب والأشعار وأخبار الأولين.[1119] كما بلغ الإمام أبو اليقظان محمد بن أفلح (261-281هـ) (874-894م) مبلغا عظيما في العلم حتى إن نفوسة الساكنة بتاهرت كانت تجعل باب داره كالمسجد منهم من يقرأ القرآن، ومنهم من يصلي، ومنهم من كان يتحدث في فنون العلم. وقد ألف هذا الإمام العديد من الكتب منها موسوعة في «الاستطاعة» تتكون من أربعين كتابا، بالإضافة إلى كتب أخرى ألفها في الرد على المخالفين.[1120]

وقد انعكس تشجيع الأئمة للنشاط الفكري والعلمي على الجهة الشرقية للإمامة حيث عرف جبل نفوسة نشاطا علميا وفكريا مزدهرا، فانتشرت حلقات الدرس في مختلف قرى الجبل، وبرز العديد من العلماء الذين ذاع صيتهم في المشرق والمغرب فألفوا الكتب خاصة في العلوم الشرعية يقول الشماخي: «إن جبل نفوسة احتوى على الكرامات وعلى كثرة الصالحين والعلماء ما لا يوجد بغيره، وذكر أن بعض الأزمنة لا تحتاج فيه قرية إلى قرية للفتيا إلا «إجناون» و«ويغو» و«تندميرة» لا تحتاج دار إلى دار».[1121]

2 - النهضة العلمية بالجبل:

أ - حلقات العلم:

يرجع تاريخ الحركة العلمية في جبل نفوسة إلى العقد الأول من القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) حين قدم سلمة بن سعد إلى بلاد المغرب داعيا سكانه إلى

1117 - الشماخي: السير، ص193 و222.

عثرنا بالمكتبة البارونية بجربة على مخطوط عنوانه «جوابات الإمام أفلح» يجيب فيها عن أسئلة وردت إليه، منها جواب مرسل لشخص يدعى «البشير بن محمد».

1118- الباروني: رسالة سلم العامة، ص16؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب، ص489.

1119- ابن الصغير: أخبار الأئمة، ص1؛ الحارثي: العقود الفضية، ص244.

1120 - الشماخي: السير، ص222؛ الباروني: المرجع السابق، ص14-15.

1121 - ينظر: المصدر السابق، ص545.

الأخذ بالمذهب الإباضي. وقد مر بنا أن سلمة هذا أرسل محمد بن عبد الحميد مغطير النفوسي الجناوني إلى البصرة لأخذ العلم عن أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة، ولما عاد أصبح مفتيا، ويقال إنه أول من جمع القرآن كله في الجبل وحفظه.[1122] ثم أرسل سلمة بعثة علمية أخرى تكونت من: عبد الرحمن بن رستم، وأبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري، وعاصم السدراتي، وأبي داود القبلي النفزاوي وإسماعيل بن درار الغدامسي، وهي البعثة التي أصبح أصحابها يعرفون بـ «حملة العلم المغاربة». ولم تمض مدة زمنية طويلة بعد عودتها حتى برز العديد من العلماء الذين تلقوا عنهم العلم مثل أبي خليل الدركلي، عبد الوهاب بن عبد الرحمن، محمد بن يانس، وعمرو بن يمكتن. وتذكر المصادر أن هذا الأخير يعد أول من أسس حلقة الدرس في منطقة طرابلس حيث كان يمر القادمون من المشرق فكان يكتب عنهم لوحة من القرآن، ويعود إلى أهله فإذا حفظها عاد مرة أخرى إلى قارعة الطريق ليكتب غيرها. وظل على هذه الحال إلى أن حفظ القرآن كله.[1123] ويعود هذا الفضل في تكوين أول مدرسة لتعليم القرآن ومبادئ المذهب الإباضي في قرية «إيفاطمان» بالجبل.[1124] ولاشك أن هذه المدرسة التي كانت ملتقى للعلماء والطلبة وفاتحة لحلقات أخرى نظمت في مناطق متعددة بالجبل، مما كان لها الفضل الكبير في نشر المذهب الإباضي في هذه الربوع.[1125]

ولما قامت الدولة الرستمية في تاهرت (160-296هـ) انتقل العديد من رجال نفوسة إلى عاصمة الإمامة للتعلم على يدي الأئمة الذين نبغوا في مختلف فنون العلوم، فقد سافر كل من سعد بن أبي يونس، ووسيم بن سعيد، ونفاث بن نصر النفوسي إلى تاهرت للتعلم عند الإمام أفلح بن عبد الوهاب (211-258هـ) (826-871م). ولما بلغا من العلوم مبلغا عظيما عادا إلى بلدهما.[1126]

وبدأت الحلقات العلمية تنتشر تدريجيا وفي كل قرى الجبل مثل «جادو، شروس، لالت، تندميرة، إجناون، ابديلان، قطرس، إيفطمان ونويرف، تميجار، إجيطال ويغو، وميري» وغيرها. ولاقت هذه الحلقات إقبالا كبيرا من التلاميذ والطلبة، فمنها تخرج أشهر العلماء النفوسيين وغير النفوسيين. فلا غرابة أن يتعجب الإمام عبد الوهاب عندما قدمت إليه

1122 - نفسه، ص143؛ صالح مصطفى: ليبيا منذ الفتح، ص251.

1123 - ابن سلام: الإسلام وتاريخه من وجهة نظر إباضية، ص149؛ الشماخي: السير، ص142-143؛ عوض خليفات: نشأة الحركة الإباضية، ص137؛ بحاز: الدولة الرستمية، ص277؛ موسى لقبال: المغرب الإسلامي، ص166.

1124 - الشماخي: المصدر نفسه، ص142؛ لقبال: المرجع نفسه والصفحة ذاتها؛ بحاز: المرجع نفسه، ص278.

1125 - بحاز: المرجع نفسه، ص277؛ عوض خليفات: المرجع السابق، ص137.

1126 - الشماخي: المصدر السابق، ص214.

جماعة منهم «لكثرة علمهم، وشدة ورعهم، ورزانة أحلامهم».[1127] واستنجد بهم في حربه مع الواصلية في أحواز تاهرت.

وقد شجع العلماء القائمون على شؤون الحلقة التلاميذ للالتحاق بحلقاتهم، فكثرت أعدادهم حتى إن حلقة علمية انتظمت ببلاد «أدرج» بالجبل بلغ تعداد تلاميذها نحو ثلاثمائة تلميذ يقرؤون العلوم والسير.[1128] كما أن مدينة «شروس» أم قرى الجبل شهدت العديد من حلقات الدرس. فقد كان شيوخ أهل «تمنكرت» يجتمعون بشيخ من أهل شروس لا تذكر المصادر اسمه كل يوم جمعة في مسجد «أجلمم» يتذاكرون ويتناقشون في أمور دينهم.[1129] كما كانت للعالم «عبود الكزيني» حلقة علمية أمها التلاميذ من مختلف الجهات.[1130] ويبدو أن هذه الحلقات العلمية كانت تضم مختلف المذاهب. فقد ذكرت المصادر أن جماعة اجتمعت في مكان يسمى «تنين أودرشل» (تنين إن دركل) لطلب العلم منهم أبو نصر التمصمصي، نفاث بن نصر، عمروس بن فتح ومهدي النفوسي.[1131]

وكانت أغلب هذه الحلقات تتم في المساجد المنتشرة في الجبل، وقد حرص العلماء والمشائخ على بناء المساجد وتعميرها إذ كان أغلب العلماء يتخذون مصليات خاصة لهم يتعبدون فيها.[1132] وقد ذكرت السير أن أبا المنيب محمد بن يانس كان له سبعة مساجد، بعضها في الجبل، وبعضها في السهل، كان ينتقل إليها يوميا للصلاة.[1133] ومن المحتمل أن دروسا كانت تنظم في هذه المساجد حرص أبو المنيب على حضورها. ويرى الأستاذ بحاز أنه من المحتمل أن تكون ملحقات لهذه المساجد استعملت لتعليم المبتدئين.[1134] ولما أقام الإمام عبد الوهاب (171-211هـ) (787-826م) بجبل نفوسة ينتظر قدوم موفده بالفتوى من المشرق فيما يخص حجه ظل لمدة سبع سنوات بمسجده بقرية «ميري» ببني زمور يعلم النفوسيين مسائل الصلاة. وانقضت هذه المدة دون أن يكمل هذه المسائل لتعمقه فيها. ويحتمل أن عبد الوهاب ألقى دروسا أخرى في المسجد المعروف باسمه

1127 - الشماخي: المصدر نفسه، ص171.

1128 - الوسياني: سير مشائخ المغرب، (تحقيق: إسماعيل العربي)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1985، ص29.؛ الدرجيني: الطبقات، ج2، ص373.

1129 - الشماخي: السير، ص326.

1130 - المصدر نفسه والصفحة ذاتها.

1131 - نفسه، ص170؛328.

1132 - عن أسماء هذه المصليات والمساجد وأمكنتها ينظر:الشماخي: المصدر نفسه، ص598 وما بعدها؛..R. 365-Basset: Les Sanctuaires dudjebel Neffussa, p361 .

1133 - الشماخي: المصدر نفسه، ص170؛ الدرجيني: الطبقات، ج2، ص298.

1134 - ينظر: الدولة الرستمية، ص278.

الذي بني في جبل دمر. ومصلاه بقرية «تيطاوين» ومصلاه بقرية «تلالت».[1135]

كما كانت لأبي هارون التملوشائي حلقة علمية في قرية «إجناون» ثم انتقل إلى «إبناين» عندما ولي الأمور فبنى مسجدا أصبح «كهفا ومأوى لأهل الإسلام».[1136] وبالإضافة إلى المساجد كانت الحلقات العلمية تقام في المنازل مثل «دار بني عبد الله» وهي دار أبي محمد الدرفي الذي كان حاكما للجبل.[1137] وكان يحضر مجلسه ليلا العلامة أبو يوسف وجدليش.[1138] كما كان منزل أبي ذر أبان وسيم قبلة لطالبي العلم من الرجال والنساء.[1139] ومنزل أبي هارون الجلالي الذي يعد من مشاهير المشايخ بالجبل، وأغزرهم علما. إذ ظل ثلاثين سنة يتعلم على يدي أبي القاسم الأصول والحجة والمناظرة. فهو الذي قال فيه ابن ماطوس: «لو علم الناس ما ينفعهم لازدحموا عند باب داره كما يزدحمون عند دار أبي عبيدة بالبصرة».[1140] كما اتخذ عمر بن يمكتن داره في إفاطمان مدرسة لتعليم الصبيان القرآن الكريم.[1141]

وقد اتخذ العلماء الغيران[1142] كمراكز خاصة بعد أن دخل أتباع المذهب الإباضي في السرية بالعودة مرة أخرى إلى إمامة الكتمان بعد إنقراض الإمامة الرستمية سنة 296هـ (909/908م). مثل غار «أجلو» الشرقية بالمغرب الأوسط.[1143] وغار «تين يسلى».[1144] وغيران «بني أجاج» بجربة.[1145] ونظمت الحلقات العلمية بالخيم لأنه من عادة العزابة إذا انتقلوا إلى البادية يطوفون بين الأحياء يتفقدون أحوال أهل الدعوة الدينية والدنيوية «بنو لهم خيمة فيكونون في عزمهم مجتهدين».[1146] وكانت الحلقات تقام في الهواء الطلق خاصة في الربيع. ففي جربة مثلا كانت حلقتان في موضع يسمى «يأتيجان» تحت

1135 - الشماخي: السير، ص158-159؛ الباروني: الأزهار، ج2، ص190 وما بعدها.

1136 - الشماخي: المصدر نفسه، ص301.

1137 - نفسه، ص305.

1138 - نفسه، ص333.

1139 - الدرجيني: الطبقات، ج2، ص301-303؛ الشماخي: المصدر نفسه، ص215-217؛ علي يحي معمر: الإباضية في ليبيا، ص113-116؛ بحاز: الدولة الرستمية، ص286.

1140 - الشماخي: المصدر نفسه، ص278؛ معمر: الإباضية في ليبيا، ص161.

1141 - الشماخي: المصدر نفسه، ص142؛ بحاز: الدولة الرستمية، ص278؛ لقبال: المغرب الإسلامي، ص166.

1142 - جرت العادة أن يتخذ الإباضية الغيران كمراكز للتدريس، فقد كان إمام المذهب أبو عبيدة مسلم يعلم تلاميذه وطلبته في سرداب في مدينة البصرة. وقد سبق الذكر أن حملة العلم المغاربة تخرجوا من حلقته. ينظر: أبو زكريا: كتاب السيرة، ص36.

1143 - الشماخي: المصدر السابق، ص391.

1144 - أبو زكريا: المصدر السابق، ص255.

1145 - الدرجيني: طبقات المشائخ، ج2، ص289.

1146 - الوسياني: السير (مخ)، ج2، و77.

شجرتين. أما تلاميذ أبي الربيع سليمان بن يخلف بالجزيرة فقد بنوا عريشا عند عيون «تمولسة» يجتمعون فيه مع شيخهم.[1147]

وتشير الروايات إلى أن العلماء كانوا في ترحال دائم ينتقلون بين مواطن إخوانهم في الجبل وغيرها من المواطن للحفاظ على سير أهل الدعوة. فكانوا يعلمون التلاميذ والطلبة خاصة يوم الجمعة حيث كانوا «يختلفون بين سائر وراجع مثل النمل، وتبيض الجبال من كثرتهم».[1148]

ولعل أول عالم سن هذه السنة الحميدة عاصم السدراتي - أحد حملة العلم المغاربة - حيث كان يركب ناقته ويتجول بين الأحياء يعلم الناس في مواطنهم، ويبين لهم أحكام الدين. فكان يتوجه إلى قرية «تيغيت» قرب نالوت فيقيم بها أياما ثم يمر على «تيفست» وأدرج (درج) ثم غدامس. ومنها يتوجه إلى مواطن سدراتة في جبل أوراس. وقد اتخذ في طريقه العديد من المصليات، كان يلقي فيها دروس الوعظ والإرشاد والنصح. وتذكر الروايات أنه من كثرة ترحاله وتجواله بين مواطن الإباضية نسجت حول ناقته العديد من الأقاصيص. ويرجع الفضل إلى عاصم في تكوين أول طبقة من العلماء الذين اشتهروا فيما بعد في الجبل كأيوب بن العباس وأبي مرداس مهاصر وأبي الحسن الأبدلاني وغيرهم كثير.[1149]

وقد اشتهر مشايخ بعض القرى، دون الأخرى بكثرة الاجتماع والتزاور مثل مشايخ قرية «ولون».[١١٥٠] وكان هؤلاء المشايخ يحثون الطلبة على التعلم والتفقه في الدين. ففي السير أن أبا خليل صال الدركلي أحد علماء الطبقة الخامسة (٢٠٠-٢٥٠م) كان يحرض تلاميذه على المواظبة على حضور حلقات الدرس بقوله: «سيروا إلى الحلقة واقصدوها حيثما كانت يا كسالى فإن رجلا قد سار من الجبل إلى فزان وإلى غدامس وإلى الساحل رغبة في الحلقة وفيما يستفيده».[١١٥١] ولذلك انتظمت حلقات عديدة ما بين فزان وقابس وبين الجبل وتاهرت، التحق بها الطلبة من مختلف الأصقاع للتفقه في الأصول، والفروع، والسير، وعلوم الشريعة، واللغة العربية، وآراء الفرق والمذاهب الأخرى.[١١٥٢]

ولم يستقر العلماء في مكان محدد بل كانوا ينتقلون من المغرب الأوسط إلى إفريقية،

1147 - الدرجييني: المصدر السابق، ج1، ص193.

1148- الشماخي: السير، ص301.

1149 - علي يحي معمر: الإباضية في الجزائر، ص130-131؛ بحاز: الدولة الرستمية، ص283-284.

1150 - الشماخي: المصدر السابق، ص301.

1151 - الدرجيني: الطبقات، ج2، ص299-301.

1152 - بحاز: الدولة الرستمية، ص285.

أو إلى الجبل والعكس صحيح، فالعالم أبو نوح مثلا أنشأ حلقة في وارجلان، ثم انتقل إلى أماكن أخرى في بلاد المغرب، واستقر به المقام أخيرا في زويلة.[1153] وهذا عالم نفوسي يدعى أبا يخلف استقر بجربة، وكان متقنا لمسائل الحيض فمتى وردت مسألة من هذه المسائل على عالم جربة أبي صالح بكر بن قاسم رفعها إلى أبي يخلف ليتكلم فيها.[1154] كما كانت عادة أبي الخير توزين الزواغي التردد بين الجبل وبين زواغة طالعا نازلا.[1155]

وكان فى أغلب الأحيان يرافق التلاميذ والطلبة شيوخهم أينما تحركوا، فقد كانت لأبي ميمون الإيجطالي (من علما الطبقة الخامسة) (200-250هـ) حلقة من الطلبة ترافقه من مكان إلى آخر.[1156] كما كان جلدين البغطوري يرحّل بتلاميذه إلى قرية «إتلجام» قاصدا العلامة أبا يعقوب فيمكثون عنده شهرا.[1157] وقد سن علماء المذهب سنة حافظ عليها أتباع المذهب منذ القدم وتتمثل في خروجهم إلى البادية خاصة في فصل الربيع للترويح عن النفس ونشر العلم والفضيلة بين سكانها. فقد خرج أبو القاسم وأبو خزر في سنة من السنين إلى البادية ليعلما سكانها «ما جهلوا من فهم أمور دينهم».[1158] ويذكرانهم ما نسوا، ويتفقدان أحوالهم لئلا يضلوا عن طريق السلف الصالح. ومن أجل ذلك انتشر إثنان وثلاثون عالما من علماء المذهب بالبادية ليكتفوا بالحلقات العلمية.[1159]

وتجدر الإشارة إلى أن هناك حلقات علمية تنظم في الجبل يحضرها المشايخ والعلماء فقط للنظر في أمور أهل الدعوة. فقد روت السير أن العالم أبا القاسم سدرات بن الحسن البغطوري النفوسي - وهو من الناجين من موقعة مانو - كان يسير في كل ليلة من بغطورة[1160] إلى «ويغو» التي اشتهرت بحلقاتها رغم بعد المسافة فيحضر المجلس ثم يعود بعد انقضائه. ويعد أبو القاسم هذا من العلماء الذين أنقذوا المذهب بعد «مانو» إذ أباد الأغالبة حوالي أربعمائة عالم من نفوسة. فجلس يفتي ثلاثة أيام بلياليها، وقيل يوم وليلة نظرا لقلة العلماء. وظل يعلم بعد الموقعة ثلاثين سنة إلى أن توفي عن عمر يناهز مائة وعشرين سنة.[1161]

1153 - الشماخي: السير، ص361؛ عوض خليفات: النظم، ص24.

1154 - الوسياني:السير (مخ)، ج2، و16؛ الدرجيني: طبقات المشائخ، ج2، ص358.

1155- الشماخي: المصدر السابق، ص377؛ معمر: الإباضية في ليبيا، ص150.

1156 - الوسياني: المصدر السابق، ج2، و14؛ الدرجيني: المصدر السابق، ج2، ص294-296؛ بحاز: الدولة الرستمية، ص284.

1157 - الشماخي: المصدر السابق، ص329.

1158 - الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص121؛ خليفات: النظم، ص23.

1159 - الشماخي: المصدر السابق، ص381.

1160 - تسمى كذلك «بقطورة» لأن الغين تنطق قافا لدى بعض قبائل الجبل.

1161 - الشماخي: المصدر السابق، ص235.

وكان أبو حسان خيران بن ملال الفرسطائي ينتقل بين المنازل لإحياء الدين وتعليم الجهال، فكان يغيب مدة طويلة عن أهله. وكانت مجالسه تؤمها العجائز والنساء والطلبة.[1162] ولم تقتصر المجالس على الحواضر الكبرى بل انتشرت في كل قرية وفي كل حي. ففي قرية «فرسطا» كان يجلس لأبي الخير الأرجاني، وأبي يحي الفرسطائي، وأبي محمد الكباوي.[1163] وفي «تاغرويت» اجتمع سبعون شيخا من أصحاب القلنسوات حسب تعبير الشماخي.[1164] ومن الحلقات التي كانت تعقد في «تنين» و«تماوطت» تخرج العديد من العلماء منهم أبو سعيد يخلفتن النفوسي.[1165]

ب - تمويل طلبة العلم والانفاق عليهم:

مما شجع العلماء وطلبتهم على التجوال بين أهل المذهب هو أن المشائخ كانوا يتبرعون للإنفاق على الطلبة وعلى العزابة الذين كرسوا حياتهم لنشر الدعوة وإحياء الدين. ففي زمن أبي نوح سعيد بن زنغيل (الطبقة الثامنة 350-400هـ) أحضر المشايخ سراويل مملوؤة بالدراهم لتوزع على سائر العزابة على قدر ما يرون لكل واحد منهم.[1166] كما كان العلماء ينفقون على الطلبة من مالهم الخاص. فقد كان أبو عبد الله محمد سليمان النفوسي (من علماء الطبقة التاسعة 400-450هـ) ممن وسع الله عليه في العلم والمال، فكان يعلم التلاميذ ويطعمهم ويكسيهم من ماله الخاص، فإذا أقبل الشتاء اشترى لهم أكسية جديدة فيها دفء، وإذا أقبل الصيف اشترى لهم ما يخف لبسه.[1167] وكان أبو القاسم يزيد بن مخلد هو الآخر ينفق على طلبته تشجيعا لهم على الاستمرار في ملازمة الحلقة فهو القائل: «لو علمت مكان مسألة أستفيدها ممن فاتني بها لشددت إليها رحلي في مشرق أو مغرب ولا أخشى أن يعذبني الله إلا على الجهل».[1168] كما كانت قبائل «زنزفة، ولماية، ومزاتة، وما يحيط بهم من القبائل يبذلون الجهد في مساعدة الطلبة بتقديم المعونة والهدايا لهم،[1169] ولذلك نلاحظ أن الطلبة وحتى المشايخ كانوا يرحّلون إلى حواضر أخرى للإستفادة من حلقاتها. فهذا أبو يحي بن أبي القاسم الفرسطائي انتقل من فرسطاء إلى شروس للالتحاق بحلقة ابن

1162 - نفسه، ص309.

1163 - نفسه، ص165.

1164 - نفسه، ص296.

1165 - نفسه، ص480.

1166 - أبو زكريا: كتاب السيرة، ص357؛ الوسياني: سير مشائخ المغرب، ص66.

1167 - الدرجيني: طبقات المشائخ، ج2، ص418؛ الشماخي: المصدر السابق، ص406.

1168 - خليفات: النظم، ص22.

1169 - الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص193.

ماطوس (ط-7 300-350هـ) فلم يجد مسكنا يأويه حتى أنه قال: «ما أوسع شروس وما أضيقها».[1170]

جـ - التنافس العلمي:

مما يمكن ملاحظته من خلال النصوص أن حلقات الدرس لم تكن للوهبية فقط، بل حتى لإتباع الفرق الأخرى التي تخالفها في بعض المسائل الفقهية. فقد ذكرت السير أن نفاث بن نصر الذي خرج عن طاعة الإمام عبد الوهاب كانت له حلقة في «تنين إن دركل».[1171] ونعتقد أنه كانت للخلفية إتباع خلف بن السمح حلقات علمية يبينون فيها للناس آراءهم. وقد ساهم هذا الصراع الفكري في إزدهار الحركة الثقافية في الجبل، فألف الشيوخ العديد من الأسفار للرد على آراء مخالفيهم.

وتجدر الإشارة في هذا المضمار إلى أنه بعد ازدهار الحركة الثقافية وكثرة العلماء تخصص البعض منهم في مستوى معين من التدريس. فقد كان أبو يعقوب بن محمد بن يدر الدرفي (الطبقة العاشرة 450-500 هجري) يجلب العزابة إلى «أمسنان». فيبتدئون عنده فيعلمهم السير والآداب، ثم ينتقلون إلى الشيخ محمد بن سدرين الوسياني فيقرؤون عنه الإعراب والنحو، ثم ينتقلون إلى أبي عبد الله محمد بن بكر فيعلمهم العلم والكلام والأصول والفقه.[1172]

3 - إرساء تقاليد الحلقة:

كانت الدروس التي تلقى في المساجد أغلبها دروس الوعظ والإرشاد وتعليم ما لا يسع المسلم جهله من أمور الدين. أما دروس المجالس فكانت كثيرة ومتنوعة منها: التفسير والحديث والفقه والأخلاق وعلوم العربية وسير السلف الصالح.[1173] كما كانت كتب متداولة في هذه المجالس يقرؤها الطلبة خاصة كتب الفقه. وقد أبدى أبو عبد الله محمد بن بكر النفوسي رأيه في بعض هذه الكتب فقال: «من يدرس كتب اللقط كمن يهيل أنواع الثمر إلى غرارته، وأن كتاب أبي غانم (مدونة أبي غانم الصفري) قد أوضح قول

1170- الشماخي: السير، ص310.

1171 - الشماخي: المصدر نفسه، ص170.

1172 - الدرجيني: طبقات المشائخ، ج2، ص397؛ الشماخي: المصدر نفسه، ص517؛ عمرو خليفة النامي: ملامح عن الحركة العلمية بوارجلان، الأصالة، عدد42-43، منشورات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، 1977، ص22.

1173 - الدرجيني: المصدر نفسه، ج1، ص119؛ خليفات: النظم، ص22.

كل عالم من مشائخه.[1174] وقد كانت أكثر مجالس أبي عبد الله محمد بن بكر في التحذير والتخويف».[1175]

ويعد العالم الجليل أبو الربيع سليمان بن زرقون النفوسي من الأوائل الذين اهتموا بإقامة الحلقات العلمية بعد انقراض الإمامة الرستمية. وقد وضع تقاليد جديدة لنظام الحلقة لم تكن معروفة في السابق مثل استعماله «الخطة والهجران» لأحد تلاميذه المدعو أبو عبيدة وشق بسبب مسألة أفتى فيها.[1176] وتعد الخطة من أهم قواعد الحلقة التي أسسها مؤسس نظام العزابة في بداية القرن الخامس الهجري العالم أبو عبد الله محمد بن بكر النفوسي. والخطة والهجران إذن هي عقوبة يعاقب بها التلميذ أو الطالب متى أجرم في قول أو عمل وأن الصلاح من الإباضية يهجرونه ولا يكلمونه ولا يحق له العودة إلى المجلس إلا إذا أعلن التوبة واستغفر، فإذا قبلت توبته عاد إلى الجماعة.[1177] وتعد هذه الإجراءات الجديدة التي أدخلها على نظام الحلقة هي مقدمة لكل التنظيمات والتقاليد التي أسسها من جاء بعده. وقد ساهم كذلك تلميذاه أبو القاسم يزيد بن مخلد وأبو خزر يغلى بن زلتاف الوسيانيان اللذان عاشا في النصف الأول من القرن الرابع الهجري في تطوير نظام الحلقة، بحيث أصبحت لها سمات وملامح مميزة وقواعد ثابتة، حيث أجبر أبو القاسم تلامذته الحضور إلى الحلقة في أوقات معينة، وتناول الطعام جماعيا في وقت محدد، خاصة وأنه كان ينفق على تلامذته من ماله الخاص. ونجد أن أبا القاسم منع على طلبته الزواج فكان يقول لهم: «لأن يبلغني موت أحدكم أهون علي من أن يبلغني أنه تزوج». والغرض من ذلك رغبته في تفرغ التلاميذ للتحصيل العلمي والمعرفة. ومن التنظيمات الأخرى التي استحدثها أبو القاسم نوم الهاجرة حيث كان يلزم تلاميذته النوم في أوقات معينة.[1178]

وبعد رحيل أبي القاسم إلى مصر صحبة المعز لدين الله الفاطمي قام أبو نوح بإدخال بعض الإضافات على التقاليد السابقة، وظهرت مصطلحات لم تكن مستعملة في السابق منها «ختمة الغداة وختمة العشاء». وظل الإباضية طيلة القرن الرابع الهجري «العاشر الميلادي» يقيمون الحلقات العلمية ويجتهدون في خلق نظام دقيق يحافظ على استمرار المذهب في مرحلة الكتمان، ولكنهم لم يتوصلوا إلى وضع نظام متكامل

1174 - الدرجيني: المصدر السابق، ج2، ص389.

1175 - الوسياني: سير مشائخ المغرب؛ (تحقيق: إسماعيل العربي)، ص47.

1176 - الشماخي: السير، ص382؛ عزض خليفات: النظم، ص20-21.

1177 - الدرجيني: طبقات المشائخ، ج1، ص177؛ صالح باجية: الإباضية بالجريد، ص186.

1178 - الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص174؛ عوض خليفات: المرجع السابق، ص22.

الجوانب يطبق في مختلف المناطق التي يتواجد بها الإباضية. واستمر الوضع على هذه الحال إلى بداية القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي). عندما تمكن أبو عبد الله محمد بن بكر النفوسي من وضع نظام الحلقة. فهو «أول من ألهم سلوك الطريقة التي حفظ بها هذا المذهب فرسم المهمل وقيد الشارد»[1179] فبعد أن درس عن الشيخ أبي زكريا فصيل بن أبي ميسور بن وجين اليراسني بجربة. وأبي نوح سعيد بن زنغيل. انتقل إلى مدينة القيروان لدراسة اللغة العربية والنحو. وظل بالقيروان يحضر دروس اللغويين والنحويين والبلاغيين حتى تمكن من اللغة العربية وفنونها. وانتقل إلى الحامة ببلاد الجريد ليدرس علم الفروع على يدي الشيخ أبي عمران موسى بن زكرياء. وفي تقيوس طلب منه زكريا ويونس بن الشيخ فصيل أن يرتب الحلقة فرفض. واشترط عليهم أن يبقوا معه دون أن يسألوه مدة أربعة أشهر. ثم وقع اختياره على بلاد أريغ في صحراء المغرب الأوسط وارتحل إليها رفقة طلبته. وكان في انتظارهم أبا القاسم يونس بن ويزكن الوليلي الذي هيأ لهم غار في «تين يسلي» قرب أريغ وأصبح هذا الغار أول مقر لحلقة العزابة التي كونها أبو عبد الله سنة 409هـ وسمي الغار بالتسعى نسبة إلى تلك السنة.[1180] وفي الأخير نقول إن الحلقات العلمية في الجبل قد أنجبت علماء أجلاء عجب الإمام عبد الوهاب من كثرة علمهم وشدة ورعهم عندما زارته جماعة منهم إلى تاهرت.[1181] ولا غرو أن يستنجد بهم الإمام عبد الوهاب لمناظرة واصلية تاهرت. وقد مر بنا أن مهديا النفوسي تكفل بالجدال والمناظرة. وأيوب بن العباس بالمبارزة ومحمد بن يانس بتفسير القرآن. وأبو الحسن الأبدلاني بالحلال والحرام.[1182] كما كثر العلماء في الجبل حتى غدوا في عصر واحد إثنى عشر شيخا مستجاب الدعاء وهم: أبو مرداس مهاصر التبرستي. وأبو المنيب محمد بن يانس الدركلي. وأبو عامر التصراري. وأبو الحسن الأبدلاني. وماطوس بن ماطوس الشروسي. وأبو مهاصر موسى بن جعفر. وهؤلاء من الجهة الغربية من الجبل أما الجهة الشرقية ناحية جادو فهم: أبو زكريا التوكيتي. وأبو عبيدة عبد الحميد الجناوني. وأبو زيد المصغوري. وأبو يحي تسكينت التارديتي. وأبو الشعثاء السنتوتي. وأبو يحي الأصغوي.

1179 - الدرجيني: المصدر نفسه والجز ذاته. ص167.

1180 - أبو عبد الله محمد بن بكر: سير الحلقة. نشر ضمن Annali Instituto Universitario Di Napoli, Nuova Serix 10 Napoli 1960, p10.؛ أبو زكريا: كتاب السيرة. ص252 وما بعدها؛ الدرجيني: المصدر السابق. ج1. ص167؛ معمر: الإباضية في الجزائر. ص177-178؛ خليفات: النظم. ص24-26.

1181 - الشماخي: السير. ص171.

1182 - المصد نفسه. ص155.

3 - العلوم والعلماء:

أ - العلوم:

كانت العلوم التي يتعلمها الطلبة في الحلقات والمجالس العلمية في أغلبها دينية. كالتفسير. والحديث. والفقه. أما بالنسبة للمبتدئين فعندما يلتحقون لأول مرة بالحلقة كانوا يحفظون ما تيسر لهم من سور القرآن الكريم. ويتلقون مبادئ اللغة العربية. فإذا تمكن التلميذ من ذلك انتقل إلى مستوى أعلى فيتوغل في علوم الفقه وعلوم العربية وأساليب المناظرة.[1183]

وقد تخصصت بعض الجهات في فن من فنون العلم. فعندما أتقن أبو الربيع سليمان بن زرقون النفوسي علم الأصول في الجبل انتقل إلى جربة ليتعلم بها علوم الفروع على فقهاء بني يراسن (يهراسن). وبجربة كون هو الآخر حلقة في علم الكلام من طلبة الجزيرة وغيرهم.[1184] ولما تعلم أبو محمد ويسلان بن يعقوب الدمجي المزاتي القرآن وحفظه رجع إلى علم الأصول والحجة والكلام فمكث فيه ستة عشر سنة على يدي أبي القاسم يزيد بن مخلد. ولما تمكن من علم الكلام انتقل إلى الجبل ليتعلم الفقه على علمائها. ظل فيه مدة سبع سنوات حتى بلغ مبلغا عظيما في العلوم وجمع ديوانا كبيرا دون فيه ما درسه من معارف ثم عاد إلى بلاده.[1185]

وقد أولى إباضية الجبل عناية خاصة بالتفسير لحاجتهم الماسة إليه في فهم القرآن الكريم. وقد برع فيه أبو المنيب محمد بن يانس فهو الذي تكفل بعلم التفسير في مناظرة الواصلية في تاهرت.[1186] كما اهتم النفوسيون بالفقه فأنجب الجبل العديد من الفقهاء الذين تولوا الفتوى. وقد مر بنا أن الجبل في عصر من العصور كانت لا تحتاج فيه دار إلى دار أخرى في الفتوى. وممن اشتهر بذلك عبد الحميد بن مغطير الجناوني. حتى إن الإمام عبد الوهاب أثناء زيارته للجبل لم يفت ثلاثة أيام. وظل ينتظر قدوم ابن مغطير.[1187] ولما حدثت النكسة في موقعة مانو لم يبق من العلماء الذين تولوا الإفتاء سوى أبي القاسم البغطوري.[1188]

1183 - بحاز: الدولة الرستمية. ص293-294.

1184 - الدرجيني: الطبقات. ج1. ص191-193.

1185 - الوسياني: سير مشائخ المغرب. (تحقيق إسماعيل العربي). ص18-19.

1186 - الشماخي: السير. ص166؛ بحاز: الدولة الرستمية. ص298-299.

1187 - الشماخي: المصدر نفسه. ص144.

1188 - البغطوري: سير نفوسة. و49.

أما فيما يخص علوم الحديث فإن الإباضية ظلوا يعتمدون على مؤلفات المشارقة، كديوان جابر بن زيد الذي نسخه نفاث بن نصر في بغداد،[1189] وكتاب مختصر ابن محبوب الذي وصل منه جزء واحد فقط إلى الجبل - وهو الجزء السادس - على الرغم من أن الديوان يتألف من سبعين جزءا،[1190] وكتاب الخليل الصالح لمؤلف مجهول والذي كان المصدر المعتمد عليه عند أهل «أمسين» بالجبل.[1191] وآثار الربيع عن ضمام عن جابر رواية أبي صفرة[1192] عبد الملك بن صفرة، ومدونة أبي غانم الصفري التي نسخها عمروس بن فتح عندما قدم أبو غانم من المشرق زائرا.[1193] وقد حاول علماء المذهب في الجبل تأليف الكتب في علوم الحديث، مثل عمروس بن فتح الذي عزم على «أن يعلق تأليفا في الفقه لم يسبق في طريقته عزم أن يفرق العلم إلى ثلاثة أوجه: التنزيل، والسنة، والرأي، وما يتعلق بكل واحد منها من المسائل فيرتب كل باب من أبوابه، ويبينه على القواعد الثلاثة».[1194]

كما أولى النفوسيون عناية خاصة بعلم الكلام، والتفنن في أساليب الرد والجواب نظرا لوجود خلافات وتباين في الآراء في بعض المسائل بين أتباع المذهب الواحد، فظهرت النكارية، والخلفية، والنفاثية، والفرثية، والنفوسية، أو التمزينية أصحاب أبي يونس وسيم النفوسي التمزيني، بالإضافة إلى الواصلية والشيعة. ولذلك فإن الحركة الثقافية امتازت بكثرة الجدال، والمناظرة، فتعددت مجالس المناظرة، وكثرت المؤلفات في هذا الصنف من العلوم، وأقبل الطلبة على حلقات علم الكلام، وتخصص العديد من العلماء فيه، كمهدي النفوسي، وأبي نوح سعيد بن زنغيل الذي يصفه الدرجيني بقوله: «كان عالما بفنون المناظرات والرد على أصحاب المقالات».[1195] كما كرس أبو نصر التمصمصي حياته لمناظرة النفاثية، فقد دار في الجبل أربعين مرة يحذر الناس من فتنة نفاث وقيل من فتنة خلف.[1196] وتذكر السير أن أبا محمد عبد الله بن مانوج (من علماء الطبقة التاسعة 400-450هـ) قال: «ندمت على ثلاث فاتتني من الدنيا قراءة كتاب الجهالات وهو كتاب في الكلام عظيم الشأن، وزيارة أهل الدعوة، وحضور مجالس أبي عمران موسى بن زكريا».[1197]

1189 - أبو زكريا: كتاب السيرة، ص141.

1190 - الوسياني: السير (مخ)، ج2، و16.

1191 - الشماخي: السير، ص235.

1192 - الشماخي: المصدر نفسه، ص405.

1193 - الدرجيني: طبقات المشائخ، ج2، ص323؛ معمر: الإباضية في ليبيا، ص137-138.

1194 - الدرجيني: المصدر نفسه والجزء ذاته، ص320-321.

1195 - المصدر السابق، ج1، ص147.

1196 - الشماخي: السير، ص202.

1197 - الشماخي: المصدر نفسه، ص401.

وظل علماء الوهبية في الفترة التي نؤرخ لها يحاجون الفرق المخالفة، فقد كان عمروس بن فتح من الذين تصدروا لنفاث بن نصر رفقة مهدي النفوسي الذي اشتهر أنه كان «أحد من صد مكايد نفاث بن نصر النفوسي، ومنع انتشار بدعه في الآفاق».[1198]

أما في العلوم التطبيقية - كالطب مثلا - لا تفيد مصادرنا بأسماء أطباء نفوسيين، ويبدو أن عددهم كان ضئيلا جدا اللهم ورود بعض لإشارات منها أن نفوسيا أرسل في طلب دواء العيون من السودان،[1199] وآخر طلب دواء الريح.[1200] ويبدو - كما قال الأستاذ بحاز - أن أغلب الأطباء في الدولة الرستمية كانوا من اليهود والنصارى.[1201] ونحن كذلك لا نستبعد ذلك خاصة وأن اليهود كانوا متواجدين بكثرة في الجبل.

وفيما يخص علم الحساب والفلك والتنجيم فقد برع عدد قليل من النفوسيين في هذا الميدان، فالمصادر تذكر مثلا أن أبا يحي بن أبي محمد الدرفي كان متفننا في العلوم عارفا بالنجوم،[1202] وأن أبا أيوب التمنكرتي كان هو الآخر متضلعا في علم النجوم.[1203]

وأما العلوم العربية فإن النفوسيين لم يضعوها ضمن أولوياتهم العلمية إذ صبوا كل اهتماماتهم - كما قلنا - على العلوم الدينية، وعلى الرغم من ذلك فقد ترك لنا شيوخ الجبل بعض الخطب والرسائل كالخطبة التي ألقاها أبو الخطاب المعافري على سكان طرابلس يحثهم فيها على الجهاد وقتال قبيلة «ورفجومة» وإخراجها من القيروان بسبب المناكر التي ارتكبتها بها. فبعد أن حمد الله وأثنى عليه قال: «أطمع لمن مات في هذه الغزوة الجنة، إلا من فيه إحدى ثلاث خصال قاتل نفس ظلما، وقاعد على فراش حرام، ومن في يده أرض مغصوبة، والمخرج منها أن يتبرأ من المرأة ويتوب إلى الله ويتبرأ من الأرض، وليشهد على تركها، ولتعد نفس القاتل لأولياء المقتول، فإن لم يجدهم فليدفع نفسه في سبيل الله».[1204]

وفي فن الرسائل حفظت لنا المصادر نص رسالة بعث بها أبو منصور إلياس التنمديرتي عامل الإمام أبي اليقظان على الجبل إلى العباس بن طولون يقول له فيها: «أما أنك أقرب الكفار مني وأحقهم بمجاهدتي، فقد بلغني من قبيح أفعالك ما لا يسعني التخلف

1198 - نفسه، ص170.

1199- الوسياني: السير (مخ)، ج2، و4؛ الدرجيني:طبقات المشائخ، ج2، ص327.

1200- الشماخي: المصدر السابق، ص190.

1201 - بحاز: الدولة الرستمية، ص373.

1202 - الشماخي: المصدر السابق، ص286.

1203 - نفسه، ص326.

1204 - الشماخي: المصدر نفسه، ص128؛ صالح مصطفى: ليبيا منذ الفتح، ص269.

معه عن جهادك، وأنا على إثر رسالتي (آت) إليك».[1205]

وتؤكد المصادر على أن النفوسيين اهتموا بالأدب. فقد كان أبو الربيع سليمان بن زرقون النفوسي ممن برع في الأدب وعلم اللسان.[1206] وكان أبو القاسم وأبو خزر يعلمان الطلبة علوم العربية بالإضافة إلى العلوم الأخرى،[1207] في حين أن محمد بن سدرين الوسياني كان يكثر في حلقاته من دروس النحو.[1208]

واهتم النفوسيون كغيرهم من الإباضية بكتابة الأشعار باللغة البربرية، منها أشعار وضعها مهدي النفوسي باللسان البربري ليتناقلها البربر،[1209] ومواعظ كتبها أبو ميدول مصكداسن،[1210] وأشعار في الحساب والقبر والموت أنشدتها إمرأة صالحة تدعى «زيديت بنت عبد الله الملوشائي»،[1211] وأشعار لمنزو بنت عثمان المزاتي.[1212] وتجدر الإشارة إلى أن البربرية كانت تستعمل بكثرة في المجالس خاصة مجالس الوعظ والإرشاد لأن عزلة الجبل جعلت سكانه لا يتقنون اللغة العربية. كما أن كتب السير احتوت على العديد من الفقرات المكتوبة بالبربرية، ورغم ذلك فإن العلماء كانوا يشجعون الناس دوما على تعلم اللغة العربية، فقد رويت السير أن أبا عمران موسى بن زكريا - أحد العلماء الذين ألفوا ديوان الأشياخ - قال: «إن تعلم حرف من العربية كتعلم ثمانين مسألة من الفروع، وتعلم مسألة من الفروع كعبادة ستين سنة، ومن حمل كتابا إلى بلده لم يكن فيه فكأنما تصدق بألف حمل دقيقا على أهل البلد».[1213]

ب - العلماء:

لا نبالغ إذا قلنا إن الجبل امتلأ بالعلماء حتى إنه يصعب على الباحث أن يفيهم حقهم من الدراسة، ذلك أن الحركة الثقافية التي عمته أثمرت في ميلاد العديد أو بالأحرى الآلاف من العلماء الذين ذاع صيتهم مشرقا ومغربا، وإذا كانت موقعة مانو يعدها أهل المذهب ضربة قاضية تعرضت لها نفوسة والثقافة عموما، إلا أن إصرار ممن نجوا - وهم لا يتعدون أصابع اليد - على استمرار المذهب مكنهم من تكوين جيل آخر من العلماء،

1205 - الباروني: الأزهار، ج2، ص318؛ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، ج3، ص166-167.
1206 - الدرجيني: طبقات المشائخ، ج1، ص119
1207 - المصدر السابق، ص120.
1208 - نفسه، ج2، ص397؛ الشماخي: السير، ص517.
1209 - الدرجيني: المصدر نفسه، ج2، ص314؛ بحاز: الدولة الرستمية، ص343.
1210 - الشماخي: المصدر السابق، ص409.
1211 - المصدر نفسه، ص317؛ معجم أعلام الإباضية، ج3، ص335.
1212 - الدرجيني: طبقات المشائخ، ج2، ص310-311.
1213 - الشماخي: السير، ص402؛ دبوز: تاريخ المغرب الكبير، ج3، ص397-398.

وذلك بتكثيف الحلقات العلمية حتى إننا لا نجد قرية أو مدينة أو بطن من بطون نفوسة لا ينتسب إليها مجموعة من العلماء. أضف إلى ذلك أن التنافس العلمي والثقافي بين القرى والمدن كان سببا في إنعاش الحياة الثقافية، وما دام أنه من الصعب التعريف بجميع علماء المذهب، فإننا سنكتفي بالحديث عن أشهرهم خاصة الذين جمعوا بين العلم والحكم، والذين كانوا من مستجيبي الدعاء كما تقول المصادر.

ومن بين العلماء الذين عاشوا في القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) أبو الحسن الأبدلاني، فهو أحد الإثنى عشر الذين اشتهروا بإجابة الدعاء[1214] في عصر واحد بالجبل. وهو الذي سافر إلى تيهرت ضمن وفد نفوسة لنصرة الإمام في حربه مع الواصلية. وعرف أبو الحسن بقوته وشجاعته في الحروب، فقد شارك في المعركة التي دارت في الجبل في مكان يسمى «فاغيس»، بين أفلح بن العباس - عامل الإمامة - وبين أتباع خلف بن السمح، وفيها قال أبو مرداس مهاصر: «لا أخاف على عسكر فيه أبو الحسن الأبدلاني».[1215]

ويعد أبو مرداس السدراتي من العلماء الذين بلغوا مبلغا عظيما في العلم، كان يسكن قرية «تبرست» بالجبل عرف بتعبده، حيث كان له كهف خصصه للعبادة. كما اشتهر بشدته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبكرمه حيث كان ينفق ماله على الضعفاء خاصة في الشدائد. وقد سبق الذكر أنه كان يجلس على طريق رجوع الخدم من أعمالهم ليتصدق عليهم بالأكل. عاش أبو مرداس في إمامة عبد الوهاب (171-211هـ) (787-826م)، وعاصر أيوب بن العباس، وأبا عبيدة عبد الحميد الجناوني، والعباس بن أيوب، عمال الإمام على الجبل. عمَّرَ أبو مِرداس طويلا حتى إنه كان يجر سيفه وهو منحني إذا مشى أمام الجيوش أثناء القتال. تولى الفتيا في الجبل وبلغت شهرته الآفاق، فقد رويت السير أن أهل المشرق عندما قدموا زائرين إلى تاهرت اختاروا من تاهرت الإمام ووزيره من أهل الجبل أبا مرداس، وأبا زكريا التوكيتي، والعباس بن أيوب. وكان الإمام عبد الوهاب يقدره ويحترمه حتى إنه إذا دخل عليه قام له إجلالا وتقديرا له. وقد سبقت الإشارة أن أبا مرداس كان يسافر كثيرا إلى تاهرت بوصايا أهل الدعوة من الجبل لنفع بيت المال.[1216]

1214 - عددت المصادر هؤلاء فهم: أبو مرداس مهاصر، أبو عامر التصراري أبو المنيب محمد بن يانس، ماطوس بن ماطوس الشروسي، أبو مهاصر الفاطمي، أبو الشعثاء السنتوني، أبو يحي الأصغوي، أبو يحي تسكنيت، أبو عبيدة عبد الحميد الجناوني، أبو زيد المصغوري (البصغوري)، أبو زكريا التويكتي، ينظر: الشماخي: السير، ص172.
1215 - المصدر نفسه والصفحة ذاتها.
1216 - للمزيد من سيرته ينظر: الشماخي: السير، ص172-178؛ البغطوري: سير نفوسة، و17-18.

أما أبو زكريا يصلتن التوكيتي فهو أحد العلماء الأجلاء الذين أنجبتهم نفوسة. قال فيه أحد المشارقة الذين مروا بالجبل في طريقهم إلى حاضرة الإمامة «تاهرت» بأن «الجبل هو أبو زكريا وأبو زكريا هو الجبل».[1217] كان معاصرا لعامل الإمامة على الجبل العباس حيث خرج معه لقتال بني يفرن. كما كان يحضر رفقة أبي مهاصر مرداس مجلس الذكر عند أم الخطاب - إحدى العالمات المشهورات في الجبل - في «إغرم إينان» (أغرميمان).[1218] واحتل أبو زكريا مكانة مرموقة حتى إنه عندما اعتذر أبو عبيدة عبد الحميد الجناوني عن تولي الأمور بالجبل بسبب ضعفه أجابه الإمام عبد الوهاب بقوله: «إن كنت ضعيفا في البدن فأدخل في أمور المسلمين يقوي الله بدنك، وإن كنت ضعيفا في العلم فعليك بأبي زكريا يصلتن (يصلاتن) التوكيتي».[1219]

ومن مشاهير الجبل العالم عمروس بن فتح فهو أعلم أهل زمانه فـ «لولاه لدثر معلم المذهب وانطمس وعفر أثره واندرس».[1220] ينتمي عمروس إلى الطبقة السادسة (250-300هـ) ولد ونشأ في قرية «قطرس» الواقعة على ضفاف وادي «تالة» بالجبل. اهتم منذ صغره بدراسة الكتب حتى أصبح من كبار أئمة العلم والدين. فأقواله وفتاويه وآرائه تداولتها المصادر. وقد سبق الذكر أنه عزم على تأليف موسوعة علمية يبين فيها الأحكام المستخرجة من القرآن والسنة والإجماع والقياس، ولكن موته حال دون إنجازه لهذا العمل. وقد ذاع صيت هذا العالم بين الإباضية، فعندما طلب منه عبد الخالق الفزاني أن يؤلف له كتابا في الأصول أرسل إليه كتابه المعروف بـ «العمروسي». ولما درسه اعترف بأن عمروس أغزر منه علما. ولما طلب منه العامل أبو منصور إلياس أن يتولى القضاء اشترط عليه عمروس قائلا: «إن لم تأذن لي بثلاثة يا إلياس فخذ خاتمك عني: قتل الطاعن في دين المسلمين، ومانع الحق، والدال على عورات المسلمين».[1221] وتولى عمروس القضاء بعد قبول أبي منصور لهذا الشرط. ويعد عمروس أول من دون أقوال المتخاصمين، وهو ما نسميه اليوم بـ «محاضر التحقيق».[1222] ذلك أن قافلة تجارية استولى عليها قطاع الطرق، فجاء أصحاب القافلة والقطاع إلى الجبل، ومثلا أمام عمروس لأن كليهما إدعى ملكية القافلة فعزل أصحاب القافلة على حدة وانفرد بكل واحد منهم ليسأله عن علامة متاعه، وكتب أقواله، وانفرد بالقطاع فسألهم الأسئلة نفسها، ثم أخرج

1217 - المصدر نفسه، ص178.

1218 - الشماخي: المصدر نفسه، ص178-179.

1219 - نفسه، ص182؛ أبو زكريا: كتاب السيرة، ص125.

1220 - الدرجيني: طبقات المشائخ، ج2، ص320.

1221 - الوسياني: السير (مخ)، ج2، ورقة 1.

1222 - علي يحي معمر: الإباضية في ليبيا، ص137-141.

ما في الأحمال، فوجد أقوال أصحاب القافلة تنطبق على ما كتبه حينئذ طلب من أبي منصور حبس القطاع.[1223]

شارك عمروس في موقعة مانو الشهيرة، والتي أبلى فيها بلاء حسنا، إلى أن وقع في حيلة دبرها له جند الأغالبة، حيث ثبتوا له حبالا فتعثر فرسه، وأخذ أسيرا فعذب تعذيبا شنيعا حيث قطعت يديه إلى المرفقين، رافضا ترك مذهبه وطلب العفو.[1224]

ومن العلماء الذين نجوا من موقعة مانو أبو محمد عبد الله بن الخير التنوزيرفي. ولد في «تنوزيرف» بالجبل، تعلم على يدي العلامة أبي ذر أبان بن وسيم، حتى أصبح من العلماء الكبار الذين يضرب بهم المثل فقيل: «من ضيع كتاب كمن ضيع خمسة عشر عالما مثل عبد الله بن الخير». جلس بعد مانو للتدريس والفتوى كما تولى الأمور في الجبل، وقد عمر طويلا إذ توفي عن عمر يناهز مائة وعشرين سنة.[1225]

أما أبان بن وسيم بن نصر الويغوي شيخ عبد الله بن الخير فقد تلقى العلم في كبره على يدي الشيخ أبي خليل صال الدركلي. تولى الحكم في الجبل بعد وفاة أفلح بن العباس في إمامة أفلح بن عبد الوهاب (211-258هـ) (826-871م). وكان إلى جانب تسيير دواليب الحكم يشتغل بالزراعة. وعرف عنه أنه كان فقيها حيث لا تخلو كتب الفقه من فتاويه. وقد فتح مدرسة في بيته لتعليم الفقه أقبل إليها الرجال والنساء، وتخرج على يديه مجموعة من العلماء منهم: أبو القاسم سدرات بن الحسن البغطوري، وأبو معروف ويدرن بن جواد، وابدين الفرسطائي، والعالمة زروغ الأرجانية.[1226]

وعرف أبو ذر أبان بن وسيم بانتقاداته لسكان الجبل عن الحالة التي وصل إليها. فقد قال: «أدركنا الناس الذين همّ الناس، أحاديثهم ذكر الله، وزيارتهم في الله، ومعانقتهم بالمودة والصحبة والمحبة، وبقيت حتى صحبت أناسا أحاديثهم الدنيا، وزيارتهم الحوائج، ومعانقتهم بالنطاح».[1227] ولا يفوتنا أن نشير إلى أن لأبان مسائل كثيرة في الفقه.[1228]

1223 - الوسياني: المصدر السابق، (مخ)، ج2، و1-2؛ الدرجيني: الطبقات، ج2، ص321-322؛ الشماخي: السير، ص226.

1224 - أبو زكريا: كتاب السيرة، ص153؛ الشماخي: المصدر نفسه، ص229؛ علي يحي معمر: الإباضية في ليبيا، ص142-143؛ الباروني: الأزهار، ج2، ص345؛ سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج2، ص391.

1225 - الوسياني: السير، (مخ)، ج2، و7؛ الشماخي: المصدر نفسه، ص236-237؛ علي يحي معمر: المرجع نفسه، ص147-150.

1226 - الدرجيني: الطبقات، ج2، ص301-303؛ الشماخي: المصدر نفسه، ص215-217؛ علي يحي معمر: المرجع نفسه، ص113-116؛ إبراهيم بحاز وآخرون: معجم أعلام الإباضية (مخطوطة)، ج2، ص4.

1227 - الشماخي: المصدر نفسه، ص215.

1228 - نفسه، ص216.

ومن تلاميذ أبان نذكر أبا القاسم سدرات بن الحسن البغطوري الذي نجا هو الآخر من موقعة مانو. لأنه كان شيخا معمرا فلم يشارك فيها. وتذكر المصادر أنه كان يسافر يوميا من بغطورة إلى ويغو ليصلي مع شيخه أبان. عاش أبو القاسم مائة وثلاثين سنة قضاها كلها في نشر العلم والفضيلة.[1229]

وبالإضافة إلى هؤلاء نذكر أبا يحي سليمان بن ماطوس الشروسي النفوسي الذي ينتمي إلى الطبقة السابعة، حسب تصنيف الدرجيني، أي من علماء النصف الأول للقرن الرابع الهجري (300-350هـ). كان أبو يحي غزير العلم حيث وردت أقواله وفتاويه في مختلف المصادر، وانتشرت في مختلف مواطن الإباضية خاصة في زويلة. فتح هو الآخر مدرسة تخرج منها العديد من العلماء، رغم أنه تولى الحكم في الجبل بإتفاق أهل الحل والعقد. وهو أحد الذين «انتعش بهم الدين وأحي بهم قلوب الجاهدين بعد مانو».[1230]

ومن المعاصرين لأبي القاسم سدرات، نذكر أبا هارون موسى بن يونس الجلالي، الذي اهتم هو الآخر بنشر العلم، وتشجيع الطلبة للإقبال عليحلقات الدروس. فهو الذي قال فيه ابن ماطوس: «لو علم الناس ما ينفعهم لازدحموا عند باب داره كما يزدحمون عند باب دار أبي عبيدة في البصرة».[1231] تعلم أبو هارون على يدي أبي القاسم سدرات، فأتقن علوم الأصول والمنطق. أما الفقه فكان يسميه «علم العجائز». جمع أبو هارون بين العلم والمال فكان ينفق جزءا من ماله على طلبته القادمين من كل مكان، ولا تخلو كتب الفقه و الأصول من فتاويه، وكتب علم الكلام من آرائه.[1232]

أما أبو محمد خصيب بن إبراهيم التمصمصي فقد عاش في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، أخذ العلم عن أبي يحي زكريا بن يونس الفرسطائي، والربيع بن سليمان بن هارون اللالوتي. كانت له حلقة علمية في قريته «تمصمص»، تخرج فيها مجموعة من العلماء أمثال: أبي زكريا يحي بن سفيان اللالوتي، وأبي هارون موسى بن هارون، أم ماطوس. وبعد وفاة أبي محمد الكباوي أصبحت الفتاوى توكل إليه.[1233]

ومن العلماء الفطاحل الذين أنجبتهم قرية «تملوشايت» بالجبل أبو الربيع سليمان بن موسى أبي هارون الملوشائي الذي عاش في القرن الرابع الهجري. تعلم على يدي أبي زكريا يحي بن سفيان اللالوتي، وأبي سهل البشر بن محمد التندميرتي، وأبي يوسف

1229 - الشماخي: المصدر نفسه، ص235؛ إبراهيم بحاز وآخرون: معجم أعلام الإباضية، ج3، ص343-344.

1230 - الشماخي: المصدر نفسه، ص276-278.

1231 - الشماخي: المصدر السابق، ص278.

1232 - نفسه، ص278؛ علي يحي معمر: الإباضية من ليبيا، ص160-162.

1233 - الشماخي: المصدر نفسه، ص313-314؛ إبراهيم بحاز وآخرون: معجم أعلام الإباضية، ج3، ص271-272.

وجدليش، وغيرهم من العلماء الذين عاصرهم. كان أبو الربيع مفتيا، يلقي الدروس بمسجد «إيناين». ومن حلقته تخرج كلا من: أبي زكريا يحي بن الخير الجناوني، وأبي محمد وافي بن عمار الزواغي، وأبي محمد عبد الله الجدولي. ترك لنا أبو الربيع مجموعة من المراسلات التي تحتوي على فتاوي فقهية إلى مختلف العلماء نذكر منهم: أبا يعقوب تالوف بن أحمد، وأبا زكريا يحي بن إبراهيم، الذي تولى الحكم في الجبل.[1234] جمع أبو الربيع بين الإمارة والقضاء والتدريس، فكان يفتتح حلقة الدرس للطلاب بعد صلاة العشاء، ثم يذهب إلى داره ليقرأ الكتب رفقة محمد بن زكريا البغطوري، ومحمد بن يفون، ويستمروا في القراءة إلى آخر الليل ثم يقوم إلى الصلاة إلى غاية الفجر، ثم يشتغل بالدراسة حتى شروق الشمس، ثم يفتتح مرة أخرى حلقة العلم. فإذا انصرف الطلبة جلس للقضاء والحكم إلى الزوال. وقد احتار بعض رفاقه فقالوا: «لا ندري متى ينام»، وهذا حرصا منه على التعلم ونشر العلم وتسيير شؤون الجبل.[1235]

ومن «لالوت» اشتهر زكريا يحي بن سفيان اللالوتي الذي تصنفه المصادر ضمن علماء الطبقة السادسة (350-400هـ). عرف أبو زكريا بغزارة العلم واتساع المعارف، كانت له حلقة علمية التحق بها الطلبة من كل الجهات. أما شيوخه فهم: أبو محمد خصيب التمصمصي وأبو عبد الله محمد بن جلداسن اللالوتي. وكان إلى جانب تقديم الدروس اليومية ينتحل الزراعة لكسب قوته.[1236]

ومن «تابديوت» (تاديوت) - وهي قرية تقع قرب «تيرشوين» بالجبل - برز أبو الربيع سليمان بن زرقون النفوسي كأحد أعلام عصره. تعلم في سجلماسة رفقة كيداد على يدي شيخهما ابن الجمعي. ولما حضرت هذا الأخير الوفاة سلم لأبي الربيع ديوانه الذي عاد به إلى قسطيلية ببلاد الجريد. وقد اشتهر أبو الربيع - كما سبق ذكره - بأنه أول من سن بعض تنظيمات الحلقة خاصة وأنه أصبح من مشاهير العلماء في المنطقة. فعندما خالف النكارية الإمام عبد الوهاب ظل أبو الربيع يناظر ويحاجج النكار، إلى أن عاد الكثير منهم إلى الطريق السليم. وعلى يديه أخذ العلم أبو القاسم يزيد بن مخلد، وأبو خزر يغلي بن زلتاف، خاصة الفقه والإعراب واللغة. وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى أن أبا الربيع ألف ديوانا يعرف باسمه هو فيحكم الضياع.[1237]

1234 - بحاز: المرجع نفسه والجزء ذاته، ص427.

1235 - الشماخي: المصدر السابق، ص301-307.

1236 - البغطوري: سير نفوسة (مخ)، و5؛ الماحي: المصدر نفسه، ص296-298؛ علي يحي معمر: المرجع نفسه، ص173-176.

1237 - الدرجيني: الطبقات، ج1، ص112 وما بعدها، معمر: الإباضية في ليبيا ص162-163؛ بحاز: معجم أعلام الإباضية، ج3، ص401-402.

ومن علماء القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) نذكر سعد بن ييفاو النفوسي. فقد كرس حياته للتعليم حيث التحق الطلبة بحلقته التي نظمها في «أمسنان» بالجبل. كما عرف بمناظراته الكثيرة مع شيوخ «أمسنان» في بعض المسائل الفقهية. أما الطلبة الذين تتلمذوا عنده وأصبحوا بمرور الوقت في مرتبة العلماء منهم: حمو بن أفلح، وعبد الرحيم بن عمرو، وأحمد بن أبي عبد الله، وأحمد بن ويجمن، وأخوه يحي والمعز بن تاغرايت.[1238]

وفي الأخير نكرر ما قلناه وهو أنه من الصعب جدا أن نتناول بالحديث في هذا الفصل جميع العلماء، فالجانب الثقافي يحتاج إلى دراسة مستقلة كاملة. وكان من نافلة القول أن نتحدث في هذا المضمار عن أبي محمد عبد الله بن بكر النفوسي باعتباره أشهر العلماء النفوسيين على الإطلاق، ولكننا قد تطرقنا إليه في حديثنا عن نظام الحلقة كما سنتناوله بالحديث في الحياة الاجتماعية بحكم أنه مؤسس نظام العزابة. وإذا كنا قد أغفلنا ذكر العديد من العلماء فهذا لا يعني أننا قلصنا من دورهم في الحياة الثقافية في الجبل.

4 - حركة التأليف:

اهتم النفوسيون كغيرهم من الإباضية بتأليف الكتب ونسخها والعمل على نشرها وتعميمها بين الناس لتكون الاستفادة أعم. فهذا عمروس بن فتح يستغل وفادة أبي غانم بشر بن غانم الخراساني إلى الجبل في طريقه إلى تاهرت وتركه لنسخة من مدونته الشهيرة المكونة من إثني عشرة جزءا عنده. فأسرع عمروس في نسخها دون أن يطلب إذنا بذلك حتى إنه استعان بأخته. فما إن عاد من تاهرت إلا وقد أنهى نسخها. ولذلك سماه بِشر «سارق العلم» عندما لاحظ نقطة حبر على إحدى ورقات المدونة. ولما أحرقت مكتبة «المعصومة» ظلت نسخة عمروس هي المعتمد عليها، ولولاها لبقي أهل المذهب من غير ديوان.[1239]

وذلك نفاث بن نصر عندما طلب منه الأمير المشرقي في بغداد أن يسأل حاجته كمكافئة له لما حواه من العلم وتمكنه من الإجابة على المسألة التي عجز عنها علماء بغداد وفقهاؤها، طلب السماح له بنسخ ديوان جابر بن زيد. وحرصا منه على الظفر بنسخة منه اشترى الحبر والورق ودفع لكل ناسخ دينار وللملي نصف دينار. ورغم أن مدة

1238 - الشماخي: السير، ص376-377؛ بحاز: المرجع نفسه والجزء ذاته، ص349.

1239 - الشماخي: السير، ص228؛ الباروني: الأزهار، ج2، ص313-314.

النسخ كانت ضيقة، والمقررة وفق شروط الأمير بليلة ويوم فقط، إلا أنه ما إن طلع الفجر إلا وقد نسخ الديوان كله إلا كتابا واحدا تمكن من حفظه بعد قراءة واحدة.[1240]

وتذكر المصادر أن السبب الذي عجل سفر أبي محمد عبد الله بن محمد اللواتي إلى قلعة بني حماد بالمغرب الأوسط هو أن رجلا يدعى سليمان بن مدرار النفوسي أخبره بأنه عثر على تفسير القرآن لعبد الرحمن بن رستم يباع في سوق القلعة، فسافر من أجل الظفر بهذا التفسير وإقتنائه ليستفيد منه.[1241]

إن هذه الصور التي أوردناها لدليل كاف على اهتمام الإباضية قديما وحديثا بالكتاب. ولا غرابة أن يترك لنا أتباع هذا المذهب الآلاف من الأسفار التي تغص بها المكتبات في مختلف فنون العلم، لأن انتشار الكتاب هو انتشار للعلم، وانتشار العلم يعني بقاء المذهب، واستمراره رغم كيد خصومهم وبطشهم خاصة في مرحلة الكتمان.

وبناء على ذلك فإن تنظيم الحلقات العلمية وتأليف الكتب كان الشغل الشاغل للعلماء. ويكفي أن نقول إن أحد علماء المذهب يدعى أبا مكدول مطكداسن ألف أحد عشرة كتابا في عشرة أيام.[1242] على الرغم من المبالغة في العدد، فربما المقصود هنا كراسا أو مقالة. وقد سبقت الإشارة أن عمروسا بن فتح قاضي أبي منصور إلياس عزم على تأليف كتاب يعالج فيه مسائل الفقه ولكنه توفي قبل إنجازه. وذكرت المصادر أن له كتبا في الأصول والفقه.[1243] منها كتاب في الأصول يعرف بـ «العمروسي» في أربعة أسفار ألفه بطلب من أحد علماء الكلام بفزان.[1244] ويضيف إليه عبد الرحمن بكلي كتبا أخرى مثل «كتاب أعلام الملة»، و«كتاب الحكم والمعارف»، و«كتاب الدينونة».[1245] وألف يحي الجناوني «كتاب الجناوني» في سفرين. وألف أبو زكريا يحي الأبدلالي «كتاب الوضع» و«كتاب المناسك».[1246] وينسب إلى سعد بن ييفاو، وكتاب يتضمن العديد من المسائل الفقهية.[1247] ذكر الشماخي أجوبة اطلع عليها لأبي حسن جناو بن فتى المديوني بعث

1240 - أبو زكريا: كتاب السيرة، ص140-141.

1241 - الشماخي: المصدر السابق، ص438.

1242- الشماخي: المصدر نفسه، ص291؛ الدرجيني: طبقات المشائخ، ج2، ص348.

1243 - الشماخي: المصدر نفسه، ص225-229؛ الباروني: الأزهار، ج2، ص312؛ سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج2، ص383.

1244 - البرادي: الجواهر المنتقاة، ص219؛ الباروني: المرجع نفسه، ص314؛ الحارثي: العقود الفضية، ص280.

1245 - بحاز: الدولة الرستمية، ص327.

1246 - بحاز وآخرون: معجم أعلام الإباضية، ج3، ص340.

1247 - ينظر: السير، ص190-192.

بها إلى عبد القاهر الفزاني، وأجوبة لأبي بكر أسدين وأجوبة لأبي وزيون بن الحسن.[1248] كما دون سحنون بن أيوب - أحد علماء الطبقة السابعة (300-350هـ) مؤلفات تحتوي على مسائل وفتاوى كانت منتشرة في منطقة طرابلس. كما ألف أبو العباس بن أبي عبد الله بن بكر النفوسي أثناء إقامته بقرية «تمولست» كتبا عديدة منها «أصول الأراضين» في ستة أجزاء، والسيرة في فى الدماء فى عدة أجزاء، والجامع المسمى بأبي مسئلة.[1249] و«كتاب القسمة»، وكتاب «تبيين أفعال العباد» - في ثلاثة أجزاء - وكتاب الألواح. و ألف في آخر حياته كتابا لا تذكر المصادر عنوانه يتكون من خمسة وعشرين جزءا.[1250] وترك ابن ماطوس كتابا في الشريعة.[1251] وذكر أن مسألة الإنسان في الجهالات، ومسألة التفرقة بين الكفر والشرك، ومسألة الدلائل، ألفها أبو إسماعيل بن ملال البصير المكطودي.[1252]

كما ألف أبو الربيع سليمان بن زرقون النفوسي ديوانا ومجموعة من الكتب لا تذكر المصادر عناوينها.[1253] وترك تبغورين بن عيسى- وهو معاصر لأبي العباس بن أبي عبد الله بن بكر - تآليف كثيرة في العقائد.[1254]

كما ألفت العديد من الأسفار في الرد على النكار. فقد دون محمد بن أبي خالد إثني عشرة كتابا في الرد على من أنكر إمامة عبد الوهاب. وكانت هذه الكتب منتشرة في الجبل.[1255] وألف نفاث بن نصر كتاب يبين فيه المسائل التي خالف فيها الوهبية.[1256] وقد رد علي مسائله وآرائه مهدي النفوسي.[1257]

أما أشهر تأليف على الإطلاق فهو ديوان العزابة، المعروف أيضا بـ«نوازل نفوسة»، رغم أن البعض يرى أن ديوان الأشياخ الذي ألف في غار أمجماج بجربة.[1258] هو نفسه «ديوان

1248 - المصدر نفسه، ص292.

1249 - يذكر الوسياني أن سبب تسمية هذا الكتاب بأبي مسئلة أن أبا عبد الله محمد بن سليمان النفوسي أرسل من «أبديلان» بالجبل يلتمس منه أن يضع تأليفا مختصرا في الفروع فرأى في منامه أن قائلا قال له: «اذكر أبا مسئلة» فسماه بهذا الاسم، ويسمى أبضا بـ «الجامع» وهو جزئين. ينظر: السير (مخ)، ج2، و34.

1250 - الشماخي: المصدر السابق، ص423؛ البرادي: الجواهر المنتقاة، ص220.

1251 - دبوز: تاريخ المغرب الكبير، ج3، ص545..

1252 - الوسياني: السير، ج2، و29.

1253 - الشماخي: السير، ص279.

1254 - المصدر نفسه، ص432.

1255 - الوسياني: السير (مخ)، ج2، و37؛ الشماخي: المصدر نفسه، ص418.

1256 - الشماخي نفسه، ص193-194؛ T Lewicki: Melanges Berberes, p271.

1257 - بحاز: الدولة الرستمية، ص343؛ T Lewicki: Ibid, p269.

1258 - ألف هذا الديوان الفقهاء السبعة: أبو عمران موسى بن زكريا وهو الذي تولى نسخه وأبو عمرو النميلي وعبد الله بن مانوج وأبو زكريا يحي بن جرناز النفوسي وجابر بن سدرام وكباب بن مصلح وأبو مجبر توزين. يتكون هذا الديوان من إثني عشر كتابا. ينظر: الوسياني، السير (مخ)، ج2، و27؛ الشماخي: السير، ص401.

العزابة». ألف هذا الديوان جماعة من العزابة هم: يخلفتن بن أيوب النفوسي، ومحمد بن صالح النفوسي المسناني، ويوسف بن موسى القنطراري، ويونس بن عمران بن أبي عمران، وموسى بن أبي زكريا المزاتي من «تيجريت»، وجابر بن حمو الزنزفي، وإبراهيم بن أبي إبراهيم، وعبد السلام بن سلام من أريغ. ويتألف هذا الديوان من خمسة وعشرين جزءا.[1259] وتضيف المصادر أسماء أخرى يبدو أنها شاركت في تأليف بعض أجزائه منها عالم يسمى: إسماعيل بن يدير الذي انفرد بكتاب الصلاة، وأبو العباس بن بكر الذي كتب «كتاب الحيض». أما «كتاب الوصايا» فهو من تأليف محمد بن صالح، و«كتاب النكاح» فمن تأليف يخلفتن بن أيوب.[1260]

ورغم هذا الإنتاج الغزير من المؤلفات، إلا أن تأليف علماء المشرق ظلت تحتفظ بمكانتها لدى النفوسيين فظلوا يعتمدون عليها، كمختصر ابن محبوب، ومدونة أبي غانم، ومسند الربيع بن حبيب، وديوان جابر بن زيد، وغيرها. وتجدر الإشارة في الأخير إلى أن المصادر تشير إلى العديد من المؤلفات، ولكنها لا تذكر عناوينها. ويبدو أنها ضاعت فلم يتمكن كتاب السير والطبقات من الإطلاع عليها. ولذلك تجاوزناها ولم نشر إليها في هذا البحث.

5 - المكتبات:

نلاحظ من خلال ما مر بنا أن إباضية المغرب الإسلامي عامة، والنفوسيين خاصة قد اهتموا بالكتاب تأليفا ونسخا، وصرفوا الأموال الطائلة في شراء الكتب. فاشتهرت تاهرت بمكتبة المعصومة التي أشارت المصادر بكتبها وتتأسف تأسفا عميقا لما وقع لها. كما تتحدث المصادر عن خزانة نفوسة التي لا تختلف كثيرا عن «المعصومة» إذ كانت تحتوي على الآلاف من الكتب. كما تتحدث المصادر عن ديوان بالجبل إشتمل على مؤلفات كثيرة. وقد زار هذا الديوان أبو العباس بن عبد الله بن بكر النفوسي، ومكث فيه أربعة أشهر يقرأ الكتب لا ينام إلا فيما بين آذان الصبح إلى آذان الفجر. وقد احتوى هذا الديوان على تآليف المشرق والمغرب، وأن تآليف المشرق وحدها قارب عددها ثلاثة وثلاثين ألف جزء كلها مؤلفات لأهل المذهب.[1261]

كما تشير المصادر إلى خزانة أخرى في قصر «ولم» بالجبل، وهي الخزانة التي مكث فيها وارسفلاس بن مهدي -أحد العلماء الذين عاصروا أبا عبد الله محمد بن بكر - مدة

1259- الوسياني: المصدر نفسه، ج1، و114؛ الشماخي: المصدر نفسه، ص431؛ صالح باجية: الإباضية بالجريد، ص56.

1260 - الشماخي: المصدر نفسه، ص431.

1261 - الشماخي: المصدر نفسه، ص414؛ بحاز: الدولة الرستمية، ص289؛ الحارثي: العقود الفضية، ص275؛ عمرو خليفة النامي: ملامح عن الحركة العلمية بوارجلان، ص24.

إثني عشر سنة يدرس الكتب.[1262] ولم تسعفنا مصادرنا من التأكد هل أن هذه الإشارات يقصد بها خزانة أو مكتبة واحدة، أم هي فعلا مجموعة من المكتبات إحداهما في شروس أم قرى الجبل والأخرى في قصر «ولم». والثالثة تسمى «الديوان» ؟

ومهما يكن من أمر فإننا لا نستبعد أن تكون هناك مجموعة من المكتبات موزعة على قرى الجبل، كما لا يمكن أن ننكر وجود مكتبات أخرى في زويلة وغدامس وفزان وغيرها من المناطق القريبة من الجبل والتي يتواجد بها الإباضية.

6 - العلاقات الثقافية بين جبل نفوسة وإباضية المشرق والمغرب:

لا نبالغ إذا قلنا بأن موضوع العلاقات الثقافية بين أباضية جبل نفوسة وأباضية المشرق والمغرب موضوع يستحيل الإلمام به في هذه العجالة نظرا لسعة الموضوع والذي يقتضي رسالة جامعية وبحثا مستقلا لغزارة المادة فيه. ولذلك سنحاول الإقتصار على الأهم مبرزين أهمية هذه العلاقات ودورها في التواصل الثقافي بين المشرق الإسلامي ومغربه.

أ - مع أباضية المشرق:

ظل التواصل الثقافي بين أباضية الجبل وأباضية المشرق وإفريقية و المغرب الأوسط مستمرا منذ أن وطئت أقدام الداعية سلمة بن سعد أرض المغرب، وتعددت البعثات العلمية إلى البصرة لتلقي العلم والمبادئ عن أئمة المذهب هناك، وعمل المشارقة بكل ما في وسعهم على تقديم المساعدات لإخوانهم المغاربة، خاصة بعد إعلان إمامة الظهور. وقد أخذت هذه المساعدات أشكالا متعددة فجاءت تارة في صيغة معونات مالية، وتارة ثقافية ومذهبية. وقد نقل إلينا إبن الصغير ما قاله المشارقة في إمامة عبد الرحمن بن رستم حيث قالوا: «لا تدخروا عنه مالا ولاتحبسوا عنه عطاء، إبعثوا إليه بجميع مابأيديكم ليتقوى به على دينه ودنياه، فإنكم تنالون بذلك شرفا عاجلاوغناء آجلا».[1263]

أمافي الجانب الثقافي فإننا نعتقد أن المشارقة كانوا يزودون مكتبات الجبل بالكتب على غرار تزويد مكتبة المعصومة في إمامة عبد الوهاب. فالديوان الذي ضم ثلاثين ألف كتاب من تأليف علماء المذهب بالمشرق لا شك أنه من تزويدهم. ويمكن أن نستدل على ذلك بقدوم بشر بن غانم بمدونته إلى الجبل. كما أن أباضية المغرب الإسلامي ظلوا يعودون

1262- الشماخي: المصدر نفسه، ص327.

1263 - ينظر: أخبار الأمة الرستميين، ص37-38.

إلى علماء المشرق يستشيرونهم في كل المسائل التي أشكلت عليهم، خاصة عندما يتعلق الأمر بخلاف بين أهل الدعوة، فقد استشاروا شعيب بن المعروف بمصر، وأبا عمرو الربيع بن حبيب، وأبا غسان محمد بن العمري الغساني بمكة في مسألة النكارية، وهل تجوز إمامة المفضول مع وجود الأفضل؟ وجاءهم الرد بأن الإمامة صحيحة (أي إمامة عبد الوهاب) والشرط باطل.[1264]

وعندما منعت نفوسة الإمام عبد الوهاب من المسير إلى الحج، خشية أن يحبسه المسودة «فتتعطل أمور المسلمين وحدود الله وأحكامه» أرسل الإمام كتبا إلى أئمة المشرق الربيع بن حبيب وابن عباد يستفتيهم في ذلك فجاءه الرد: «من كان على هذه الصفة المذكورة من العناء في أمور المسلمين، فليس عليه حج لأن أمان الطريق من الشروط التي يجب بها الحج على من استطاعته».[1265]

ولما تزعم خلف بن السمح الشقاق في الجبل أرسل النفوسيون كتابا إلى أبي سفيان محبوب بن الرحيل، وهو آنذاك رأس أهل الدعوة بالمشرق، يستشيرونه في أقوال خلف وأتباعه. وجاءهم الرد بتخطئة من ولى خلف دون موافقة الإمام.[1266]

لقد عمل النفوسيون دوما على توثيق علاقاتهم الثقافية بالمشرق وتدعيمها بالزيارات المتبادلة، وفي المقابل ظل علماء المشرق يتحسسون أخبار إخوانهم في المغرب، سواء في مرحلة الظهور، أم في إمامة الكتمان. وكان موسم الحج فرصة للالتقاء بين أهل الدعوة. فهذا عمروس بن فتح عندما توجه إلى مكة حاجا استغل وجوده هناك ليحضر ومن معه مجلس العلامة محمد بن محبوب ويسأله في «مسائل الدماء» وغيرها من المسائل.[1267] وتضيف المصادر أن نصر بن سجميمان - وهو أحد علماء قرية «أصلابونن» بالجبل - التقى بأئمة عمان بمكة، وسألهم عن السخط والرضا، وعن القرآن.[1268]

ومر بنا أن ابن الجمعي - أحد علماء المذهب المشارقة - زار المغرب واستقر فيه وكانت له حلقة في سجلماسة منها تخرج أبو الربيع سليمان بن زرقون النفوسي. وعموما فقد كان المشارقة يفدون كثيرا إلى الجبل للاطلاع على أحول إخوانهم.[1269]

1264- أبو زكريا: كتاب السير، ص93-94.

1265 - المصدر السابق، ص116.

1266 - نفسه، ص122-123.

1267 - البغطوري: سير نفوسة (مخ)، و60؛ الوسياني: السير، ج2، و3؛ الدرجيني: الطبقات، ج2، ص324؛ الشماخي: السير، ص227؛ الباروني: الأزهار، ج2، ص313.

1268 - الشماخي: المصدر نفسه، ص486. قرية غير معروفة في الجبل وقد انفرد الشماخي بذكرها.

1269 - البغطوري: المصدر السابق، (مخ)، و17-18؛ الدرجيني: المصدر السابق، ج2، ص293؛ الشماخي:المصدر نفسه، ص178.

ب - مع إباضية المغرب:

أما علاقات إباضية الجبل بإباضية إفريقية والمغرب الأوسط، فإن أهم ما يميزها هو كثرة تنقل العلماء بين مواطن إخوانهم، سواء للمساهمة في تأسيس الحلقات العلمية، ومجالس الذكر، أو الاطلاع على أحوالهم. ويروي أبو زكريا أن أبا الربيع سليمان بن يخلف المزاتي قال: «طلعنا مع أبي عبد الله (محمد بن بكر النفوسي) إلى وارجلان زائرين في جماعة كثيرة، وفينا قبائل أهل الدعوة بأجمالهم حتى جعل ببعض الطريق... على كل قبيلة منهم عريفا وسفيرا يرعاهم ويتفقد أمورهم خوفا مما يحدثون في وارجلان».[1270] وتشير المصادر إلى زيارة العديد من علماء نفوسة إلى وارجلان وإسهامهم في إنعاش الحياة الفكرية فيها منهم: أبو عبدالله محمد بن سليمان النفوسي،[1271] وعيسى بن زاور الأمسناني،[1272] وأبو يعقوب يوسف بن زرار النفوسي.[1273]

كما انتقل بعض علماء أريغ إلى الجبل منهم: بكر بن أبي بكر، وأبو موسى عيسى بن المسيح، وأبو صالح اليهراسني، يريدون عرض مسائلهم على ابن ماطوس بالجبل.[1274] كما كان علماء وارجلان يزورون الجبل باستمرار وقد أشارت المصادر إلى ذلك في العديد من المواضع.[1275] كما كانت العلاقات متينة بين النفوسيين وبين أهل جربة وبلاد الجريد، وبين جربة والمغرب الأوسط.[1276] فقد كان علماء نفوسة يستقرون طويلا في جربة لإلقاء الدروس. وقد مر بنا أن أبا يخلف تكفل بشرح مسائل الحيض بالجزيرة.

ثانيا - الحياة الاجتماعية:

1 - نظام العزابة:

يعد نظام العزابة من الأنظمة التي لجأ إليها شيوخ المذهب بعد أن سقطت إمامة الظهور في تاهرت، ذلك أن الإباضية تعرضوا للعديد من النكبات أجبرتهم على البحث عن إطار آخر غير إطار الإمامة، يمكنهم من الحفاظ على مذهبهم خاصة وأنه أصبحت

1270 - ينظر: كتاب السيرة، ص321-322.
1271 - الشماخي: المصدر السابق، ص407.
1272 - الوسياني: سير مشائخ المغرب، ص50.
1273 - الشماخي: المصدر السابق، ص484.
1274- مجهول: كتاب المعلقات (مخ)، و11.
1275 - الوسياني: سير مشائخ المغرب، ص35.
1276 - للمزيد من الاطلاع على هذه العلاقات، ينظر: مقالنا: العلاقات الثقافية بين إباضية جربة وإباضية المغرب الأوسط في القرنين الرابع والخامس للهجرة، مجلة العلوم والاجتماعبة والإنسانية، جامعة باتنة، عدد2، سنة 1994، ص157-165.

لديهم قناعة - على الأقل في هذه المرحلة - بأنه لا قدرة لهم على إحياء الإمامة من جديد. وقد عبر هذا عن الضعف يعقوب بن أفلح لسكان وارجلان عندما التجأ إليهم بقوله: «افترقوا فقد انقضت أيامكم، وزال ملككم، ولا يعود إليكم إلى يوم القيامة».[1277] ولهذه الأسباب ظهر نظام العزابة ليعوض الإمامة المندثرة. فهو بمثابة «السلطان العادل في العدل سواء».[1278] والذي يشرف على الجماعات الإباضية إشرافا يشمل جميع مناحي الحياة السياسية، والدينية، والثقافية، والاجتماعية.

ويعود الفضل في تأسيس هذا النظام إلى العلامة النفوسي أبي عبد الله محمد بن بكر، وذلك في بداية القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، وهو نظام تطور عن نظام الحلقة الذي مر بنا. وقد عرف هذا النظام تطورات مطردة وفق ما تقتضيه الحياة وتغيراتها. وأصبحت المصادر تردد كثيرا كلمة «عزابة» و«عزابي» - وهي مشتقة من «العزابة» ومعناها العزلة، والعزبة، والتصوف، والتهجد على رؤوس الجبال.[1279] ويقصد بـ «العزابي» كل إباضي لازم الطريق وطلب العلم.[1280] وأما مجلس العزابة فإنه يتكون من أهل العلم والورع والصلاح من الذين تخرجوا من الحلقة. وقدحددت المصادر عددهم بإثني عشر، وقد يزيد وهم: شيخ الحلقة، وإمام الصلاة، والمؤذن، وكيلا المسجد، ومقرؤو المحاضر وعددهم ثلاثة، وغسالو الموتى وعددهم أربعة أو خمسة، وقاضي للبلد.[1281]

ولا نريد في هذا المجال أن نتناول هذا النظام بكل تفاصيله، فذلك تناولته العديد من الدراسات.[1282] ولكننا سنركز على دور هذا النظام في الحياة الاجتماعية في الجبل.

ويبدو أن هذ النظام اقتصر وجوده وانتشاره في المغرب الأوسط وإفريقية (بلاد الجريد وجزيرة جربة)، فقط وذلك لأن عزلة الجبل مكنت سكانه من تعيين حكام أو أمراء تولوا

1277 - أبو زكريا: كتاب السيرة، ص178.
1278 - أبو عمار عبد الكافي: السير (مخ)، و5؛ فرحات الجعبيري: نظام العزابة عند الإباضية الوهبية في جربة، المطبعة العصرية، تونس، 1975، ص25.
1279 - أبو عمار: المصدر نفسه، و2؛ أبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي: كتاب السير، المطبعة العلمية، تونس، 1321هـ، ص91.
1280 - الدرجيني: الطبقات، ج1، ص170؛ بابا وإسماعيل عمر: وادي ميزاب، مجلة التاريخ، عدد19، سنة 1985، ص106.
1281 - أبو عمار: المصدر السابق، و3-5؛ سالم بن يعقوب: تاريخ جزيرة جربة، دار الجويني للنشر، الطبعة الأولى، تونس 1986، ج1، ص84-86؛ أحمد توفيق المدني: كتاب الجزائر، دار المعارف، ط2، القاهرة، 1963، ص105، الجعبيري: نظام العزابة، ص80.
1282 - ارجع إلى الفصل الرابع من رسالتنا: الإباضية في المغرب الأوسط منذ سقوط الدولة الرستمية إلى هجرة بني هلال إلى بلاد المغرب (296-442هـ) (909-1058م)، رسالة ماجستير مخطوطة كلية الآداب، جامعة القاهرة، 1988؛ الجعبيري: المرجع نفسه، ص25 وما بعدها؛ باجية: الإباضية بالجريد، ص181 وما بعدها.

الإشراف على الجبل. كما كان هؤلاء يعينون القضاة، وفي بعض الأحيان كان الحاكم يجمع بين الإمارة والقضاء، ولذلك فإننا نشاطر الدكتور إبراهيم فخار الرأي عندما ذكر بأن إباضية نفوسة لم يعرفوا هذا النظام، ذلك أن النفوسيين كانوا يعملون منذ القدم على الحفاظ على استقلالهم عن المغرب الأوسط، وقد ظهرت هذه النزعة بقوة إبان انتفاضة خلف بن السمح.[1283] وإذا كان علي يحي معمر يؤكد على وجود مجلس للعزابة كامل الأعضاء في كل قرية أو مدينة بالجبل، وأن كل مجلس يرأسه شيخ، ومن جملة هؤلاء الشيوخ تكون المجلس الأعلى للعزابة الذي يرأسه شيخ الجبل في جادو.[1284] فإننا نعتقد بأن هذا ربما حدث في فترة متأخرة عن الفترة موضوع الدراسة، وهي الفترة التي عوض فيها مجلس العزابة أمير الجبل، مما يدعم اعتقادنا ما قاله صاحب الاستبصار (عاش في القرن 6هـ) في وصف سكان الجبل بقوله: «ليس لهم أمير يرجعون إلى أمره، وإنما لهم شيوخ وفقهاء في مذاهبهم يرجعون إلى أمرهم».[1285] ولاشك أن المقصود بهؤلاء الشيوخ والفقهاء هم شيوخ العزابة.

ومهما يكن من أمر فإن العزابة سواء أكانوا شيوخ الجبل أم من خارجه، والذين كان دأبهم تفقد أحوال إخوانهم، كان لهم دور كبير في الحياة الاجتماعية والثقافية، وساهموا إلى حد بعيد في تقويم سلوكات النفوسيين خاصة لما طبقوا نظام الولاية والبراءة والخطة والهجران. وتورد المصادر شواهد كثيرة عن قيام العزابة بمحاربة الانحراف وحماية مصالح الناس، فقد ذكر الوسياني أن أبا يعقوب يوسف بن نفاث كان يتفقد المزارع والطرق فإذا شاهد من ألحق بها ضررا ضربه.[1286] ويضيف أنه إذا نزلت نازلة بالجبل قام رجل معروف ينادي في قرى الجبل يحذر الناس، وذلك لإعطاء الفرصة للشيوخ وللعزابة للتدبر فيها خشية الفرقة والخلاف.[1287] وتروي المصادر أن عزابيا لا تذكر اسمه كسر معزف إمرأة كانت تغني في أحد الملاهي.[1288] وزج العزابة برجل في السجن بسبب تماطله في تسديد دين عليه، ولم يطلقوا سراحه إلا بعد أن دفع ما عليه.[1289] وكان العزابة يوبخون السكان عند صدور عمل قبيح منهم، فقد ذكر أن عزابيا من أهل «اوتلجام» يدعى أبو

1283 - Dr. Brahim Fekhar: Les institutions ibadites Maghrebines au moyen age, l'institution des Azzabas, acte du 3eme congres d' histoires et de civilisation du Magreb Oran 2628- Novembre 1983, OPU, Alger, 1987, T1, p127.

1284 - ينظر: الإباضية في الجزائر، ص260.

1285 - ينظر: ص144-145.

1286 - الوسياني: السير، ج1، و28.

1287 - المصدر نفسه، ج2، و11

1288 - نفسه، ج2، و67.

1289 - الشماخي: السير، ص406.

موسى قال: «أهل» دجي كلهم رجالهم ونسائهم مستحقون للحبس والسياط ،إلا محمدا (وارسفلاس) وأمه».[1290]

وبما أن وظيفة العزابة كانت تهدف إلى حماية الدين، وحماية أهله، فإنه من غير المقبول أن يتعرضوا للطعن، فلما تجرأ أحد أعيان (إكراين) وطعن في العزابة جعلوا السلسلة في عنقه وحبسوه عقابا له.[1291] وقد تتعدى العقوبة مقاطعة بعض القبائل، فالمصادر تذكر أن الشيوخ منعوا التعامل مع ثلاثة قبائل من بني غمرة، وبني ورسفان، وبني ينجاسن، لأنهم أكثروا من الغارة وأعمال الغصب.[1292] وكان العزابة يمنعون أهل الدعوة الوفادة على العمال الجورة، وقد أخرج رجل يدعى عبد الله بن جابر إلى الخطة لاتصاله بأمراء مدينة قابس، فالشيوخ يقولون: «إذا رأيتم العالم يمشي إلى أبواب السلطان فاتهموه على أمر دينكم».[1293]

ويتدخل العزابة في حسم العديد من القضايا تجنبا للخلاف فعندما اشتهر طلوع هلال شوال في الجبل، أكل البعض وأمسك البعض الآخر، خرج أبو هارون التملوشائي ليرغم على من تمادى في الصوم بالإفطار.[1294]

ولم يقتصر تدخل العزابة عند هذا الحد، بل كانوا يمنعون أهل الدعوة من الاطلاع وقراءة كتب أهل الخلاف، فقد عاقب العزابة رجلا يدعى «عبد الله بن عيسى يوسف» عندما علموا بأنه كان يقرأ كتاب لأهل الخلاف عنوانه «كتاب الأشراف على مسائل الخلاف».[1295]

ومن العادات الحسنة التي نعتقد أن العزابة هم الذين سنوها هي أن الجائع كان يغلق بعض بابه ويترك الباقي حتى يلفت انتباه الميسورين فينفقوا عليه، وهذا من باب التكافل الاجتماعي.[1296]

2 - التنظيم الطبقي في المجتمع النفوسي:

كان المجتمع النفوسي يتكون من عدة قبائل بربرية كنفوسة، وتمثل الأغلبية، ولواتة،

1290 - البغطوري: سير نفوسة، و52.

1291 - البغطوري: المصدر نفسه، و13؛ الشماخي: المصدر السابق، ص305.

1292- الشماخي: المصدر نفسه، ص493.

1293 - نفسه، ص384.

1294 -نفسه، ص304.

1295 -الوسياني: السير، ج1، و123.

1296 - الشماخي: المصدر السابق، ص239.

ومزاتة، وهوارة، وسدراتة، ولماية، وزناتة، وزواغة، وكانت هذه القبائل تدين بالمذهب الإباضي. ولا يعني هذا أن جميع السكان كانوا على هذا المذهب، بل هناك المالكية. فقد ذكر الأستاذ بحاز بأن فقيها مالكيا يدعى «أهاب بن مازون النفوسي» كان مشهورا في الجبل في نهاية القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) إذ توفي قبل سنة 320هـ (932م).[1297]

وكان سكان الجبل يكونون وحدة اجتماعية انصهرت فيها مختلف القبائل والبطون على الرغم من بعض الحروب الأهلية التي اندلعت بين بعض قرى الجبل نتيجة العصبية القبلية، وربما محاولة للاستقلال عن حكام جادو. ولا ننسى الأقليات غير الإسلامية التي وجدت الحرية والتسامح فتعايشت مع النفوسيين. وقد سبق الذكر أن جماعات كثيرة من اليهود كانت تعيش في الجبل، ولم نعثر على نصوص تشير بأن هؤلاء اليهود قد تعرضوا لأي مضايقات، بل بالعكس فقد مكنهم تسامح النفوسيين من الانشغال ببعض الحرف والصناعات بالإضافة إلى التجارة. أما بقايا النصرانية من روم وغيرهم فمما لاشك فيه أنهم هم الآخرون كانوا يتمتعون بحرية في ممارسة شعائرهم الدينية. وقد ثبت وجود العديد من الكنائس منتشرة في العديد من قرى الجبل. ويكفي أن نقول إن أبا منصور إلياس أحد مشاهير الجبل ووالي الإمام أبو اليقظان محمد بن أفلح كان نصراني الديانة، أضف إلى ذلك أن الزواج من النصرانيات كان شائعا في الجبل.

بالإضافة إلى هؤلاء هناك طبقة العبيد، الذين كانوا يستعملون كخدم في المنازل، والمزارع، ولم يكن العبيد من بلاد السودان فقط، بل فيهم من الروم. وقد عامل النفوسيون هؤلاء العبيد معاملة حسنة فعملوا على تعليمهم ونشر الإباضية في صفوفهم. فقد ذكر أن إماء نفوسة إذ خرجن للحطب لا يرجعن حتى يتذاكرون جميع مسائل كتاب ماطوس،[1298] وكان يسمح لهن حضور المجالس العلمية. فالمصادر تورد إصرار آمة تدعى «غزالة» على التعلم إذ كانت تخدم مولاها بالنهار، وفي الليل تلتحق بمجلس أبي محمد عبد الله بن الخير.[1299]

ولا يعني هذا أن العبيد كانوا ميسوري الحال، أو كان أغلبهم ممن حظي بالتعليم، فقد إشتكى عبد رومي لسيده عمروس بن فتح - قاضي الجبل في ولاية أبي منصور إلياس- قائلا له: «يا مولاي فما يبلغ فينا أن تأكلوا القمح، ونأكل الشعير، وتلبسوا الكتان، ونلبس الصوف».[1300]

1297 -ينظر: الدولة الرستمية، ص324.

1298 - الوسياني: السير، ج2، و11؛ الشماخي: السير، ص545؛ بحاز: الدولة الرستمية، ص377-378.

1299- الشماخي: المصدر نفسه، ص218؛ بحاز: المرجع نفسه، ص378.

1300 - البغطوري: سير نفوسة، و60.

ورغم أن مصادرنا لا تتحدث عن وجود العرب في الجبل، إلا أنه يحتمل وجود جماعات منهم استقروا بعد الفتح، ولكنه لم يكن لهم تأثير لأن الغلبة كانت البربر. وهذا باستثناء عبد الجبار بن قيس المرادي، والحارث بن تليد الحضرمي، وأبي الخطاب عبد الله الأعلى بن السمح المعافري، والذين تزعموا ثورات الإباضية في النصف الأول من القرن الثاني الهجري (الثامن الهجري)، وحتى عندما انتقل بنو هلال إلى بلاد المغرب، فإنهم استقروا في سفوح الجبل المعروفة بمنطقة «الجفارة».

3 - المرأة:

يعد موضوع المرأة الإباضية من المواضيع الحساسة، والصعبة في الوقت نفسه، لأن عالم المرأة الإباضية سواء في القديم أم في الحديث عالم لا يستطيع أي باحث فهمه، أو دراسته، إلا من داخل المجتمع الذي تعيش فيه، وهذا يعود إلى انعدام المصادر وسكوتها. وسيقتصر حديثنا في هذا المجال عن دور المرأة ومكانتها في المجتمع الذي تعيشه خاصة في مجال الدعوة، والتعليم، وهو الدور الذي أشارت إليه المصادر المتوفرة لدينا.

حظيت المرأة باهتمام كبير ولم يكن هذا الاهتمام أمرا عارضا، بل هو نابع من صميم الدين الإسلامي، فعملوا على إعدادها إعدادا جيدا لتؤدي رسالتها في المجتمع، ويسروا لها السبل لتلتحق بحلقات الدرس، فكان من عادة سكان قرية «ابناين» مثلا أن يجعلوا ستارا في آخر المسجد لكي تجلس النساء لسماع دروس الوعظ التي تسبق الصلاة.[1301]

وإذا عدنا إلى المصادر نلاحظ اشتهار العديد من النساء بالعلم والورع، فأخت الإمام أفلح بن عبد الوهاب كانت عالمة بالحساب والفلك والتنجيم.[1302] وأخت عمروس بن فتح كانت تساعد أخاها في نسخ الكتب ومطالعتها.[1303] ويقال إن ابنة أبي مسور يصلتن النفوسي الأدوناطي - كان معاصرا للإمام عبد الوهاب - كانت تجادل والدها في العلم.[1304] واشتهرت في «ويغو» إمرأة تسمى «آسية» بالعلم والصلاح، عاشت في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري (10م) وكانت معاصرة للعالم أبي يعقوب البغطوري، وأبي محمد ورسفلاس بن مهدي.[1305] وعرفت «شكرت الزعرارية بكثرة الحفظ حتى إنها حفظت كتاب عنوانه «الخليل الصالح» بعد قراءة واحدة، وذلك لأن صاحبه لم يسمح بنسخه

1301- الشماخي: المصدر السابق، ص536؛ دبوز: تاريخ المغرب الكبير، ج3، ص408.

1302 - أبو زكريا: كتاب السيرة، ص135.

1303 - الشماخي: المصدر السابق، ص228.

1304 - الشماخي: المصدر نفسه، ص230؛ سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي،ج2، ص525؛ معمر: الإباضية في ليبيا، ص243.

1305 - T. Lewicki: Les noms propres, p22.

فحفظته، وراحت تملي على كل راغب في نسخه.[1306] ومن نوابغ النساء كذلك «أم داود»،[1307] و«أم زكار»،[1308] وزينب اللألوتية التي كانت مهتمة بالحركة العلمية في الجبل.[1309]

ومن النساء الشهيرات كذلك «سرغينت الوريورية»، فقد كانت إمرأة صالحة ورعة عالمة تسأل العزابة لا للاستفتاء فحسب بل لإختبار معارفهم، مما يدل على المكانة العلمية التي كانت تتبوأها في الجبل. وقد ساهمت بدور فعال في نشر العلم والمعرفة بين نساء قريتها «وريوري» في المنتصف الأول من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي).[1310]

وقد تمكنت بعض النساء من التفوق بفضل عزمهن وجدهن في أخذ العلم والتفقه في الدين، حتى أصبحن حجة في الدين مثل «أم سحنون اللالوتية» (ق4هـ/10م)، التي كان المشايخ لا يفوتون الفرصة لزيارتها والاستفادة من علمها ونصائحها. فقد كانت على حد تعبير الشماخي أفضل عجوز بالجبل. لها أقوال مأثورة في الحكمة. وساهمت في نشر العلم بين النساء وتفقيههن في دينهن.[1311] كما اشتهرت «زيديت بنت عبد الله الملوشائية» بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكانت تذكر النساء دوما بأمر الميعاد والحساب والقبر والموت.[1312]

ومن النساء العلماء اللواتي حولهن بيوتهن إلى مدارس لتلقى العلم «زورغ الأرجانية»، هذه المرأة النفوسية التي بلغت مبلغا عظيما في العلم والصلاح والتقوى، حتى قيل إن ثلث علم الجبل معها. وكانت نساء ايجيطال وأبديلان «يزرنها للاستفادة من علمها».[1313] ولا نبالغ إذا قلنا بأن بعض النساء سمح لهن بالفتيا لعلمهم وتفقههن في الدين، مثل «أم زعرور نانا»، من «إيجطال»، التي عاشت في القرن الثالث هجري (التاسع ميلاد).[1314]

ومما يدل على أن المرأة النفوسية تسعى دائما لأن تكون عالمة بدينها، مبلغة له ناشرة للفضيلة، ومكافحة للرذيلة، تلك المرأة التي تسمى «أم الخطاب»، والتي عاشت في القرن

1306 - البغطوري: سير نفوسة، و17؛ الشماخي: المصدر السابق، ص234-235؛ بحاز وآخرون: معجم أعلام الإباضية، ج2، ص207-208.

1307 - الشماخي: المصدر نفسه، ص303.

1308 - نفسه، ص239؛ الدرجيني: طبقات المشائخ، ج2، ص318.

1309 - معمر: الإباضية في ليبيا، ص172.

1310 - بحاز وآخرون: معجم أعلام الإباضية، ج3، ص346.

1311 - السير، ص298.

1312 - الشماخي: المصدر نفسه، ص318؛ بحاز وآخرون: المرجع نفسه، ج3، ص335.

1313 - البغطوري: سير نفوسة، (مخ)، و59؛ الشماخي: المصدر نفسه، ص240.

1314 - الشماخي: المصدر نفسه، ص249؛ بحاز وآخرون: المرجع السابق، ج3ـ ص305.

الثالث الهجري والتاسع الميلادي، في قرية (أغرميمان). فقد كانت هذه المرأة نصرانية الديانة، فتنزوجها أبو يحي الأزدالي - أحد شيوخ الجبل - فاعتنقت الإسلام، وحفظت القرآن الكريم، وجدت في دراسة العلوم الشرعية، وحضور الحلقات العلمية، فأصبحت بمرور الزمن مرجعا في الفتوى، والاستشارة في أمور الدين والدنيا.[1315]

كما اشتهرت «أم الربيع الوريورية» (القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي) بالفضل والكرم والتقوى، حيث كان المشائخ يفدون إليها، ويجتمعون في بيتها، ويتشاورون، ويتناقشون في المسائل الدينية.[1316]

ولعل أهم عامل ساعد المرأة النفوسية على أن تأخذ نصيبها من العلم هو كثرة المجالس العلمية، أضف إلى ذلك إرادتها الصلبة وطموحها الكبير في الوصول إلى مبتغاها. وأحسن مثال على ذلك ما صوره الشماخي في سيره عن إصرار «أم ماطوس» على حضور المجالس، فقال «كانت أم ماطوس بكرا، وأرادت أن تتعلم، وبلدها جار إرصرا» فإذا جنها الليل ونام الناس، أخذت مزراقا في يدها وذهبت إلى أبي محمد التمصمص فتحضر المجلس، فإذا افترق رجعت فسمع أخوها، وصار يغلق عليها وينام على الباب، فكانت تتركه حتى ينام فتفتح وتغلق خلفها، فإذا رجعت دخلت وأغلقت... وذهبت مرة ليلا إلى «إجناون» لتحضر المجلس وبينهما قرب عشرة أميال.[1317]

ومن النساء الفاضلات كذلك «بهلولة النفوسية»، تعلمت على يدي أبي ذر أبان بن وسيم الويغوي، وكانت هذه الحلقة - أي حلقة أبان بن وسيم - تعقد في بيتها. ونظرا لصلاحها تزوجها أبا ذر وأصبحت لها هي الأخرى حلقة تؤمها النساء.[1318] كما تتحدث المصادر عن نساء أهل «تدينة» وانتقالهن إلى بلدة «سنتوت» ومعهن أولادهن للالتحاق بمجلس أبي الشعثاء والمسافة بينهما أزيد من أربعة وعشرين ميلا.[1319] وتتحدث عن أم يحي «تكسليت» من بلدة «جليمة»، والتي اجتهدت حتى صارت أفضل زمانها أي القرن الثالث الهجري (التاسع ميلادي)، وكان عزابة «أمسين» يجتمعون في بيتها كل ليلة جمعة يتذاكرون. وكانت هي الأخرى تعلم النساء إذ فكرت في تخصيص مدرسة للبنات،

1315 - الشماخي: المصدر نفسه، ص249؛ بحاز وآخرون: المرجع السابق، ج3ـ ص272.

1316 - الشماخي: المصدر نفسه، ص310؛ معمر: الإباضية في ليبيا، ص249؛ بحاز وآخرون: المرجع نفسه، ج3، ص300.

1317 - ينظر: السير، ص317.

1318 - الشماخي: المصدر نفسه، ص217؛ بحاز: الدولة الرستمية، ص378؛ بحاز وآخرون: معجم أعلام الإباضية، ج2، ص196.

1319 - الشماخي: المصدر نفسه، ص247.

مجهزة بالأقسام الداخلية.[1320]

وما يدل على المكانة التي أولاها النفوسيون للمرأة أن أبا عبيدة عبد الحميد الجناوني لما ولاه الإمام عبد الوهاب أمور الجبل استشار عجوزا كانت تسكن بلدة «إرجى أزمار» معروفة بالعلم والصلاح، وقد أشارت عليه بالدخول في الولاية فأخذ بنصيحتها.[1321]

وفي الختام نقول إن المرأة النفوسية حظيت باهتمام المشائخ نظرا لدورها الكبير الذي تلعبه في المجتمع، فكانت إلى جانب اشتغالها في الزراعة، وفي غزل الصوف، والاهتمام بأعمال بيتها عموما، تأخذ نصيبها من العلوم والمعارف.

1320 - البغطوري: سير نفوسة، و15؛ الشماخي: المصدر نفسه، ص234؛ معمر: الإباضية في ليبيا، ص238-239؛ بحاز وآخرون: معجم أعلام الإباضية، ج2، ص207-208.

1321 - الشماخي: المصدر نفسه، ص182-183؛ بحاز: الدولة الرستمية، ص379-380.

خاتمة

وبعد، ومن خلال هذه الدراسة التي حاولنا أن نكشف فيها عن تاريخ هذا الجبل الذي لعب دورا كبيرا في الحركة الإباضية في بلاد المغرب الإسلامي، يمكن لنا أن نستخلص منها النتائج التالية:

1 - يعود الفضل إلى نفوسة في الحفاظ على أمن وسلامة الدولة الرستمية خاصة وأن الجبهة الشرقية كانت مصدر الأخطار الكبرى على الدولة فكانت نفوسة هي الساعد القوي الذي يقف في وجه المتربصين بها، ولذلك يمكن أن نستنتج بأن نهاية الدولة الرستمية بدأت منذ أن تعرض الجبل لنكبة مانوا (283هـ) التي حد فيها سيف نفوسة، وأصبحت الإمامة تعيش مرحلة التقهقر والانحطاط حتى أصبحت لقمة سائغة أمام الغزو الشيعي.

2 - لعبت نفوسة دورا كبيرا في ميزان القوى المتصارعة في تيهرت خاصة أثناء الحروب الأهلية، وكان لها الفضل في استمرار الأسرة الرستمية في الحكم.

3 - كان الجبل سندا قويا للدولة الرستمية، ومصدرا للجندية، ويمكن القول إن الجبل هو الدولة الرستمية والدولة الرستمية هي الجبل.

4 - تزعمت نفوسة أغلب الخلافات التي نشبت بين السلطة في تاهرت، وبين ولاية الجبل بعد أن لاحظت بأنها اخترقت أهم مبدأ أساسي يقوم عليه الفكر السياسي الإباضي ألا وهو الحرية في اختيار الأئمة.

5 - يرجع الفضل لنفوسة الجبل في الحفاظ على استمرارية المذهب الإباضي بعد سقوط إمامة الظهور، وإحياء الإمامة بعد اندثارها.

6 - كان للنفوسيين السبق في إنشاء نظام الحلقة والذى تطور إلى نظام العزابة، وما كان لهذا الأخير من فضل في الحفاظ على تماسك المجتمع الإباضي وحفاظه على مذهبه إلى وقتنا الحاضر.

7 - ساهمت نفوسة بدور بارز في الحركة الثقافية والعلمية، فخلف النفوسيون المئات إن لم نقل الآلاف من الأسفار في مختلف فنون العلم والمعرفة، وساهمت حلقات

نفوسة العلمية في انتشار العلم، فكان الجبل يعج بالطلبة القادمين من مختلف مواطن الإباضية في بلاد المغرب. وإذا كانت تاهرت معدن الدواب والكراع - على حد تعبير الجغرافيين - فإن الجبل كان معدن العلماء ورجال الفكر.

8 - إذا كان عبد الرحمن بن رستم عين إماما لأنه ليست له عصبية تحميه، ويسهل عزله إذا حاد عن الطريق المستقيم، فإن الأئمة الذين جاؤوا من بعده كانوا في حاجة إلى عصبية نفوسة لحمايتهم وللحفاظ على استقرار السلطة في البيت الرستمي. ولذلك حظيت نفوسة بنفوذ كبير مما جعل أفرادها يتولون المناصب المرموقة ويتدخلون مباشرة في تعيين الأئمة.

9 - يمكن القول بأن وحدة المذهب لم تستطع القضاء على القبلية فعرف الجبل عدة حروب أهلية. وأصبح الإخوة كالتيوس إذا اجتمعوا تناطحوا وإذا افترقوا تصايحوا على حد تعبير أحد الشيوخ. وتعددت الخلافات في الرأي بين الفرق مما أدى إلى ضعف الرابطة الروحية، وإظهار الفساد علانية كشرب الخمر وغيره، وظهور الاغتيالات والتصفيات الجسدية.

10 - يرجع الفضل إلى النفوسيين في نشر الإسلام في بلاد السودان، وفي المساهمة في تنشيط حركة التجارة.

الملاحق

ملحق رقم (1)

رسالة الإمام عبد الوهاب إلى جبل نفوسة في مسألة خلف.

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله.

من أمير المؤمنين عبد الوهاب إلى جماعة المسلمين بحيز طرابلس.

أما بعد: فإني آمركم بتقوى الله، واتباع ما أمركم به واجتناب ما نهاكم عنه. وقد بلغني ما كتبتم به إلي من وفاة السمح، واستخلاف بعض الناس خلفا ورد أهل الخير ذلك.

فإن من ولى خلفا من غير رضاء إمامه، فقد أخطأ سيرة المسلمين ومن أبى توليته، فقد أصاب. فإذا أتاكم كتابي هذا فليرجع كل عامل استعمل منكم السمح إلى عمالته التي ولي عليها، إلا خلف بن السمح فحتى يأتيه أمري وتوبوا إلى ربكم وارجعوا التوبة لعلكم تفلحون.

الباروني، الأزهار، ص202-203.

ملحق رقم (2)

الرسالة الثالثة للإمام أفلح إلينفاث

من أفلح بن عبد الوهاب إلى نفاث بن نصر، أما بعد:

فالحمد لله المنعم علينا، والمحسن إلينا، الذي بنعمته تتم الصالحات، ولا يهتدي مهتد إلا بعونه وتوفيقه، فله المنة علينا ولا منة لنا عليه، هو المحسن إلينا إذ هدانا لدينه، وجعلنا خلفا من بعد أسلافنا الصالحين وأئمتنا المهتدين الذين في اتباعهم نرجو الهدى، وفي مخالفتهم نخشى الهلكة، ولن يهتدي من خالف العدل ولن ينجو من ابتدع غير الحق، لأن تلك البدعة ضلالة وكل ضلالة كفر وكل كفر في النار.

وقد كتبت إليك غير كتاب، أنصح لك فيه وأدعوك إلى رشدك، وفي كل ذلك لا يبلغني من عمالنا فيك إلا ما أكره، ولا أرضاه لدين ولا دنيا، حتى حررت كتابا منشورا إلى عمالنا أمرتهم فيه بخلع كل من خالف سيرة المسلمين وابتدع غير طريقتهم، وسار بغير سيرتهم وبنفيه وهجره وإقصائه، فكتبت إلي كتابا كأنك تسخط ذلك، أترى أني أؤازر من ابتدع في ديننا (كلا) ما كنت بالذي يفعل ذلك، ولا أؤازر من يسعى في خلافنا ما كنا على الهدى.

ثم قلت: أما أمرنا في كتابنا بالبراءة منك، فإن كنت كما كتب به إلينا فأنت محقوق بالبراءة، ومقصي من جماعتنا، لأننا ما كتبنا كتابنا ذلك إلا على أن كل من ابتدع في ديننا خلاف أسلافنا، وزعم أن عمالنا أساقفة وأنهم لا طاعة لهم في حال كتمانهم فهو محقوق بالبراءة ومقصى من جماعة المسلمين فإن لم تكن أنت منهم فأنت الذي أبحت لنا البراءة منك، وأحللت بنفسك ما لابد لنا أن نفعله بك وبغيرك، وإن لم تكن كذلك فاظهر الانتفاء من ذلك، وكذب عن نفسك ما قيل عنك، لتكون عندنا بالحالة التي تستحقها وتستوجبها.

وأما قولك: (تب مما كتبت به) فهو منك عبث إذ لم أشاهدك ولم أشاهد موافقتك حتى يجب لك علي أصل ولاية، ولم يكن لك عندي تقدمه في الموافقة، وإنما رفع إلينا عنك ما رفعه أهل الثقة عندنا فأمرنا عمالنا أن يسيروا في كل من ابتدع بسيرة المسلمين وكتبنا إليهم بذلك فجعلت تكتب إلينا فيما ليس لك به كتاب، فعلام تتجاهل في الأمور، فإن كانت غايتك إنما هي أن نكتب إليك وتجيب، وتكتب إلينا ونجيب، فهذه غاية

قصيرة والسكوت عنك أهنأ وأولى بنا، ونحن بأمنينا به أحق من مجاوبة أهل التكلف، ومن ليس له غاية إلا أن يقال فيه كتب فلان، وقال فلان وفلان يفعل ويفعل فلان، وإن كانت غايتك التصحيح فأنف عن نفسك ما رقي عليك، وكن من جماعتنا وموافقي أسلافنا، فإذا تبينت منك الموافقة والانتفاء مما رقي عليك، كان ذلك هو الذي نحبه منك ومن غيرك، وليس لك عندي غير هذا، وإن يكن حقا ما رقي عليك وما قيل فيك من مخالفة أصحابنا، فأنت وما رضيت به لنفسك، وإني غير كاتب إليك كتابا بعد هذا، إلا أن انتهى إلينا منك ما نحبه فننزلك من أنفسنا بحيث تحب، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الباروني: الأزهار، ص261-262.

ملحق رقم (3)

رسالة إبراهيم بن أحمد الأغلبي إلى أبى عبد الله الشيعي

«يقول لك الأمير: ما حملك على تعرض سخطي والتوثب على مملكتي، وإفساد رعيتي والخروج علي، إن كنت تبتغي غرضا من أغراض الدنيا فإن ذلك مما تجده عندي، وإن كنت تلافيت نفسك وتراجعت عن غيك فأقدم إلي فأنت آمن. فإن أردت المقام ببلدي أقمت وإن أحببت الانصراف إلى الموضع الذي جئت منه انصرفت، وإن كان قصدك قصد من سولت له نفسه الخلاف على الأئمة، واستفساد جهلة الأمة فقد لعلك عرفت كيف كانت عواقب من منته نفسه أمنيتك وسولت نفسك لك من الهلاك العاجل قبل سوء المصير في الآجل فلا يغرنك ما رأيته من إقبال هؤلاء الأوباش عليك، واتباعهم إياك فإني لو قد صرفت وجهي إليك لأسلموك وتبرأوا منك. واعلم أني أردت الاعذار إليك لإظهار الحجة عليك. وهذا أول كلامي إليك وآخره فقد أعذر من أنذرك».

القاضي النعمان: كتاب افتتاح الدعوة، ص56-57.

ملحق رقم (4)

رسالة أبي عيسى إبراهيم بن إسماعيل الخراساني إلى أهل المغرب

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على نبينا محمد وعلى آله وسلم

من أبي عيسى إبراهيم بن إسماعيل الخراساني وجماعة المسلمين إلى من بلغه كتابي هذا إلى إخواننا من أهل المغرب وأهل ديننا من أهل الحق والرشد سلام عليكم فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو أسأله أن نصلي على محمد عبده ورسوله (ص) البار الرحيم الذي هدانا وإياكم لدينه الذي لا يرضي إلا به ولا يتولى إلا عليه ولا يبرأ إلا على تركه والذي يثيب به على الوفاء والصدق به جنات النعيم... نوصيكم وأنفسنا بتقوى الله العظيم وما عظم من عظيم حقه وما حرم من حرماته فإنه من يتق الله فهو الآمن المحفوظ الذي لا يضره مع أمان الله شيء من أمر الدنيا والآخرة وكذلك كان أهل اليقين والسداد لأمره فاتقوا الله يا معشر المسلمين في أنفسكن ومعالم دينكم وطريقه المستقيم... جاءنا بعض أصحابكم فذكروا لنا أمرا بلغ إلينا وساءنا من هلاك من هلك قبلكم من أهل دين المسلمين وخلافهم أئمة الهدى عند المسلمين بالمشائخ الذين أدركنا عندنا. فالله المستعان على ذلك وعلى الله التكلان مضى عبد الوهاب رحمه الله على الرضى من المسلمين والاستقامة على الدين لا ينقم عليه أحد من أهل الحي عندنا و عندكم سيرته فيكم سيرة من مضى من أئمة الهدى وحكمه فيكم حكمهم وحربه فيمن حارب حرب من مضى من الأخيار وسيرتهم ولا ينقم عليه أحد في حكم حكمه ولا في قسم قسمه ولا في سيرة سار بها بل كان يدين الله عندنا وعنكم بالحق ودين المسلمين ومشاورة الفقهاء وأهل الرأي من الصالحين والبصيرة في الدين ممن كان قبلنا وقبلكم. حتى توفي عبد الوهاب رحمه الله رحمة واسعة فإنا لله وإنا إليه راجعون. وقد أدركنا أبا أيوب وائل بن أيوب وغيره من الأشياخ ومن بعده محبوبا أبا سفيان بن الرحيل وهم راضون عنه لا ينتقمون عليه شيئا والحمد لله.

وقد كان فيما بلغنا استعمل على بعض قراكم وبلادكم السمح فكان السمح على تلك الطريقة والاستقامة لا ينقم عليه أحد من المسلمين في حكم حكمه ولا في قسم قسمه يسير فيهم سيرة صاحبه وأهل التقوى من الأئمة قبله ثم مضى لسبيله رحمه الله... فلما توفي السمح رحمه الله بلغنا أن أصحاب تلك القرية استعملوا خلف

بن السمح واشترطوا على ذلك رضى عبد الوهاب إن أجاز ذلك جاز علينا قوله والطاعة طاعته في طاعة الله ومرضاته. فكان هذا لعمري أحسن لو استأذنوا الإمام وخالفوا قول المسلمين حين نزل بهم الأمر من هلاك صاحبهم فاستعملوا عليهم رجلا بغير إذنه والأمر ذلك للإمام الذي هو عليهم فيجب الرجوع إلى رأي الإمام تعقب على رأيهم إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل فهذا الرأي حسن لهم لو استقاموا على هذا. ولكنه بلغنا وانتهى إلينا أنهم لما استعملوه عليهم كتبوا إلى عبد الوهاب رحمه الله في ذلك فلما جاءه كتاب القوم في ذلك أنكر ذلك إليهم وأباه عليهم أشد الإباء فقال لهم: لست أرضى بما صنعتم. وكان ينبغي لهم أن يسمعوا ويطيعوا لقول عبد الوهاب ويخلعوا ما سواه وينتهوا إلى قوله ورأيه لما أبان لهم فيهم وولايته وطاعته واجبة عليهم فمن شاقه وبغى عليه فهو عندنا ضال كافر حتى يرجع ويتوب ويستغفر الله مما صنع وخالف وضيع ويرجع إلى الله والمسلمين وجماعتهم عصمنا الله وإياكم من شر ما خلق.

ثم كان بعد عبد الوهاب أفلح ابنه حفظه الله سار سيرة أبيه من قبله في حكم حكمه ولا في قسم قسمه وفيما بلغنا قوله مطاع ورأيه متبع ومشاورة الفقهاء والمسلمين جائزة بعمل برأي المسلمين ويترك ما خالفه فمتعنا الله بحياته لنا ولكم ونسأله العون على الحق والصبر. فبلغنا أنه أنكر على من دخل في رأي خلف كما أنكره أبوه ومن قبله من المسلمين وأبوا ذلك عليهم فخالف خلف وأصحابه وأبوا إلا رأيهم فالله المستعان وقد فسرنا لهم وإياكم معالم ديننا ووضحنا رأي المسلمين عليهم.

ابن سلام الإباضي: الإسلام وتاريخه من وجهة نظر إباضية، ص161-166.

المصادر والمراجع

المصادر المخطوطة :

1 - أبو عمار عبد الكافي بن أبي يعقوب التناوتي (ق 6هـ)

السير

مخطوط بمكتبة الحاج سعيد محمد أيوب -غرداية (الجزائر).

2 - البغطوري (مقرين محمد)(ق6)

سير مشائخ نفوسة

مخطوط بالمكتبة البارونية، جزيرة جربة، تونس.

3 - مجهول: كتاب المعلقات

مخطوط بمكتبة العطف، غرداية (الجزائر).

4 - مجهول: كتاب كشف الغمة فيما تشاجرت به الأمة (كشف الغمة وبيان كل فرقة).

5 - الوسياني (أبو الربيع سليمان بن عبد السلام بن حسان) (ق 6هـ)

السير

مخطوط بمكتبة القطب بني يسقن غرداية (الجزائر).

المصـــادر:

6 - ابن الأبار (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر القضاعي 595-685هـ)

كتاب الحلة السيراء

تحقيق: حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة والنشر، ط1، القاهرة، 1963.

7 - ابن أبي دينار (أبو عبد الله محمد)(ت ق 11هـ)

المؤنس في أخبار إفريقية وتونس

مطبعة الدولة الرسمية، ط1، تونس، 1386هـ

8 - ابن الأثير (أبو الحسن علي (555-630هـ)

الكامل في التاريخ

دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1965.

9 - ابن تغرى يردى (جمال الدين أبو المحاسن)

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة

مطابع كوستا تسوماس، القاهرة (د.ت).

10 - ابن حوقل (أبو القاسم محمد البغدادي ت ق 4هـ)

صورة الأرض

دار مكتبة الحياة، بيروت، (د.ت).

11 - ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد ت 808هـ)

كتاب العبر

دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1968.

12 - ابن خلدون: المقدمة

دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1968.

13 - ابن رسته (أبو علي أحمد بن عمر، (ت بعد 290هـ)

الأعلاق النفيسة

مطبعة بريل، ليدن، 1891.

14 - ابن سعيد (أبو الحسن علي بن موسى(ت 685هـ)

كتاب الجغرافية

تحقيق: إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، ط2، الجزائر، 1982.

15 - ابن سلام الإباضي:

الإسلام وتاريخه من وجهة نظر إباضية

تحقيق: ر.ق. شفارتزر، وسالم بن يعقوب، دار إقرأ، ط1، بيروت، 1985.

16 - ابن الصغير (ق 3هـ)

أخبار الأئمة الرستميين

تحقيق: محمد ناصر وبحاز إبراهيم بكير، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986.

17 - ابن عبد الحكم (عبد الرحمن بن عبد الله 187-257هـ)

فتوح إفريقية والأندلس

تحقيق: عبد الله أنيس الطباع، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1964.

18 - ابن عبدون: رسالة في القضاء والحسبة، نشرها ليفي بروفنسال ضمن

.Journal Asiatique, Avril-Juin 1934

19 - ابن عذارى المراكشي (ق 8هـ): البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ج.س. كولان وليفي بروفنسال، دار الثقافة، ط2، بيروت، 1980.

20 - ابن غلبون (أبو محمد عبد الله محمد بن خليل)

تاريخ طرابلس الغرب المسمى (التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخيار)

تحقيق: الطاهر أحمد الزاوي، المطبعة السلفية، القاهرة، 1349هـ

21 - أبو زكريا (يحي بن أبي بكر ت بعد 474هـ)

كتاب السيرة وأخبار الأئمة

تحقيق: عبد الرحمن أيوب، الدار التونسية للنشر، تونس، 1985.

22 - أبو عبد الله الصنهاجي (ت 628هـ)

أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم

تحقيق: جلول أحمد البدوي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.

23 - أبو العرب (محمد بن أحمد بن تميم القيرواني،(ت333هـ)

طبقات علماء إفريقية وتونس

تحقيق: علي الشابي ونعيم حسن اليافي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1968.

24 - أبو عمار عبد الكافي: الموجز في تحصيل السؤال وتلخيص المقال في الرد على أهل الخلاف، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978.

25 - أبو الفدا (عماد الدين إسماعيل، ت 732هـ)

كتاب تقويم البلدان

صححه: رينود والبارون ماك كوكين ديسلان، دار الطباعة السلطانية، باريس، 1830.

26 - الإدريسي (محمد عبد العزيز الشريف الفاوي 548هـ)

القارة الإفريقية وجزرة الأندلس

تحقيق: إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983.

27 - البرادى (أبو الفضل بن القاسم بن إبراهيم) (عاش ق6هـ)

الجواهر المنتقاة فيما أهمله كتاب الطبقات، طبعة حجرية، القاهرة (د.ت)

28 - البغدادي (صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق، ت739هـ)

مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع

تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة، ط1، بيروت، 1955.

29 - البكري (أبو عبد الله، ت487هـ)

المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب

طبعة دي سلان، الجزائر، 1857.

30 - البلاذري (أحمد بن يحي بن جابر البغدادي، (ت279هـ)

فتوح البلدان

راجعه: رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987.

31 - التنسى (أبو عبد الله)، تاريخ دولة الأدارسة من كتاب نظم الدرر والعقيان، تحقيق: عبد الحميد حاجيات، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.

32 - الجناوني (أبو زكريا يحي، (ت ق 5هـ)

عقيدة التوحيد نشرت ضمن 33-Extrait du Bulletin d>etudes Orientales 1980, T32.

33 - الحموي (أبو عبد الله ياقوت، (575-625): معجم البلدان، مطبعة السعادة، ط1، القاهرة، 1906.

34 - الحميري (محمد بن عبد المنعم، (ت ق 8هـ): الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، ط1، بيروت، 1984.

35 - الدرجيني (أبوالعباس أحمد، ت ق 7هـ): طبقات المشائخ بالمغرب، تحقيق: إبراهيم طلاي، مطبعة البعث، قسنطينة، (د.ت).

36 - الدواداري (أبو بكر بن عبد الله بن أيبك، (ت736هـ): كنز الدرر وجامع الغرر (الدرة المضيئة في أخبار الدولة الفاطمية)، تحقيق: صلاح الدين المنجد، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1961.

37 - الزهري (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، ت ق6): كتاب الجغرافية، تحقيق: محمد حاج صادق، المركز الإسلامي للطباعة، القاهرة، (د.ت).

38 - السيوطي (جلال الدين، ت911هـ): تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دون مكان الطبع، أو دار النشر والتاريخ.

39 - الشماخي (أحمد بن سعيد بن عبد الواحد، ت928هـ): السير، طبعة حجرية، القاهرة، (د.ت).

40 - الشنقيطي (أحمد بن الأمين): الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، مطبعة السنة المحمدية، ط2، القاهرة، 1958.

41 - الشيزري (عبد الرحمن بن نصر): كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق: السيد الباز العريني، دار الثقافة، ط2، بيروت، 1981.

42 - عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم (ت 211هـ): كتاب مسائل نفوسة، تحقيق: إبراهيم طلاي، المطبعة العربية، غرداية (الجزائر)، 1991.

43 - الغرناطي (أبو حامد): كتاب تحفة الألباب، نشر ضمن Journal Asiatique, 1925, Tome CCXII

44 - القاضي عبد الجبار: فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، تحقيق: فؤاد سيد، الدار التونسية للنشر، ط2، تونس، 1986.

45 - القاضي النعمان (أبو حنيفة بن أبي عبد الله بن حيون، ت 363هـ): كتاب المجالس والمسايرات، تحقيق: الحبيب الفقي وإبراهيم شبوخ، محمد اليعلاوي، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، تونس، 1978.

46 - القاضي النعمان: كتاب افتتاح الدعوة، تحقيق: فرحات الدشراوي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، الشركة التونسية للتوزيع، ط2، تونس، 1986.

47 - القرشي (إدريس عماد الدين، (ت872هـ): عيون الأخبار وفنون الآثار، تحقيق: مصطفى غالب، دار الأندلس، بيروت، (د.ت).

48 - القرشي: تاريخ الخلفاء الفاطميين في المغرب (القسم الخامس من كتاب عيون الأخبار) تحقيق: محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1985.

49 - القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي، (ت 821هـ): صبح الأعشى في صناعة الأنشا عرض وتحليل عبد اللطيف حمزة، المؤسة العامة للطباعة والنشر، القاهرة، (د.ت).

50 - المارغني (أبو عمرو عثمان بن خليفة، (توفي أواخر ق 6هـ): فرق الإباضية الست وما زاغت به عن الحق، طبعة حجرية، (د.ت).

51 - المالكي (أبو بكر عبد الله، ت 453هـ): رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1951.

52 - مجهول (توفي ق 6هـ): كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق: سعد زغلول عبد الحميد، مطبعة جامعة الإسكندرية، 1958.

53 - الجيلدي (أحمد سعيد -1094هـ): كتاب التيسير في أحكام التسعير، تحقيق: موسى لقبال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 1981.

54 - المزاتي (أبو الربيع سليمان بن يخلف، (ت 471هـ): كتاب السير، المطبعة العلمية، تونس، 1321هـ.

55 - المقدسي (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد، ت 383هـ): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة ليدن، ط2، 1906.

56 - النفوسي (أبو عبد الله محمد بن بكر): سير الحلقة، نشر ضمن Annali: Instituto Universitario Orientali Di Napoli, Nuova Serie 10 Napoli, 1960.

57 - النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، ت733هـ): نهاية الإرب في فنون الأدب، تحقيق: حسين نصار، مراجعة عبد العزيز الأهواني، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1983.

58 - الوارجلاني (أبو يعقوب يوسف إبراهيم السدراتي، ت570هـ): الدليل والبرهان، تحقيق: سالم بن حمد الحارثي، نشر وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، 1983.

59 - الوسياني (أبو الربيع: سير مشائخ المغرب، تحقيق: إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، (د.ط)، الجزائر، (د.ت).

60 - اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن واضح، ت284هـ): تاريخ اليعقوبي، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، 1960.

61 - اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن واضح، ت284هـ): صفة المغرب المأخوذة من كتاب البلدان، نشره دي خويه، مطبعة بريل، 1850.

المراجـع:

62 - إبراهيم (سنوسـي يوسف): زناتة والخلافة الفاطمية، شركة سعيد رأفت للطباعة، ط1، القاهرة، 1986.

63 - ابن أبي ضياف: أتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، تونس، 1963.

64 - أتوري (روسي): ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911، ترجمة: خليفة محمد التليسي، الدار العربية للكتاب، ط2، (دون مكان)، 1991.

65 - أطفيش (محمد بن يوسف): رسالة إن لم تعرف الإباضية يا عقبى يا جزائري، طبعة حجرية، القاهرة، 1328هـ.

66 - أطفيش:رسالة شافية في تاريخ وادي ميزاب (مخطوط بمكتبة القطب، غرداية).

67 - الأنصاري (أحمد بك النائب): المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، مطابع دار الغندور (دون مكان وتاريخ).

68 - أيوب (محمد سليمان): جرمة من تاريخ الحضارة الليبية، دار المصراتي للطباعة والنشر، طرابلس (د.ت).

69 - أيوب (محمد سليمان): مختصر تاريخ فزان منذ أقدم العصور حتى 1811، المطبعة الليبية، طرابلس (د.ت).

70 - باجية (صالح): الإباضية بالجريد، دار بوسلامة للطباعة والنشر، تونس 1976.

71 - الباروني (سليمان أبو الربيع): مختصر تاريخ الإباضية، مطبعة الإرادة، تونس، 1938

72 - الباروني (سليمان أبو الربيع): الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، تحقيق: محمد علي الصليبي، المطابع العالمية، روى، سلطنة عمان، 1987، ج2.

73 - الباروني (عبد الله بن يحي): رسالة سلم العامة والمبتدئين إلى معرفة أئمة الدين، مطبعة النجاح، القاهرة، 1324هـ.

74 - باشا (نجاة): التجارة في المغرب الإسلامي منذ القرن الرابع إلى القرن الثامن للهجرة، منشورات الجامعة التونسية، تونس، 1976.

75 - بكير (بحاز إبراهيم): الدولة الرستمية (160-296هـ) (777-909م): دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية، مطبعة لافوميك، ط1، الجزائر، 1985.

76 - بكير (بحاز إبراهيم): معجم أعلام الإباضية (مخطوط).

77 - بل (ألفرد): الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981.

78 - بن عميرة (محمد): دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.

79 - بن يعقوب (سالم): تاريخ جزيرة جربة، دار الجويني للنشر، ط1، تونس، 1986.

80 - بونار (رابح): المغرب العربي تاريخه وثقافته، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 1981.

81 - بيضون (إبراهيم): الدولة العربية في إسبانيا من الفتح حتى سقوط الخلافة 92-422هـ/711-1031م، دار النهضة العربية، بيروت، 1980.

82 - تامر (عارف): القائم والمنصور الفاطميان أمام ثورة الخوارج، دار الآفاق الجديدة، ط1، بيروت، 1982.

83 - توماس (أرنولد): الدعوة إلى الإسلام، ترجمة: حسن إبراهيم حسن وآخرون، مطبعة الشكيني، القاهرة، (د.ت).

84 - الجعبيري (فرحات): نظام العزابة عند الإباضية الوهبية في جربة، المطبعة العصرية، تونس، 1975.

85 - الجنحاني (الحبيب): دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، 1986.

86 - الجنحاني (الحبيب): المغرب الإسلامي (الحياة الاقتصادية والاجتماعية ق3-4هـ)، الدار التونسية للنشر، تونس، 1978.

87 - جهلان (عدون): الفكر السياسي عند الإباضية من خلال آراء الشيخ محمد بن يوسف أطفيش (1818-1914)، نشر جمعية التراث، القرارة، (الجزائر).

88 - الحارثي (سالم بن حمد بن سليمان): العقود الفضية في أصول الإباضية، نشر وزارة الثقافة، سلطنة عمان، 1983.

89 - الحريري (محمد عيسى): الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي (حضارتها وعلاقاتها الخارجية بالمغرب والأندلس)، دار القلم، ط2، الكويت، 1987.

90 - حسن (حسن إبراهيم): تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية، ط9، القاهرة، 1986.

91 - حسن (حسن إبراهيم): تاريخ جوهر الصقلي، قائد المعز لدين الله الفاطمي، مطبعة السعادة، ط2، القاهرة، 1963.

92 - حسين (أحمد إلياس): الطرق التجارية عبر الصحراء الكبرى حتى مستهل القرن 16م كما عرفها الجغرافيون العرب، رسالة ماجستير، كلية آداب القاهرة، 1977.

93 - خليفات (محمد عوض): نشأة الحركة الإباضية، مطابع دار الشعب، عمان، 1978

94 - خليفات (محمد عوض): النظم الاجتماعية والتربوية عند الإباضية في شمال إفريقيا في مرحلة الكتمان، ط1، عمان، 1982.

95 - دبوز (محمد علي): تاريخ المغرب الكبير، دار إحياء الكتب العربية، ط1، القاهرة، 1963.

96 - رياض (زاهر): شمال إفريقيا في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1965.

97 - الزاوي (أحمد الطاهر): تاريخ الفتح العربي في ليبيا، دار المعارف، القاهرة (ج.ت).

98 - زيتون (محمد محمد): المسلمون في المغرب والأندلس، دار الوفاء للطباعة، القاهرة، 1984.

99 - سالم (السيد عبد العزيز): تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، نشر مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، الإسكندرية، (د.ت).

100 - سرور (جمال الدين): سياسة الفاطميين الخارجية، دار الفكر العربي، القاهرة، 1976.

101 - السلاوي (أبو العباس أحمد): الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، القاهرة، 1316هـ.

102 - السيابي (سالم بن حمود بن شامس): طلقات المعهد الرياضي في حلقات المذهب الإباضي، مطابع سجل العرب (دون مكان)، 1980.

103 - طالبي (عمار)، آراء الخوارج، دار العلم للطباعة، الإسكندرية، 1971.

104 - الطالبي (محمد): الدولة الأغلبية (التاريخ السياسي 184-296)، ترجمة: المنجي الصيادي، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1985.

105 - الطاهر (عبد الجليل): المجتمع الليبي، دراسات اجتماعية وأنثروبولوجية، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، 1969.

106 - طرخان (إبراهيم): إمبراطورية غانة الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، 1970.

107 - طعيمة (صابر): الإباضية عقيدة ومذهبا، دار الجيل، بيروت، 1986.

108 - العبادي (أحمد مختار): في التاريخ العباسي والفاطمي، دار النهضة العربية، بيروت، 1971.

109 - العبادي (أحمد مختار): في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، 1978.

110 - عباس (إحسان): تاريخ ليبيا منذ الفتح العربي حتى مطلع القرن 9هـ، دار صادر، ط1، بيروت، 1967.

111 - عبد الحميد (سعد زغلول): تاريخ المغرب العربي، دار بور سعيد للطباعة، الإسكندرية، 1979.

112 - عبد الرازق (محمود إسماعيل): الأغالبة (سياستهم الخارجية)، مطبعة النجاح الجديدة، ط2، الدار البيضاء، 1978.

113 - عبد الرازق (محمود إسماعيل): الخوارج في المغرب الإسلامي، دار العودة، بيروت، 1976.

114 - عبد الفتاح (مولى أحمد): القوى السنة في المغرب من قيام الدولة الفاطمية إلى قيام الدولة الزيرية (296-361هـ)، دار المعرفة الجامعية، ط1، الإسكندرية، 1985.

115 - عبد المطلب (رفعت فوزي): الخلافة والخوارج في المغرب العربي (الصراع بينهما حتى قيام دولة الأغالبة)، دون دار النشر والمكان، ط1، 1973.

116 - العدوي (إبراهيم أحمد): بلاد الجزائر تكوينها الاسلامي والعربي، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة 1983.

117 - العربي (إسماعيل): دولة الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1980.

118 - العربي (إسماعيل): دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980.

119 - العربي (إسماعيل): عواصم بني زيري، دون دار النشر، بيروت، 1984.

120 - عفيفي (محمود إبراهيم): أحوال بلاد المغرب الاقتصادية في ظل السيادة الفاطمية (296-442هـ) (909-1058م)، رسالة دكتوراه، كلية آداب القاهرة، 1977.

121 - عنان (محمد عبد الله): تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط2، القاهرة، 1954.

122 - الفاسي (عبد الرحمن): خطة الحسبة في النظر والتطبيق والتدوين، دار الثقافة، ط1، الدار البيضاء، 1984.

123 - فرج (محمد): عمرو بن العاص، دراسة مستحدثة لحياته وحروبه، دار الفكر العربي، القاهرة، 1960.

124 - فلهاوزن (يوليوس): أحزاب المعارضة في الإسلام (الخوارج والشيعة)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1968.

125 - لقبال (موسى): دور كتامة في قيام الخلافة الفاطمية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 1979.

126 - لقبال (موسى): المغرب الإسلامي منذ بناء معسكر القرن حتى انتهاء ثورات الخوارج (سياسة ونظم)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 1981.

127 - لومبار (موريس): الإسلام في مجده الأول، القرن (2-5هـ)(8-11م)، ترجمة وتعليق: إسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط1، الجزائر، 1984.

128 - الجدوب (عبد العزيز): الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية، الدار التونسية للنشر، ط2، تونس، 1985.

129 - المدني (توفيق): كتاب الجزائر، دار المعارف، ط2، القاهرة، 1963.

130 - مرمول (محمد الصالح): السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983.

131 - مزهودي (مسعود): الإباضية في المغرب الأوسط منذ سقوط الدولة الرستمية إلى هجرة بني هلال إلى بلاد المغرب (296-442هـ)، رسالة ماجستير، كلية آداب القاهرة، 1988.

132 - معمر (علي يحي): الإباضية بين الفرق الإسلامية، مطابع سجل العرب، ط1، القاهرة 1976.

133 - معمر (علي يحي): الإباضية دراسة مركزة في أصولهم وتاريخهم، مطبعة التضامن، ط2، القاهرة، 1987.

134 - معمر (علي يحي): الإباضية في ليبيا، مطابع دار الكتاب العربي بمصر، ط1، القاهرة، 1964.

135 - معمر (علي يحي): أضواء على الإباضية، المطابع العالمية، روى، سلطنة عمان، (د.ت).

136 - مفتاح (صالح مصطفى): ليبيا منذ الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر، منشورات الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ط1، بيروت، 1978.

137 - مفتاح (صالح مصطفى): برقةوطرابلس من الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر، رسالة ماجستير بكلية آداب القاهرة، 1976.

138 - المناوي (محمد حمدي): الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، دار المعارف، القاهرة، 1970.

139 - مؤنس (حسين): فتح العرب للمغرب، نشر مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (د.ت).

140 - مؤنس (حسين): فجر الأندلس (دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية 711-756)، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط2، جدة، 1985.

141 - مؤنس (حسين): معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار مطابع المستقبل، ط1، القاهرة، 1980.

142 - الناضوري (رشيد): المغرب الكبير، دار النهضة العربية، بيروت، 1981.

143 - النقيرة (محمد عبد الله): انتشار الإسلام في شرق إفريقية ومناهضة الغرب له، دار المريخ للنشر، الرياض، 1982.

144 - النوري (حمو محمد عيسى): دور الميزابيين في تاريخ الجزائر قديما وحديثا، دار الكروان، باريس، 1984.

145 - هويدي (يحي): تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الإفريقية (الشمال الإفريقي)، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1965.

146 - ولد دادة (محمد): مفهوم الملك في المغرب، دار الكتاب اللبناني، ط1، بيروت، 1977.

147 - يوسف (جودت عبد الكريم): الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين (9-10م)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992.

148 - يوسف (جودت عبد الكريم): العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.

المراجع الاجنبية:

149-Dachraoui Ferhat: Le califat Fatimide au Maghreb 296362- H, Imprimerie Officielle de la République Tunisienne, Tunis, 1981.

150-Despois Jean : Le djebel Nafusa, étude géographique, édition larose, Paris, 1935.

151-Encyclopedie de l'islam nouvelle édition 1979 (Lawata).

152-Gautier E.F : Les siècles obscurs du Maghreb, Payet, 1952.

153-Golvin L : Le Maghreb central a l>époque des Zirides, arts et métiers graphiques, Paris, 1957.

154-Hadj Sadok Mohamed : Description du Maghreb et de l' Europe au 3eme siècle, édition Paul Geuthner, Paris, 1983.

155-idris Hady Roger : La Berberie musulmane sous les Zirides, X-XII, Paris, 1962.

156-La Voix Henri : catalogue des monnaies musulmanes de la bibliothèque national de Paris, V2 (Espagne et Afrique), Paris, 1891.

157-Lethilleux Jean : Ouargla cite saharienne des origines au début du XX Paul Gautier, paris, 1983.

158-Lewicki Tadeusz : Etudes Maghrébines et Soudannaises édition scientifique de Pologne, Varsovie, 1976.

159-Marcais George, La Berberie musulmane et l>orient au moyen age, Imprimerie Tyopolitho Edition Montaigne, Alger, 1946.

160-Solvet C.H : Description des pays du Maghreb, Textes Arabes Traduits D>abul-Feda, Imprimerie du gouvernement Alger, MDCCCXXXIX.

الأبحاث العربية:

161 - بن تاويت (محمد): دولة الرستميين أصحاب تاهرت، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، 1957، مج5.

162 - الحسيني (محمد باقر): دراسات عن نقود الثوار والشعارات والمناسبات المضروبة في إفريقية، مجلة المسكوكات، بغداد، 1976.

163 - عمر (بابا واسماعيل): وادي ميزاب، مجلة التاريخ، منشورات المركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر، 1985، عدد19.

164 - فوزي (فاروق عمر): ملامح من تاريخ الخوارج الإباضية، مجلة المؤرخ العربي، منشورات اتحاد المؤرخين العرب، بغداد 1975، عدد2.

165 - لقبال (موسى): من قضايا التاريخ الرستمي، مجلة الأصالة، منشورات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، 1977، عدد41.

166 - محمود (حسن أحمد): محنة الشيعة بإفريقية، في القرن الخامس الهجري، مجلة كلية الآداب ، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة، 1950، مج12.

167 - مزهودي (مسعود): العلاقات الثقافية بين إباضية جزيرة جربة وإباضية المغرب الأوسط في القرنين الرابع والخامس للهجرة (10-11م)، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة باتنة، 1994، عدد2.

168 - النامي (عمرو خليفة): ملامح عن الحركة العلمية بوارجلان، الأصالة، منشورات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، 1977، عدد42-43.

169 - نوري (دريد عبد القادر): ازدهار الصناعة والزراعة في بلاد السودان الغربي بعد القرن 5هـ/11م، كما وصفته المراجع العربية الإسلامية، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، 1986، مج6، عدد21.

الأبحاث الأجنبية:

170 - Basset Rene: Les Sanctuaires du djebel Nafousa, Les cahiers de Tunisie, Tunis, 1981, t29, N° 115116-.

171 - Bekri Cheikh : Le Kharregisme berbère, extraits des annales de l'institut d études orientales, Alger, 1957, T15.

172 - Fekhar Brahim : Les institutions Ibadites Maghrebines au moyen age, l'institution des Azzabas, acte du 3e Congre d'histoire et de civilisation du Maghreb Oran, 2628- novembre 1983, OPU, Alger, 1987.

173 - Lhote Henri : la saline d'Amadror et le géographe, El-Bekri, Bulletin de liaison saharienne 1953, N°14.

174 - Lewicki Tadeusz : Les noms berbères empoyes chez les Nafusa médiévaux (VIII-XVI) Folia Orientalia Varsovie, 1972, T14.

175 - : : La répartition géographique des groupements Ibadites dans l'Afrique du nord au moyen age Rocznik orietalistyczny, 1957 T21.

176 - : : Tasmiya suyuka Nafusa wa qurakum rocznik orietalistyczny varsovie 1961, T25.

177 - : : Les subdivisions de Libadiyya, Studia Islamica, Larose, Paris, 1958, T9.

178 - : : Mélanges berbères -Ibadites (sur la vieille littérature ibadite en langue berbère), revue des études islamique, 1962, cahiers N°2.

179 - : : Les hakims et les muqqadams du Gabal Nefusa au moyen age Rocznik orientalis-tyczny, Varsovie, 1962, T26.

180 - : : Un document ibadite inedit sur l'émigration des Nafusa du Gabal dans le Sahil Tunisien au VIII/IX e, Folia Orientalia 1959, T 12-.

181 - : :Quelques extraits inedites relatifs aux voyages des commerçants et des missionnaires ibadites nord- africains au pays du soudan occidental, Folia Orientalia 1960, T2.

182 - : : traits d'histoire du commerce trans-saharien marchands et missionnaires ibadites au soudan occidental et central au cours des VIII-XII S, ethnographia Polska, 1946, V8.

183 - : :Les origines de l'islamisation de Tademekka d'après les sources arabes, bibliothèque d'outre -mer, Paris, 1981, N°56-.

184 - : : Du nouveau sur la liste des tribes berbères d'Ibn Hawkal Folia Orientalia 1971, T 13.

185 - : : survivances chez les berbères medieveaux des musulmans de cultes anciens et de croyances Paienne, Folia Orientalia 1967, T8.

186 - : Mercier Marcel : Note sur une architecture berbère saharienne, Hesperis, 1928, T8.

فهرس الموضوعات

مقدمة		
المصادر والمراجع (عرض وتحليل)		
الباب الأول: جبل نفوسة من الدعوة الإسلامية إلى الدعوة الإباضية		
الفصل الأول: جبل نفوسة(البلاد والسكان)		
الموقع الجغرافي		
1 - السكان(أصولهم ومواطنهم)		
ا - نفوسة		
ب - هوارة		
ج - لواتة		
د - مزاتة		
هـ - سدراتة		
و - لماية		
ز - زناتة		
ح - زواغة		
3 - أوضاع الجبل قبل الفتح الإسلامي		

4 - الديانة		
5 - الفتح الإسلامي		
الفصل الثاني: دخول المذهب الإباضي إلى جبل نفوسة		
1 - دعاة الإباضية فى الجبل		
2 - حملة العلم المغاربة		
3 - إمامة عبد الله بن مسعود التجيبي والحارث بن تليد الحضرمي		
4 - قيام الإمامة الخطابية في طرابلس (757-761 م)		
أ - تولية أبي الخطاب الإمامة		
ب - إستيلاؤه على طرابلس		
ج - استيلاؤه على القيروان		
5 - موقف الخلافة العباسية من الإمامة الخطابية		
6 - إمامة أبى حاتم الملزوزي		
أ - استيلاؤه على طرابلس		
ب - حصار طبنة والقيروان		
الباب الثاني: جبل نفوسة والحركة الإباضية (776-909 م)		
الفصل الأول:الرواد النفوسيون في المجال السياسي والعسكري والعقائدي		
1 - المجال السياسي		

2 - المجال العسكري		
أ - حصار طرابلس		
ب - نفوسة والصراع الطولوني - الأغلبي		
ج - موقعة مانو		
3 - المجال الفكري والعقائدي		
الخلفية		
النفاثية		
الفصل الثاني: نفوسة دورها ومكانتها فى الدولة الرستمية		
نفوسة وواصلية تاهرت		
نفوسة وفتنة محمد بن عرفة		
نفوسة وفتنة محمد بن رباح ومحمد بن حماد		
نفوسة وتعيين الأئمة		
نفوسة وتولي المناصب في الدولة		
الباب الثالث: جبل نفوسة بين ثلاث قوى (الفاطميون - الزيريون - الهلاليون)		
الفصل الأول:جبل نفوسة والخلافة الفاطمية		
1 - النظام السياسي في الجبل بعد سقوط إمامة الظهور		
2 - الرئاسة العامة		

مقدمي النواحي		
3 - الهجرة النفوسية إلى إفريقية والمغرب الأوسط		
4 - قيام الدولة الفاطمية في بلاد المغرب وموقف الإباضية منها		
الانتفاضات الإباضية		
أ - ثورة طرابلس (300 هـ/912 م)		
ب - ثورة نفوسة (310 هـ/922 م)		
ج - ثورة النكارية (322 هـ/933 م)		
د - ثورة الوهبية (358 هـ/968 م)		
الفصل الثاني:نفوسة الجبل والصراع الفاطمي -الزيري		
رحيل المعز لدين الله الفاطمي الى مصر		
علاقات إباضية الجبل ببني زيري		
قيام الإمارة الزيرية		
النفوسيون وبني زيري		
-3 استراتيجية جديدة للفاطميين		
-4 جوغراف والهجرة الى المجهول		
الباب الرابع: الحياة الاقتصادية والثقافية والاجتماعية		
الفصل الأول: الحياة الاقتصادية في الجبل		

الأوضاع الاقتصادية في بلاد المغرب		
1 - الزراعة		
2 - الثروة الحيوانية		
3 - الصناعة		
4 - التجارة		
5 - الطرق التجارية		
الطرق البرية		
الطرق البحرية		
أ - الأسواق		
ب - السلع الصادرة والواردة		
ج - تجارة السودان		
-6 المكاييل والموازين		
7 - العملة		
8 - الحسبة		
9 - مستوى المعيشة		
الفصل الثاني: الحياة الفكرية والاجتماعية في جبل نفوسة		
أولا: الحياة الفكرية		
تاهرت عاصمة الإشعاع الفكري		

النهضة العلمية بالجبل		
أ - حلقات العلم		
ب - تمويل طلبة العلم والإنفاق عليهم		
ج - التنافس العلمي		
د - إرساء تقاليد الحلقة		
العلوم والعلماء		
العلوم		
العلماء		
حركة التأليف		
المكتبات		
العلاقات الثقافية بين جبل نفوسة وإباضية المشرق والمغرب		
مع إباضية المشرق		
مع إباضية المغرب		
ثانيا: الحياة الاجتماعية		
نظام العزابة		
التنظيم الطبقي في المجتمع النفوسي		
المرأة		
خاتمة		

الملاحق		
المصادر والمراجع		